في بيت محمد حسين زيدان

طارق فريد زيدان

مدارك

في بيت محمد حسين زيدان

الكتاب: في بيت محمد حسين زيدان

المؤلف: طارق فريد زيدان

التصنيف: سيرة ذاتية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: فبراير 2019

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 2 - 802 - 429 - 614 - 978

تصميم الغلاف: علي شمس الدين

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من **مدارك**.

Madarek Publishing House

مدارك

دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية

8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia

Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com | read@mdrek.com | DarMadarek

طارق فريد زيدان

في بيت

محمد حسين زيدان

الفهرس

تقديم 9

المقدمة 15

شيء ما في الأفق... 22

مسرح القصة 28

حوش خميس هو العالم 33

الجدّة 38

أولاد حارتنا 43

عادات وتقاليد 48

العين الزرقاء 50

الثغر والآبار والماء في المدينة 58

باب عرب 61

باذنجانة حمراء 69

حصان إبليس 74

وفاةُ الجدةِ 80

الدكان 85

الاكتفاء الذاتي في المدينة 91

وادي مشعط 94

أول سر حفظه الطفل محمد 100

الترحيل 105
جبل التمر 110
ولد الكشي 115
التتريك وحصار المدينة الأول 123
المستر إحسان الله ضابط استخبارات 128
(عن الأمن المفقود) 135
طريق البلدية خط التماس 152
علاقة القصيم بالمدينة 157
حريق القلعة 160
الكرسيّ عربي أم أعجمي؟ 168
يوم كتب فيه بيت شعر 174
سلمى وإسحاق وخرمباق 181
الأرض كروية والسبب في زواجه الثاني 196
شهادة المدرسة يوقعّها عسكري 203
تلك الأيام نداولها بين الناس 210
الملك عبد العزيز في المدينة 216
يوم عيّن أُستاذًا 223
الوهابية في المدينة 227
حكايات دار الأيتام 231
العالمية 245

آه يا عيني على البخاري 249
احتفال دار الأيتام بالأزهر والجامعة 254
السواني 258
الزيارة الثانية لعبد العزيز إلى المدينة 269
حين ألقى كلمة الشعب 272
السيد صافي 277
ابن خلدون ومحمد يقرآن قصيدة 283
الصحافة في المدينة 288
مقالة كادت أن تنفيه من المدينة 291
يوم ألقى ميثاقًا لجمال عبد الناصر 300
الحجّ والحجّاج 307
سيوف حكمت المدينة 310
أسطوانات المدينة 315
الانتقال من المدينة 322
حجّاج جاوة وسداد الدين 327
الجرارين 332
معاملة أهل المدينة لوزارة المالية 340
ملوخية بالبرسيم 344
يا غافل لك الله 349
العمل في الصحافة والإعلام 352

خارج العهود الثلاثة 358
المدينة المنورة 365

تقديم

مِنْ زَيْدان الأوَّل إلى زَيْدان الثَّاني

لمْ يشأْ طارق زيدان أن يُعِدَّ بحثًا عنْ جَدِّه محمَّد حسين زيدان، فذلك شأن الباحثين والدَّارسين، ولهم وحدَهم أن يقولوا فيه ما يحتمله العِلْم والبحث والنَّقْد، ولكنَّه اختار كِتاب جَدِّه ذكريات العُهُود الثَّلاثة، فقرأه مرَّاتٍ ومَرَّاتٍ، فكان كِتابه هذا الَّذي بين أيدينا. وكأنَّما أراد طارقٌ أن يَتَخَيَّرَ مِنْ تراث جَدِّه «زيدان الكبير» ما كان أدنَى إلى نَفْسه ورُوحه ووِجدانه، فالكِتاب معدودٌ في أدب «التَّرجمة الشَّخصيَّة»، وإنْ شِئْتَ «السِّيرة الذَّاتيَّة»، ورُبَّما تَحَدَّرَ شيْءٌ ليس بيسيرٍ مِنْ رُوح الجَدِّ إلى رُوح الحفيد، فإذا به يقرأ تلك الذِّكريات ويُخْرِج لنا مِنْ وقُوفه عليها كِتابًا، بِوُسْعِنا أنْ نَعْتَدَّه «رواية»، كما أراد طارق، وبِوُسْعِنا أن نرى فيه غير ذلك مِنْ صُنوف التَّأليف وأنواعه، لكنَّنا، في كُلّ أحوالنا، نَظْهَر على سِيرة «زيدان الكبير» بِخَطِّ حفيده «زيدان الصَّغير»، وفيها ألوان مِنَ البَسْط والتَّفصيل والتَّخييل، أراد مِنْ ورائها الحفيد أن يُمَثِّل لنا تاريخًا، لعلَّه يراه جُزْءًا مِنْ تاريخ أُسْرته، ونراه نحن – قُرَّاء زيدان الكبير – أثَرًا مِنْ نَفْسه، ورُبَّما عَدَدْناهُ جُزْءًا مِنْ تاريخ المملكة العربيَّة السُّعُوديَّة، أو «الكِيَان الكبير»، متى ما استعرْنا عِبَارته.

وهذا الضَّرْب مِنَ التَّأليف، الَّذي يُؤَلِّف فيه الابْنُ عن الأبِ، أو الحفيد عن الجَدِّ، يَسْتهوي القارئَ والباحثَ والأديبَ والنَّاقدَ، ذلك أنَّهم يقرأون جيلين مختلِفَيْن، يَجْمَع بينهما النَّسَب والعَصَبيَّة والاسم، وعساهُمْ يَحْسَبون أنَّ هذا الضَّرْب مِنَ الكِتابة الأُسْريَّة حَرِيٌّ به أن يَجْلُوَ غامضًا، أوْ يُصَحِّحَ وَهْمًا، أوْ يُتِمَّ خَبَرًا. وفيه، مع ذلك، شيْءٌ حبيب؛ أنَّنا نقرأ في كتاب الابن أو الحفيد تلك العواطف المشبوبة وهي تأبَى إلَّا أنْ تتسلَّط على الكاتب، ويتسرَّب شيْء مِنْها إلى عباراته وجُمَلِه، وكأنَّما أراد أحدهما أوْ كِلاهُما الذَّوْد عنْ هذا القريب الحبيب، وتَسْويغ هذا الفِعْل أوْ ذاك مِمَّا اضطربَتْ فيه حياته وتَقَلَّبَتْ، ولا شَكَّ أنَّنا سنظفر بِقَدْرٍ كبيرٍ مِنَ الدَّهَش والغرابة، متى ما وَقَعْنا على هذا الضَّرْب مِنَ التَّأليف، وعسى أن يَتَسَرَّبَ إلينا شُعُور يُبايِن شُعورنا، لوْ قَرَأْنا السِّيرة نَفْسها مُحَرَّرةً بقلمِ باحثٍ أوْ أديبٍ لا تَجْمعه بالمكتوب عنه آصرةٌ مِنْ نَسَبٍ أوْ صِلَةٌ مِنْ عَصَبِيَّة.

ولعلَّكَ أحسسْتَ شيئًا مِنْ ذلك في غير كِتابٍ اختصَّ به الابنُ سِيرة أبيه، وعلى كثرة ما أُلِّفَ في أمير الشُّعراء أحمد شوقيّ، وعلى دَوَران المؤرِّخين والنُّقَّاد في شِعْر شوقيّ وأدبه وسِيرته؛ فإنَّه لا يزال لِكِتاب أبي، شوقيّ لابنه

حسين بن أحمد شوقيّ، مِنَ اللّذّة والمَتاع والدَّهَش، فوق ما تَجده في كُتُب النَّقَدَة والباحثين، مهما أحسنوا، ومهما أجادُوا وأتقنوا، ويَدْهَمُكَ الشُّعُورُ نَفْسُه وأنتَ تقرأ كِتاب حسين بن أحمد أمين، ذلك الطَّريف الرَّائع في بيت أحمد أمين، وتَقِف مِنْ حياة صاحب فَجْر الإسلام وضُحَاهُ وظُهْره، فوق ما تَرْجُوه مِنَ الكاتبين، بلْ فوق ما أَدَّاه إلينا أحمد أمين نَفْسُهُ في سِيرته البديعة الرَّائعة حياتي، وقُلْ ذلك في ما أَنْشَأَتْهُ مُنَى بنت حسين مؤنس في أبيها المؤرِّخ العلّامة الجليل في بيت حسين مؤنس، فَظَهَرْنا على سِيرة مؤرِّخ الأندلس العظيم في بيته، وفي كَنَف أُسْرَته، وأتاح لنا كِتاب الابنة أن نَعْرِف الأبَ العطُوف الحَنُون، بَعْدَ أنْ عَرَفْناه، مِنْ قَبْلُ، مؤرِّخًا جليلًا، وباحثًا كبيرًا.

في كِتاب طارق فريد محمَّد حسين زيدان شيْءٌ مِنْ ذلك، وإنْ خالَفَ عنْ تلك الكُتُب بعض المخالَفة؛ فيه يكتب الحفيد عن الجَدِّ كِتابةً جديدةً قديمةً؛ جديدةً لأنَّه أنشأ كلامًا على كلام، أراد مِنْ ورائه أن يَتَّخِذَ مِنْ جَدِّه الأديب الكبير القدوة والمَثَل، دُون أنْ يَنْطِق بتَيْنِكَ اللَّفظتَيْن، وأن يعود إلى ذلك الماضي البعيد، فيُوْسِع سِيرة جَدِّه في العُهُود الثَّلاثة الَّتي عاشها «العثمانيّ والهاشميّ والسُّعُوديّ»، فإذا بنا إزاء «بَطَلٍ»، صُنِعَ على عَيْن تلك الحِقَب كُلِّها، وكأنَّما كان محمَّد حسين زيدان في ذكريات العُهُود الثَّلاثة، وفي كتاب حفيده طارق؛ مُعَبِّرًا عنْ رُوح المدينة المنوَّرة الَّتي عَرَفَها كأتَمِّ ما تكون المعرفة، يَجْمَع ساكنيها المسجدُ النَّبويُّ الشَّريفُ، مهما تَقَلَّبُوا في ألوان مِنَ المَعاش، ومهما تَبايَنُوا في المَنْبَت والأصل والفَصْل، وأنتَ تُدْرِكُ شيئًا مِنْ هذه «العبقريَّة» متى قَرَأْتَ الفُصُول الأُولى مِنْ ذكريات العُهُود الثَّلاثة، وتَظْهَر عليها كُلَّما مَضَيْتَ في كِتاب طارق الحفيد، وستخرُج مِنَ كِلا الكِتابَيْن، وقدْ أعجبكَ في سِيرة زيدان الأوَّل أنَّه اجتمع فيه البدويُّ والحَضَريُّ والقَرَويُّ، بلْ إنَّكَ لَتَرَى كيف دَفَعَ بكلماته المُجَنَّحة عن البَدْو والبادية، دِفَاعَه عنْ نَفْسه، فليس أَدْنَى إلى شخصيَّته وتكوينه مِنْ أن يَنْشَأَ نشأةً بدويَّةً خالِصةً، في بيت الشِّعْر، وكان يحلُو له في الكِتاب والمقال والمحاضرة أن يَصْدع بهذه العِبارة الحبيبة: «أنا بَدَويٌّ.. أُمِّي بدويَّةٌ، ووُلِدْتُ ونَشَأْتُ في بيت شَعْر»، فصار لنا مِنْ سِيرته، ومِمَّا أَدَّاه إلينا طارق الحفيد، في كِتابه هذا، المَثَلُ والقدوةُ، وأحسب أنَّه لوْ لمْ نَظْفَرْ مِنْ كِتاب «زيدان الثَّاني» إلَّا بهذه الخَلَّة الكريمة لَكَفانا ذلك كَسْبًا ومَنْقَبةً.

قال طارق زيدان: إنَّ كِتابه هذا «رواية»، ورُبَّما يوافقه القارئ على ما أراده أوْ يخالفه، وحَسْبُه أنَّه أنشأ لنا نَصًّا تَخَيَّرَ مادَّته مِنْ كِتاب الجَدّ، ثُمَّ أدار قلمه وأجرَى خَيَاله فيما انتخبَ وتَخَيَّرَ، حتَّى إذا تَمَّ له ذلك، نراه وقدْ أَشْبَعَ ما قَرَأَ ثُمَّ ما كَتَبَ، بَسْطًا وتَحليلًا، وكأنَّما ابتغى طارقٌ، مِنْ وراء ذلك، أمرين: أن

يَصُوغ «سِيرة بَطَل»، وأن يَصْنَع على كِتاب جَدِّه «شَرْحًا»، أوْ «حاشِيَةً»، كما كان يَصْنع الخالِفُون مَعَ السَّالِفِين.

ورُبَّما وَجَدْتَ في مُصَطَلَحَيْ «شَرْح»، و«حاشية» شيئًا مِنْ طَرَافة، فَهُما يُذْكرانِكَ بألوانٍ خَلَتْ مِنَ الكِتابة والتَّأليف. يَضَع الشَّيخُ مَتْنًا أوْ كِتابًا، ثُمَّ إذا بِنا نقرأ على أحَدهما أوْ كِلَيْهِما شَرْحًا أوْ شُرُوحًا، وما هِيَ إلَّا قليلٌ حتَّى نقرأ «حاشيةً»، و«تَقريرًا»، أوْ ما شاء أولئك القوم مِنْ ألوان الكِتابة والتَّأليف.

فإذا وافقْتَ طارقًا على أن اصطنعَ لكِتابه هذا مصطلح «رواية»، فذلك وما تريد، وإنْ رأيْتَهُ أنا – كما رأيْتُهُ أنا – ضَرْبًا مِنَ التَّأليف هو أدنَى إلى «الشَّرْح» أو «الحاشية»، فعسانا لمْ نُسْرِفْ في التَّأويل، وما كُتُبُنا، اليومَ، إلَّا صُنُوفٌ مِنَ «الشُّرُوح» و«الحَوَاشِي»، مهما اصطنعْنا لها مِنَ التَّسْمِيَات، ومهما غَلَوْنا في صَوْغ العنوانات، ولعلَّ طارقًا رأى في ذكريات العُهُود الثَّلاثة اختصارًا فأتَمَّهُ، أوْ غامِضًا ففَسَّرَه، أوْ عويصًا فشَرَحَه، وصار لنا مِنْ كُلِّ ذلك كِتابٌ، نقرأ فيه كلامًا على كلام؛ كلامَ الحفيد على كلام الجَدّ، على تَبَدُّل الأزمنة واختلاف الأمكنة، وكأنَّما أراد طارقٌ الحفيد أن يَعُود، ثانيَةً، فيُذْكِرُنا بالقِيَم الَّتي ناضَلَ دُونَها جَدُّه محمَّد حسين زيدان وثَبَتَ عليها، تلك القِيَم الَّتي رآها صالحةً لزمانه وزماننا، وجديرةً بأن يتحلَّى بها العربيُّ والأعجميُّ، والحَضَرِيُّ والبَدَوِيُّ والقَرَوِيُّ.

رَحِمَ اللّٰهُ زَيْدَانَ الجَدّ، وبارَكَ لنا في زيدانَ الحفيد!

حسين محمَّد بافقيه

جدَّة – ضاحية أبحر الشَّماليَّة

15 مِنْ شَهْر المُحَرَّم سنة 1440هـ

المقدمة

لكل رواية حكاية. ولكل فصل من هذا الكتاب قصة، عهد، وأشخاص، وحتى باسبور (جواز سفر).

وهنا أبدأ بسرد الحكاية.

كنت عائدًا مع عائلتي من رحلة إجازة الصيف، آتيًا من بيروت السروق، كما كان يصفها جدي، إلى بلدي السعودية. ذهبت للاطمئنان على أولادي الثلاثة، فريد وفيصل وفيء. وجدتهم فرحين يلعبون، وهم يتابعون النظر إلى الشاشة أمام كراسيهم في الطائرة. بعدئذ قفلت راجعًا إلى مقعدي وأمامي صفوف من الكراسي، يجلس عليها غرباء، من كل حدب وصوب. ومعظم الشاشات المعلّقة تعرض خريطة سير الرحلة. كنا فوق الحدود الأردنية السعودية.

وقف رجل من جهتي اليمنى بدا لي أنه يريد الذهاب إلى الخلف. وأنا إلى الأمام. تنحيت جانبًا وأنا أضحك. رأس مالي ومستقبلي (الأولاد) خلفي. تمسكت بالشاشة التي بجانبي لأميل. ليسلك الرجل طريقه، وآنا حكايتي. ورحت أمشي قدمًا إلى مقعدي متذكّرًا جدي. متذكّرًا قصصه وذكرياته. عندها تذكرت أنني كنت في يوم ما رأس ماله ومستقبله.

وحالما جلست في مقعدي، لمحت خريطة مسار الطائرة مرة أخرى على الشاشة أمامي. وقلت في نفسي هذه طرق كان يسلكها جدي. وكتب عنها. كتبها في ذكرياته عن العهود الثلاثة، التي عاصرها في المدينة المنورة، ثمّ أخرجت الحاسوب المحمول وبدأت. بدأت أكتب عن ذكريات محمد حسين زيدان في المدينة المنوّرة. عن تجارب وقصص وجغرافيا وناس، وحتى عن تاريخ.

لكن ما استثارني تحديدًا هو كلمتا العهود الثلاثة. والمقصود بالعهود الثلاثة، الدول التي ولد فيها جدّي محمد وعاش ومات، وهي الدولة العثمانية، ودولة الأشراف، والمملكة العربية السعودية. دول ثلاث كلها في مدينة واحدة. وكأنه كان يقول اختارني المكان والزمان، ولم أخترهما. فهو لم يكن له الحقّ في التقرير. له الحقّ فقط في المصير. ثلاث هويات. وثلاث جنسيات. وثلاث عواصم. وثلاثة جوازات سفر!

كيف؟

إذا قرأنا كتابه «ذكريات العهود الثلاثة» بمعايير اليوم، فسنجد أنّ محمدًا ولد مواطنًا في إمبراطورية كبيرة جغرافيًا. تمتد من مصر حتّى العراق. ومن الحجاز وفلسطين والشام والأناضول حتى الجبل الأسود وبودابست (عاصمة دولة المجر اليوم) في وسط أوروبا. إمبراطورية حملت شرعية الخلافة، وقوة الجندرمة (العسكر)، وسلطان الباب العالي. ولد في دولة، مدنها المدينة المنوّرة ومكّة المكرمة والقاهرة والقدس ودمشق وبيروت وبغداد، وعاصمتها اسطنبول. ولو كان هناك جوازات سفر في تلك الأيام، لكان محمد يستطيع التنقّل بين هذه العواصم من دون استخدامها. العهد العثماني كان وثيقة السفر الأولى.

ثم في لحظة اضطراب عالميّ، سمّيت الحرب العالمية الأولى، وجد محمد الصبي نفسه مواطنًا في دولة جديدة. مساحتها أصغر من الأولى بكثير. دولة شرعيتها ثورة شريف مكّة، ورافعتها القومية العربية، لكن من دون عسكر نظاميّ، ذلك يعني ثورة بدون ثوار. هي دولة الأشراف التي لم تدم أكثر من ثماني سنوات. امتدت من مدينة الطائف مرورًا بجدّة ومكّة المكرمة، حتّى المدينة المنورة. يتذكّرها محمد جيدًا. يتذكّر أول سر حفظه كطفل. السر كان موعد انطلاق الثورة العربية الكبرى على يد الشريف الحسين بن علي. ويتذكّر يوم حصار المدينة، والترحيل (السفر برلك) ولحظة تسليمها. هو العهد الثاني، أو جواز السفر الثاني.

وعندما أصبح محمد شابًا، هبّت هبوب الجنّة من الشرق. من شرق المدينة، في نجد، هبّت تبحث عن باغيها. يومها كان شعار قوات ابن سعود (الإخوان) يجسّد حركتهم كهبة من الجنة. يحملون الوعد بإصلاح العقيدة، والرجوع إلى السلف الصالح. يتذكّر محمد هنا كيف سُلّمت المدينة إلى الأمير محمد بن عبد العزيز، ابن ملك الحجاز الجديد، عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، معلنةً عهد مملكة في الحجاز، وسلطنة في نجد، وملحقاتها، عهد الدولة السعودية. ليصبح مواطنًا في بلد أكبر من دولة الأشراف، وعلى جميع الأصعدة. ممتدة من الخليج العربي حتّى البحر الأحمر. ضمت مناطق لم تعد جغرافيا فقط، بل أضحت مكمن ثروات أيضًا، حيث تضمّنت مناطق كان السفر إليها يحتاج إلى وثائق. كالسفر من نجد حتى الحجاز، والانتقال إلى اليمن أو الشام. طبعًا وثائق تلك الأيام لم تكن من ورق. وثائق ذاك الزمن كانت جولات وتحالفات يرويها محمد في مذكّراته وبالتفصيل. يروي كيف استتبّ الأمن في العهد الجديد ليتخلّى عن الوثائق القديمة، ويستخرج وثيقة جديدة لونها أخضر. إنه العهد الثالث، أو جواز السفر الثالث.

كل ذلك خطر في بالي في الطائرة، وأنا أختصر المسافات والزمان. ورحت أغوص في الكتابة أكثر وأعمق.

يبقى لماذا؟

لماذا رواية؟

ولماذا عن جدّك؟ ولمن تكتب؟

كتبت في مواضيع متعدّدة، في السياسة والاجتماع، وغيرهما، لكنني لم أجد متعة أكثر من متعة كتابة الرواية، بكل ما تمليه وتتضمّنه من خيال ممزوج بالوقائع. الخيال يعطيك التحفيز والتفكير، والوقائع تجعلك تحترم التاريخ وأصحاب التاريخ. والانغماس في كتابة الرواية مهمّة لها لذّة تضاهي ملذّات كثيرة.

وللحقيقة، مهمّتي كانت سهلة. فالمادة جاهزة، ولم ينقصها إلّا السرد القصصي. وعلى هذا المذهب وضعت هذا الكتاب. قصة تلو أخرى، لا على شكل تقليدي. شخصيات متعدّدة، بعضها لا يلاقي بعضًا، وفترات متقطعة من حياة محمّد، من دون سياق زمني متتابع. والنص خليط بين اللغة الفصحى واللهجة العامية.

اتّبعت إن شئتم طريقة الحكواتي.

ولقد سجّل محمد حسين زيدان الكثير من تجاربه وذكرياته. معظم الذكريات سجلها في كتابه «ذكريات العهود الثلاثة»، وبعضها في مقابلات ومحاضرات ومقالات منشورة له، إلّا أنني اعتمدت على كتابه «العهود الثلاثة» بالدرجة الأولى، ومنه الأساس.

أساسًا سجّل جدي في كتابه «العهود الثلاثة» ذكرياته عن أحبّ المدن إليه. ووضعها في صيغة تاريخ. وهو، أي محمد حسين زيدان، كان رجلًا يحترف الكتابة، كما يحترف الخطابة. كان يعشق جرْس الكلمة، كما كان يقول، إلّا أنه ارتأى تسجيل مذكّراته بالقلم فقط. بعكس مؤلّفات أخرى له، كان البيان وسلّم المعاني واضحين فيها. ولا أدري لماذا اختار هذه الطريقة، إلّا أنّ المادة الثرية في هذا الكتاب، تستحقّ أن تُحكى. ويستحقّ الزيدان كذلك. وعلينا واجب تجاه مدينة الرسول، صلّى اللّه عليه وسلّم، بذلك.

لأضع بين أيديكم كتابي هذا، عارضًا ما قرأته، وبصياغة تمزج التاريخ مع ذكريات الزيدان. من الخيمة الى عالم الكلمة وما بينهما.

هنا وللدقة أقدّم حكاية، لعلها رواية.

أقدّم قصة. ومن أراد أن يتعرّف على محمد حسين زيدان، فله من الكتاب حصة. ومن أراد أن يتعرّف على المدينة المنوّرة، فله أيضًا حصة. وإذا أراد أحد ما أن يتعرّف على المدينة المنوّرة من عينَي الزيدان، وتحديدًا في الفترة الممتدّة بين العامين 1318 و1369 هـ/ 1900م و1950 م، فله كل ذلك، وأكثر.

وربما أضيف خاطرًا خاصًا لديّ. أريد لهذه القصة أن تُحكى لأنها تحتل جزءًا كبيرًا من منسوبي الثقافي. أريد أن أجدها على رفوف مكتبة عائلتي، ليعرفوا كيف نحب الأرض والعشيرة والكلمة، كمحمد حسين زيدان.

طارق بن فريد بن محمد حسين زيدان

«من حق المدينة عليّ أن أكتب ذكرياتي عما شهدت،

وكيف رأيت من أحوال وأحداث، وما عرفت من رجال»

محمد حسين زيدان

شيء ما في الأفق...

في وسط الصحراء، وتحديدًا بادية المدينة المنوّرة، جلس الطفل محمد أمام خيمته مراقبًا الأفق. لا يبحث عن نجم سْهيل، كما يفعل البدو، لتحديد موقعهم، بل يدعو ربّه أن يرى والده آتيًا ومحرَّرًا من الأسر. فقبل أيام عدة غاب والد محمد باتجاه الأفق البعيد، مكبَّلًا ومخفورًا. غاب حسين بن زيدان، تأخذه سلطة حاكمة، لا تعرف من العدل إلّا قليلًا. سلطة اشتُهرت بالظلم.

ومع شروق كل شمس مدينية في عرض السماء، يستذكر محمد الطفل هذا الدرب البعيد مع الأفق، الذي سلكه والده.

حبس الحاكم والد محمد ظلمًا لم يكن بلا سبب. فالخلاف دار حول ملكية أرض بين حسين والشريف حسين بن فارس. إنه البستان الذي اشتراه حسين من الشريف في العوالي. والبستان الذي باعه الشريف لم تثمر فيه مزروعات، وهو في ملكيته. ومع حسين، فقد عمّرت وأثمرت.

فزانت الأرض للشريف وأراد استرجاعها، أو غيّر رأيه بكل بساطة، بعدما قبض ثمنها كاملًا!

الشريف يريد بستانه، الذي باعه وفقط. إنها «النزاقة» السُّلطوية التي كانت تمارَس على نحو عامّ في ذاك الزمان. ومعظم الناس كانوا يرضخون لتلك «النزاقة»، خوفًا من غضب السلطة. ولطالما تعرّض حلال الأهالي لمزاجية الحاكم. سواء كتجارة أو أرض أو حتى جباية ضرائب غير مفروضة من الباب العالي.

ولكنّ حسين غير. بعد محاولات متعدّدة، استخدم فيها كل وسائل الإكراه والإحسان معًا، لم يقنع الشريف حسين بن فارس، والد محمد، بإعادة الأرض.

«لا بالترهيب ولا بالترغيب. أنا بن هذه الأرض ومالك هذا البستان، ولست مقطوعًا من شجرة. لي عشيرة تحميني. إذا كنتم تريدون الأرض، فاشتروها بثمن اليوم». هكذا جاوب حسين مندوبي الشريف، المتزلّفين والمنتفعين.

عندئذٍ طلب الشريف حسين بن فارس، من ابن عمه صاحب السلطة، الشريف شحّات بن علي، قائمقام المدينة المنورة، مساعدته على استرداد الأرض، المتنازع عليها.

يعني استعمال السلطة، بمصطلح اليوم.

القبض على حسين.....

«قم يا بن زيدان كلّم الشريف شحّات»، هكذا خاطب البواردي خوي الشريف، حسين، مصوِّبًا بندقيته نحوه.

«باللين أو بالقوة، هو يبغى المزرعة ترجع للشريف حسين، ومن دون دفع قيمتها»، هذا ما قاله البواردي، لكن هذه المرة والبندقية مصوّبة إلى ابنه محمد.

رفض حسين العراك خوفًا على ابنه. فما من مركز شرطة للإبلاغ عن عملية الخطف، أو جيران، يستطيع محمد طلب مساعدتهم. هم في وسط الصحراء. حتى وصول قوات الدعم العشائري، إذا طُلبت، سيستغرق أيامًا. لا فائدة إذًا من العراك. هنا حسبها حسين جيدًا، وهو الخبير في شؤون المعارك، لعمله في فرقة عقيل.

على أيّ حال التسليم لا يعني الاستسلام. وهذه جولة من معارك كثيرة خاضها في حياته.

معترفًا بأنّ الأمر أُسقط في يده، وسيسلّم نفسه، ليكبّل البواردي يدي حسين، ويقتاده مخفورًا إلى الشريف شحّات.

ورحل حسين مبتعدًا من الخيمة، مع آخويا الشريف. ومحمد الطفل يراقب اختفاء أبيه في الأفق، رويدًا رويدًا. يراقب بحواسّه الخمس من دون حول ولا قوّة. يعلم أنه قد لا يرى أباه بعد اليوم. وكان معروفًا عن الشريف بطشه بمعارضيه. يغرق خدّه الزهري اللون في دمع لم يُذرف إلّا قليلًا.

حتى وصل حسين إلى الشريف شحّات، الذي قال:

«قلعت نبات الليمون سلم قيمتها، لحسين بن فارس»، بلهجة الآمر.

«كل الليمون مات في بلاده، وفي بلادي، ما أسلّم ولا قرش»، يجيب حسين متحديًا.

واحتدم الحوار بين الاثنين. يصعِّد شحّات في كلامه، ليقابله حسين بتصعيد في عناده ورفضه. استجواب وإرغام على البيع أشبه بعملية الكباش، كان

على آثرها أن حُجز على حسين في سجن شحّات الشهير. في السجن الذي رقد فيه مرارًا كبار أهل البلد.

ومن يومها والطفل محمد، اليتيم الأمّ، يجلس وعيناه يملأهما الأمل بألّا يفقد أباه أيضًا، مرابطًا أمام خيمته، مراقبًا الأفق، الذي ابتلع أباه إلى غياهب سجن شحّات. مترقّبًا وآملًا في الوقت نفسه، أنّ الفرج لا بد أن يأتي.

مرت الأيام ومعها الساعات بلياليها، ولم يصل خبر عن والده. ومع كل لحظة، يؤدّي فيها الطفل واجباته، من تجميع للحطب أو تسريح للغنم، أو غيرهما من المهمّات، يتبخّر الأمل حبةً حبة، مختلطًا بالرمل في الأرض. فقط الانتظار والدعاء هما كل ما يملك.

ثم في أحد الأيام لاح في الأفق شيء. شيء جعل كل حواسّ محمد في حالة تأهّب.

لا إراديًا أرخى محمد عن كتفيه شماغه المغبرّ بينما عيناه تلاحقان ما يلوح في البعيد. شيء من خلف الأفق يعدو ويكبر مع كل دقة قلب. يكبر ويكبر معه الأمل. فارس من العرب على خيل كميت (بدون سرج). ضفائره تلحق عدوّه. وملامحه يكسوها الغضب الساطع، شرر يتطاير من عينيه، وما بعدَ بعد عينيه. ليصبح أمامه. أكبر من الشمس في الأفق.

وقف محمد متجمّدًا بالرغم من حرارة الرمضاء.

«وين أبوك يا محمد؟»، سأله الفارس بتجهّم فاقع.

«أخذه الشريف وحبسه» أجاب.

«أنا ولد صلف»، قالها الفارس وهو يفرك لحيته بسبّابته وإبهامه ثم انطلق. انطلق مقلعًا كالصاروخ، وحصانه يحاول اللحاق به.

هو بذاته استدرك محمد. هذا غلّاب بن صلف بن ناحل، شيخ النواحل الأحامدة من بني سالم، من حرب نجد. لهم خفارة حجيج العراق وإيران، ليتركهم عند أبناء عمومته، أهل الفقرة، عند أميرها ابن جزي. يجتمع الحجّاج على حدود جزيرة العرب، من الشمال، وغالبًا في النجف، ويمرّون على قبائل نجد كلّها بأمن وأمان تحت حماية ابن ناحل. امتياز توارثه صلف وأخوه خلف ابن ناحل، من السلطان العثماني. قوة السلطان التي صدّت أي قبيلة في نجد،

من كان من يام أو مضر، أو من كان من ربيعة الفرس، لا يعترض على الحجاج أحد، ولا يدفعون مقرّرًا. هم في معيّة ابن ناحل.

ولطالما سمع محمد من والده عن نبل صديقه الفارس الأصيل.

وهكذا امتطى ولد صلف حصانه.

وما هي إلّا ساعات قليلة حتى ظهر في الأفق ما كان ينتظره الطفل أيامًا.

أبوه حرّ طليق، لا تنقصه أرض ولا كرامة، أو حتى مروءة. أطلقه الفارس ابن ناحل مهدِّدًا الشريف قائلًا له: «حنّا اللي جلينا الأتراك بسيوفنا، واللّه لا شبها عليك، احبس الذين قتلوكم في العوالي».

خرج حسين بقوة الظهر، لا قوة العدل.

والفارس يقصد كيف صدّ جيش الدولة العثمانية حين اندلعت الثورة العربية الكبرى عام 1334هـ/1916م. فلقد أذنت طلقة الشريف حسين بن علي من منزله في مكّة، ببدء الثورة العربية الكبرى. يومذاك كان شعار الشريف «استقلال العرب من الحكم العثماني»، ولكنّ حسابات بعض الزعماء جاءت على العرب أنفسهم. حيث قدم بعض الزعماء مصالحهم على حساب الاستقلال. هذا ما كان يقصده ابن ناحل.

مسرح القصة

كان العالم العربي كله في حالة غليان. تضاف إليها حالة الفوران عند القوى الدولية المتصارعة. هي لحظة مخاض للمنطقة والعالم. للمنطقة هي لحظة انتقال من العصر العثماني، بكل ما حملته، إلى عصر ما بعد الحرب العالمية الأولى. ولادة دول، ونعي إمبراطورية.

أما للعالم، فهي ولادة نظام دولي جديد، ومعها دول عظمى.

يومئذٍ دق القيصر الروسي نيكولاي الأول أول مسمار في نعش الدولة العثمانية، حين وصفها برجل أوروبا المريض عام 1269هـ/ 1853م. حينذاك دعا القيصر ملك إنكلترا إلى المشاركة في تقاسم ممتلكات الدولة. وذلك بعد الهزائم التي تكبّدها الأتراك على يد الدول الأوروبية، التي أفقدتهم الكثير من أراضيهم. الحصار الاقتصادي، وإثارة مسألة الأقليات، سلاحان، وجّههما نحو صدر الدولة العثمانية، أعداؤها المتربّصون بها في أوروبا. وحتى الدستور العثماني العامّ الجديد، التقدميّ وقتئذ، الذي صدر في العام 1396هـ/1876م، لم يُنهِ محاولات حصار نفوذ الباب العالي.

لم يعد الباب العالي لبعض العرب كبيرًا. لا في الحكم ولا في النفوذ. ومنذ الانقلاب الدستوري في اسطنبول، وعلى يد جمعية الاتحاد والترقّي في العام 1326هـ/ 1908م، برز وجه العسكر أكثر فأكثر. حقبة مليئة بالصخب السياسي والتحوّلات الاجتماعية.

أفكار وتيارات تتطاحن في ما بينها، وبالدم على مسرح الصراع الدولي. المسرح هو كل أراضي رجل أوروبا المريض: السلطنة العثمانية. نحن في مطلع القرن العشرين، حيث تعرضت المنطقة العربية لحروب متعدّدة. مفرزة خطوط تماسّ لم تكن مألوفة لسكانها. الشام ومصر والعراق والحجاز تتصدّع جميعها بين فريقين سياسيّين. فريق أراد للخلافة الاستمرار، وفريق يريد الاستقلال عنها.

انطلق رجال يرسمون حدودًا بألوان عرقية ودينية، وبفرشاة المصالح على أرض العرب، ليسجّلوا أسماءهم في صفحات التاريخ. منهم لورانس ومكماهون، ووايزمان، وبلفور، وسايكس وبيكو. ولكي لا ننسى الليدي غيرترود بيل، ليزيح المشروع الستار عن صراع سياسي يؤدَّى على مسرح أوروبا. إنها إرهاصات الحرب الكونية الأولى.

ثمّ في العام ألف وتسعمئة وثمانية ميلادية قامت ثورة تركية طورانية لتجبر السلطان على التنحي. هي ثورة حزب الاتحاد والترقّي. وكانت تحت شعار ما تلقفّوه من الثورة الفرنسية (حرية، عدالة، مساواة، أُخوّة)، أو كما يقول محمد حسين زيدان «إن الشعار لم يكن إلا عن عنعنات، وسبيلًا إلى السلطة فقط، فلا حرية في البلقان، ولا عدالة للأرمن، ولا مساواة مع العرب، ولا أُخوّة مع مصر بصورة خاصة».

على الأثر أعلن الاتحاديون التعاون مع ألمانيا بصورة أكبر حين ابتعثوا ضبّاطهم للتعلّم في بلاد الرايخ. وأطل رؤساء الحكومة الاتحادية بحلّتهم الجديدة. خلعوا حلّة الخلافة الإسلامية ولبسوا حلّة أناضولية تركية. على رأس الحكومة كان طلعت باشا. ومعه أنور باشا، وعمّه خليل باشا، وجاويد وجمال باشا والي دمشق، وفخري باشا والي المدينة المنوّرة.

أبرزوا كلّهم الوجه الطورانيّ بشراسة. وجه يمارس السلطة بقواعد القرون الوسطى الأوروبية من ظلم وضلال. مما بلغ أثره أقصى الدرجات في العالم العربي من تتريك وترحيل واعتقال وقتل. كأنه زلزال شق الأرض والأنفس والأمل.

انتفض العرب وتحرّكوا. ثورة في النيل لتلحقها ثورة الحجاز يقودها شريف مكة. وعاصفة في صحراء الجزيرة العربية إمامها ابن سعود. وبطريرك الموارنة في جبال الأرز يتفاوض مع الفرنجة على استقلال لبنان الكبير. كلّ يدفع باتجاه. ومشروع الاستقلال المزعوم يدفعهم في التوجه نفسه. إسقاط الدولة العثمانية.

كل ذلك والسباق لنيل الحكم الذاتي انتهى مبكّرًا للكرد، ليغدوا قومية تعيش الشتات على أرضها، حتّى اليوم. والأرمن خرجوا من المنافسة بمجزرة كانت كافية لإقصائهم عن حلمهم القومي أجيالًا متعدّدة. هي لعبة الأمم التي أرخت بظلالها من وسط آسيا في أفغانستان مرورًا بالشرق الأدنى وصولًا إلى البلقان.

عالم تغيّرت معه الخريطة السياسية والاجتماعية. حينذاك لم تعد هناك إمبراطورية عثمانية. والحجاز مع نجد وملحقاتها في عهد جديد قديم. ودخل برّ الشام مع جبل لبنان في فلك الأم الحنون فرنسا. أما مصر، فوجدت المساكنة بينها وبين المحتل الإنكليزيّ أفضل ترتيب. لتخرج فلسطين بعدئذ من تحت أقدام العرب كهدية ليهود أوروبا. هدية إفرنجية تعويضًا عن معاناة

قوم إفرنجي أشكنازي، وتعويضًا عن ظلم مزعوم لا علاقة للعرب والأتراك والشرق والجن كله به.

في تلك المرحلة رُبط مصير الحجاز بمسار الصراع على ورثة الدولة العثمانية. ولربما رُبط على نحو نهائي بموازين القوى العالمية. قبل إعلان الثورة العربية الكبرى في العام 1334هـ/ 1916م كان الربط يصل إلى الباب العالي فقط. يعيّن الخليفة شريفًا ويُسقط آخر. الأرزاق والناس من تابعي السلطنة، ومزاج من يمثّل السلطان. انتشر الظلم. الفوضى سيدة الموقف، والانفلات الأمني على «قفا من يشيل». على أثر ذلك نشطت الحركة العسكرية على طول خط سكة حديد الحجاز، وبدأ أهلها يبحثون في داخلهم عن خيار. وكذلك عن مكان لهم في المستقبل.

حينها ساد خطاب عامّ عنوانه كفى وصاية. فعلى مرّ الزمن توالت وصايات متعدّدة على أرض الحرمين الشريفين، علوية (نسبةً لوالي مصر محمد علي باشا)، وعثمانية ومملوكية وغيرها. شعار أراد أصحابه القول إنّ لهم حق تقرير المصير، كما كان متداوَلًا، ولكنّ مصالح القوى العظمى الجديدة (بريطانيا وفرنسا) كانت أكبر من التمنيات. كما هي دائمًا.

لم تكن منطقة «نجد» معزولة. انعكس عليها الفراغ المتنامي في القوة على أرض الأناضول. مخطّطات ومؤامرات تحاك على رمال بر الشام، لترسم ما بين مدينة الرياض وحائل سلسلة من المعارك، مُحدثةً ارتباكًا وشللًا في كل قراها، وداخل كل بيت فيها.

كان ابن سعود، الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن، في مدينة الكويت. وعمّه سعود بن تركي الفيصل آل سعود، في مدينة عدن، يحاول جمع أنصاره، وإقناع الإنكليز بمساعدته على استرجاع الحكم، إلا أن مدينة الكويت كانت أقرب إلى حكومة جلالة الملك البريطاني، من مدينة عدن، المدينة الواقعة تحت الانتداب البريطاني، في منطقة حضرموت، مُرسِيًا في قاعدتها المطلّة استراتيجيًا على مضيق باب المندب فخر الأسطول البحري الإنكليزي. لربما هذا كان أول درس في الجغرافيا السياسية، للشاب عبد العزيز بن سعود.

يومذاك دارت معارك بين القوة الصاعدة، يقودها الشاب عبد العزيز بن سعود (آخو نورة)، والقوة التي هي في حالة انحسار، بقيادة عبد العزيز الرشيد (الجنازة).

وسط كل هذا، وبينه، وُلِد محمد. وُلد في المدينة المنورة. كان ذلك في العام 1324هـ/ 1906م. عام انتصار جيش ابن سعود على غريمه ابن رشيد في معركة

روضة مهنا. وهو ما مثّل نقطة تحوّل في مصير آل سعود والحجاز ونجد، وملحقاتها... والمنطقة معها.

حوش خميس هو العالم

هناك في الشمال الغربي للمدينة، وعلى سفح جبل سلع في حوش خميس، وُلد محمد بن حسين بن زيدان بن عبد الحميد العقيصي المطيعي الهلالي.

كان الحوش امتدادًا لزُقاق جعفر، والبيوت حوله، عند طرف باب الحومة، ممتدًا خارج السور، الذي كان يفصل بين مجتمعين. يومئذٍ صُنّف المجتمع المدني بأهل السور، والمجاورون خارجه. طبقية تحاكي معظم المدن العثمانية. الأكيد أنّ أهل الداخل أعلى في السلّم الاجتماعي، فهم يعيشون مع ممثل الباب العالي، وبالتالي هم أقرب إلى الخليفة العثماني.

الحوش سكّانه عرب من قبائل شتّى، ابن مطلق وابن فضلون وابن جميعان وابن زيدان. تجاورهم أحواش أخرى متعدّدة. حوش الرشيدي، وقيل إنه ملك البرادعي الجهني، ثمّ حوش الصديقي، ومن أبرز سكانه محمد القين. ثم إلى الغرب منهم حوش السيد. حوش مستقل بذاته، سكانه ينسبون أنفسهم إلى قبيلة مزينة.

توفّيت والدته فاطمة الفضلون بالدفتيريا(1)، أو هكذا قيل له. لا يتذكّر من والدته إلّا لمحة أو خيالًا، يريد له أن يكون. ولم يذق طعم مناداة الأم. وحتى حليب أمّه لم يكن له حصرًا، بل تشارك فيه. يومذاك جلب جدّه لأمه رجاء بن فضلون، الطفل الرضيع عبد الله متعب العبد العزيز الرشيد، ليرضع مع محمد.

جاء به الجد خوفًا عليه من القتل، على يد أبناء عمومته، أبناء حمود العبيد الرشيد. فبعد هزيمة الجنازة عبد العزيز الرشيد في معركة روضة مهنا، أمام القوة الصاعدة ابن سعود، دبّ الصراع في بيت آل رشيد، وقتل متعب العبد العزيز الرشيد ومعه أخوه. ليسلم سعود العبد العزيز، وابن أخيه، الطفل عبد الله.

تكفّلت جدّته الكفيفة ميثاء الضويان بالرعاية، تُعاونها أربع نساء، كانت كل منها الأم. شمّاء ومنيرة أختا سيف العوجان أمير عقيل حينذاك. ووردة وموضي، زوجتا بادي بن جميعان العمري، من بني عمرو من مسروح من حروب شرق المدينة. أحسنَّ الرعاية كما يتذكّر، إلّا أنه ما من شيء يعوّض حنان الأم.

كانت الجدّة كبيرة القدر، في حوش خميس على الأقل. فهذا الحوش كان عالم الطفل اليتيم، يجتمع عندها كل ليلة كبار القوم. يجتمعون في مجلس

جدّه رجاء بن فضلون، وهو من فرسان العرب. قال له خاله محمد بن فضلون إنهم من عالية نجد، وإن جدّه الأكبر فضلون الظاهري السالمي الحربي كان يقول: «خيالها يوم الزنابير فضلون الي شرى عود القنا بالثنية». قال ذلك حين كُسرت قناته فاشترى قناة بثنية من الإبل.

والده كان مِزواجًا. هو يتذكّر إحدى عشرة امرأة تزوّجهنّ. لم ينجب إلّا من ثلاث. من زوجته الأولى، ومن أمّه، ومن الزوجة السادسة.

وكأنّ الجدّة استشعرت برادار الأمّ أنين الطفل، فتعالت على انعدام نظرها، لتصبح الحصن الحصين من زوجات الأب. أحاطته بكل ما تملك من عطف وحنان. سواء عطاء مشاعر، أو بنيان. وذات مرة خافت عليه من البرد، فبنت له حجرة من الطين داخل بيت الشعر، تسعهما هما الاثنين فقط. ولو وقف الطفل محمد للمس رأسه سقف الحجرة.

وفي أحد الأيام ظل محمد راقدًا داخل الخيمة لا يلعب ولا يتحرك. فنادت على ابنها «روح نادي حسين وقل له ابنك مريض، روح يا علمي بسرعة».

«هي بنت الكلب» يقول حسين، بعدما أبعد يده عن جبهة محمد، المستلقي على فراشه. لم يكن محمد قد بلغ العشر سنوات بعد. وقد خسر حسين أولادًا بسبب مرض الحمّى.

«يا وليدي، بسم الله عليك... حسين شوف جزا، خلي جزا يشوف محمد تقفى»، تصيح الجدّة غاصّة بدمعها، وهي الكفيفة.

ذهب حسين مسرعًا وأحضر مطبّب البادية الشهير جزا الظاهري. ووصل جزا لا يحمل معه حقيبة سوداء كأطباء اليوم، بل خيشة (كيسًا) فيها أدوات حديدية، وبعض المعطّرات والأعشاب.

دخل جزا الخيمة ليعاين محمدًا، المستلقي في حضن جدته. يركّز المطبّب نظره على الأرض ويسير بمحاذاة عمود الخيمة من الجهة المقابلة للجدة، احترامًا لها. وحالما اقترب أشار والد محمد إلى الجدة بأن المطبّب سيقترب، لتزيح الجدة نفسها، بهدوء، ويقترب جزا.

«ما يكوي النار إلا النار»، يربّت جزا كفيه بعدما رفعهما عن جبين محمد. وحسين يوافق المطبّب في وصفه العلة.

عندئذ يخرج حسين وجزا من بيت الشعر، ليهيّئا سيخًا من حديد يضعانه في النار، في الموقد، حتى أصبح برتقاليّ اللون، وشعاع الحرارة كان منبثًّا في كل اتجاه، فيشير حسين على الجدة بأن تخرج من الخيمة بسبب رائحة السيخ والحرارة، خوفًا عليها، هي التي تشكو من ضيق التنفّس. فتقابل الجدة الإشارة بالرفض القاطع، ولو كان لها خيار لوهبت حياتها للطفل محمد.

المهم، يدخل الثلاثة حسين وجزا والسيخ الحامي إلى الخيمة. والجدة تجلس متربّعة عند رأس محمد، تقرأ ما تحفظه من آيات قرآنية.

يقترب جزا والسيخ معًا من محمد. وحسين يستعدّ لتثبيت الطفل محمد، إذا صدرت منه أيّ حركة لا إرادية.

وحالما يلمس السيخ جبهة محمد، تصبح عيناه خارج مقلتيهما، ويداه ترتفعان لتجدا الوالد حسين ممسكًا ومثبّتًا لهما. لحظات ثم غاب محمد عن الوعي.

غاب ليوم كامل. ليُفيق وكله صحة وعافية. غاب ليفيق في حوش خميس، عالمه الذي يحبه ويعرفه. في أحضان سلع، حيث كان يصف نفسه «نشأت بدويًا أستوحش أبدًا، أستوحش من الناس، وأحظى بعطف الأناس، فإذا بي المؤنس والمؤانس، أعيش مع الناس بالناس، ولكل الناس».

الجدّة

«قم يا ولد... قم يا ولد، طلعت الشمس»، يصيح الرجال بعد صلاة الفجر، وعند الشروق. عند شروق شمس بادية المدينة. نورها يلسع ولا يُحرق.

يتّكئ محمد الطفل على ميزان خيمته، منتظرًا تعليمات جدّته قبل ذهابه مع خاله محمد إلى العمل. هو الآن قد بلغ الرابعة من العمر. يعرف الجدّة والخال والخيمة. وتعلّم الاشتياق إلى الأب.

«روح يا وليدي الله معاك»، تقول الجدّة بجهد فاضح. بدأت آثار العمر تأخذ مجراها. لا شيء تتمسّك به في الدنيا، لو لم يكن محمد يتيمًا.

يبدأ الرجال بإعداد أغراضهم. الجِمال ارتوت من مورد الماء، بجانب مخيمّهم. هم قرب الحناكية القرية، أو بوابة نجد الشرقية للمدينة، التي تربط القصيم وحائل ومنطقة المدينة المنورة. سُمّيت بهذا الاسم لبئر عليها تُسمى الحناكية.

اليوم سيلتقي محمد والده في الحناكية، بعد أشهر متعدّدة، لقد تشوّق إلى رؤيته، وتشوّق أكثر إلى الرجوع إلى المدينة، فهم سيأخذون بضاعتهم لبيعها داخل السور.

يدخل والد محمد المخيم. ويحيّيه صهره، أخو زوجته.

«بشر يا رجل، واضح أنك موفق»، يقول الخال محمد بن رجاء بعد السلام الحار.

«التوفيق من الله، لكن من بعد حكمة أخي سيف العوجان، هو له الفضل» يقول حسين.

«الله يطول بعمر العم سيف ويبقيك» موافقا يجيب الخال. ثم يسأل حسين وعينه تجول المخيم فاحصة وباحثة «وين ولدي محمد؟».

سمع محمد صوت أبيه فركض باتجاهه. وحالما أصبحت المسافة أقل من متر واحد، خفّف من سرعته، من ركض إلى مشي سريع. ثم وقف أمامه محتارًا كيف يتصرّف.

استرق محمد نظرة إلى الخال الواقف بينهما. عندئذٍ أشار الخال عليه بأن يقبّل يد أبيه.

«تعال قرّب يا ولد، آنا أبوك»، بلهجة المشتاق، يقول حسين.

عانق محمد أباه بكل قلبه. وذهب يأخذه إلى خيمة الجدّة، ليسلّم عليها.

اجتمع الابن والأب والخال حول الجدة. يتداولون ويتسامرون. ومحمد في سعادة لا يعرف وصفها، ولكن يعرف طعمها. فهذه عائلته، أو حياته، وقلّما يجتمعون.

عندئذٍ نظر حسين إلى ابنه، ساحبًا نظره إلى الجدة، يأخذ الإذن أكثر من مجرد تبليغ، قائلًا «بكرة بنمشي للرس، بس بعدها محمد بيجي معايا للمدينة، يساعدنا في البضاعة وبيعها».

«محمد ولدك والله الحامي»، تجيب الجدة، ومشاعرها مختلطة. بعدها تنحى الجميع الى العشاء. وجبة فاخرة من الأرز واللحم احتفالًا بلمة الأهل. وتسامر الأب والابن والجدة حوله مع الخال. في ليلة من العمر.

نام محمد تلك الليلة وهو يشعر بالأمان. القليل المستطاع منه لأن ما من شيء يستمر في تلك الأيام، حتى المشاعر.

لم يستغرق وصولهم إلى مدينة الرس وقتًا كثيرًا، مسافة يومين وأكثر قليلًا. والطريق إليها معبدًا بقصص وأحلام الطفل التي لطالما عاشها. وحالما يصل الركب تبدأ رئة الجدة بالتنفّس براحة. فالرس معروفة بطيب هوائها، وعذوبة مائها.

استقبلهم الأهل والأصدقاء. إنها ديرة الجدة.

ويحبّ محمد الرس. فيها مزارع فسيحة، ويمر منها وادي الرمة، ولكن يحبّها أكثر لأن في ديرة الجدة يبيت في منزل وليس بيت الشعر. ينام بجوار جدته كما تعود ولكن في بيت مدر حيث جدرانها الطينية تحجز الأصوات والضوء من الخارج. إضافة الى أن البيوت الطينية لها نظام تكييف طبيعي يحجز البرودة في النهار ويطلق بعضًا من الدفء من حرارة الشمس المجتمعة طوال النهار.

وميثاء الجدة، من أهل الرس، فيها وُلدت وكبرت. تبحث عن أقربائها لحظة الوصول. يدلّها محمد، ابن الأربع سنوات، ممسكًا بيدها. تمشي بين البيوت وكلها ثقة وسعادة. يطل البعض من مدخل المنزل مرحبًا ومعرفًا بنفسه لتبادره الجدة بالترحيب.

والبيوت كلها بالارتفاع نفسه. دور واحد لا أكثر. ولونها واحد أيضًا وكأن أهل الرس أنشؤوها في اللحظة نفسها. وفي المساء يتحوّل بيت الشعر، المحاذي للمنزل، إلى صالون لا يخلو من زائريه. يمتلئ المجلس بأختي سيف العوجان قائد عقيل، منيرة وشمّة، وبزوجتي بادي بن جميعان العمري، وردة وموضي. كلّهن من القصيم. مجلس يزوره الأعيان والشيوخ.

في إحدى الليالي، وبينما هو مستلقٍ من المرض يسترق السمع إلى حوار افتتحته الشيخ محمد بن مطر المزيني، يجلس بعيدًا يقرأ على بنات العمومة، فالجدّة، وإحدى عمّاته، أخذ يقرأ في كتاب طُبع في ذهن الطفل محمد «أنّ وفدًا من مزينة أتى إلى الرسول لتبشيره بالنصر، فأجابه النبي (كما نحيت بينكم)». يعني اسم واحد منهم، نحيت.

ما زال هذا الاسم باقيًا حتّى اليوم. فابن نحيت هو الشيخ في مزينة، وحامل الراية في قبيلة حرب كلها حين تجتمع، إذ لم يكن هناك أحد من ابن عسم. أو هكذا يقال.

لم يغب عنه حديث تلك الليلة. ليسأل في مرحلة لاحقة من حياته علّامة الحديث النبوي، صديقه أبا تراب الظاهري، عن صحّة ما سمعه.

يعيش محمد سعادة كبيرة في كنف جدته. وتبادله الجدة سعادة تبثها عليه بدون تكلف وبتلقائية أم. في علاقة بينهما طبعت في وجدان محمد.

أولاد حارتنا

بعد عدة أيام ومع انتهاء الزيارة حان موعد الرحيل. وانطلق الركب من مدينة الرس باتجاه المدينة المنورة. طريق نُقش في كفّ محمد قبل وعيه. فهو يسلك هذا الدرب منذ الولادة، ذهابًا وإيابًا. كل القرى وكل التضاريس مسجّلة. خريطة ذهنية تقود المسيرة.

يجلس محمد رديفًا للجدة على الناقة. هي تضع يدها على كتفه، للتأكد من أنه لا يزال موجودًا. والجماعة يسيرون في تناغم تامّ. كل شخص مسؤول عن مهمة. ومحمد ينتظر يوم يكون صاحب مهمّة.

طفلًا على ناقته يسمع قصص العرب وفرسانهم. وعن أوضاع البلاد والقبائل. ويسترق السمع من الجد عن آخر الاكتشافات والمغامرات في رحلات فرقة عقيل التجارية. غير أن في هذه الرحلة شيئًا جعله لا ينساه. حدثًا يشهده للمرة الأولى.

يتذكّر محمد هذه الرحلة تحديدًا. فحالما اقتربوا من أسوار المدينة، علا صوت الاحتفال. أصوات طبول (طاسة تدقّ) ومِزمار، يلحقها حصان مسرج مزركش، يمتطيه طفل لم يبلغ الحلم بعد. يُزفّ برجال من الأصدقاء يمشون وراء الحصان والطاسة والطفل. ويرشّ بالملح ومن حوله ينادون (عين الحسود فيها عود). حتى إذا وصل الطفل إلى البيت يرشّ بالحلاوة الحمصيّة، ويكون الغداء احتفالًا، الأرزّ بالحمص.

يراقب محمد الحدث ويلحقه حتى يصل إلى باب السلام. ثم يدخل من باب المصري، لا باب بصري، أو المجيدي، لأن الاحتفال لا يحلو إلا إذا مر من السوق العامر.

سأل محمد جدته عن هذه الأصوات.

«هذه يسمّونها السرارة (الصرورة)، الحج الأول في عمر الطفل» تجيب.

هي من التقاليد المدينية. يذهب الطفل إلى الحج من دون وجوبه.

يتابع محمد ملاحقًا مراسم الاحتفال بعينيه وخياله. كطفل يتخيّل نفسه راكبًا الحصان وأهله يزفّونه. يتخيل أباه وجدته ويحلم لو كان يستطيع تخيل أمه فهو لا يعرف شكلها، توفيت قبل أن تخترع الكاميرا.

تمشي ناقته عكس ركب الاحتفال، ومعها جسده، هو والناقة في مسار واحد. ورأسه يلتفت صوب الركب، الذي يختفي رويدًا رويدًا في السوق. حتى كاد أن يقع لولا قبضة الجدة. أحسّت هي بفقدان توازن محمد قبل أن يفقده. الحاسة الخاصة للأم.

اختار الوالد والخال المرور من داخل البلد. سابقًا كانوا يسلكون طريقًا أقصر إلى شمال غرب السور، حيث حوش خميس، لكنّ البضاعة التي في حملهم أجبرت الكل على إيداعها دكان حسين. هناك مكان مخصص لها للتخزين. تكون تحت رعاية حسين، وابن أخيه، وحمايتهما من السرقة أو التلف.

وما إن وصل الركب قرب الدكان حتى بدأ الرجال بالتهيؤ لإفراغ البضاعة.

«يا فاضل، يا فاضل وصلنا»، يصيح حسين مناديًا ابن أخيه. اسمه محمد بن حسن بن زيدان، ولكنه كان يلقّب بفاضل، لأنه الوحيد الذي بقي (فضل) من إخوته على قيد الحياة.

«جاي عمّي جاي»، ليخرج فاضل. يمشي كأنّ الأرض تمشي معه. ثقيل الخطوة، عريض الكتف، وطويل القامة يمشي بعنفوان. يقف أمام عمّه، والد محمد.

«السلام عليكم، حمدًا لله على السلامة عمّي»، ويهمّ فاضل بتفريغ البضاعة مساعدًا الرجال.

أراد محمد البقاء والمساعدة كما ظن، إلّا أنّ الجدة وباقي النساء أردنَ الذهاب إلى بيوتهن. يريد أن يسمع من فاضل آخر المغامرات، فلقد حكى فاضل له بعض القصص من مغامرات وأعياد واحتفالات. فأذنت الجدة له بالبقاء، شرط أن يرجع إلى الحوش مع أذان المغرب. انشرح صدر محمد فرحًا وركض يلحق بالرجال.

في داخل الدكان يتوزع الرجال مع توزع المهام. في المخازن وقف فاضل كالمارد أمام الطفل محمد. يحمل البضاعة وكأنها رياضة وتسلية. ومحمد يتحرك مناورًا بين فاضل والبضائع التي يحملها. يقترب منه ثم يبتعد خوفًا من وقوع شيء عليه مع تململ واضح من فاضل. وهو يريد كسب اهتمام ابن عمه.

«ها فاضل شفت الاحتفال اليوم؟» يقول محمد.

«آية! الصرورة... هذا حق الطفل، لا هذا عادي».

يستطرد فاضل في الكلام بينما أخذ يجلس محمد على أحد الصناديق الخشبية ورجلاه لا تلمسان الأرض وكلّ حواسّه آذان صاغية. ثم يتابع فاضل الحديث بعد أن حانت الفرصة لعرض مهاراته القصصية المبالغة فيها.

«دارت هوشة الأسبوع الماضي، بس آيش بشكتنا (جماعتنا) رجال يعجبونك، أولاد الحارة ما قصّروا، نزلوا الدم من عيال المناخة... والحق أولاد العنبرية كانوا قبضايات» وذهب يشرح فاضل ممثلا الهوشة. يرمي بقبضته اليمنى ثم اليسرى وبعدها الاثنتين معًا في الهواء. في مسرحية لا تخلو من المؤثرات الصوتية.

ومن العادات هي ليلة النصف من شعبان. يخرج أبناء الحارة شبابًا ورجالًا، يدورون على البيوت وهم يغنّون (سيدي يا شاربيت، خرقة مرقة يا أهل البيت... لولا خواجة ما جينا ولا انطاحت كوافينا، يحل الكيس ويعطينا... إما مشبك وإلا فشار وإلا عروسة من الروشان).

ومن النافذة، أو من وراء الباب، يُعطَون الفشار، وتمر الحلية وحيّ المشبك. وإذا لم يعطِهم أهل البيت يشتِمون (كبريتة يا كبريتة، ستّ البيت عفريتة). أما إذا أعطوهم فيقولون (ليمونة يا ليمونة، ست البيت مزيونة).

وخلالها يبدأ العراك. الهوشة. تسيل الدماء لأنّ أولاد كلّ حارة يعاركون أولاد الأخرى. حارة المناخة لا تدخل حارة العنبرية، وهكذا. دفاعًا عن أهلها في عرض ميليشاوي.

يصيح حسين من داخل الدكان، قاطعًا كلام فاضل، ولربما أنفاسه الحكواتية أيضًا «بسرعة يا ولد أسرع ما عندنا وقت».

يقفز فاضل منتفضًا من صوت العم حسين. ثم انطلق حاملًا صندوقين فوق بعضهما بعضًا. ويتوجّه نحو مدخل الدكّان. ومحمد على الصندوق يحسب نفسه على مدرج مسرح ورجليه تتأرجح.

يطل فاضل آتيًا باتجاه محمد بعد أن أخذ توجيهات من عمه حسين. ليقتنص الفرصة أمام محمد قائلًا «ذاك اليوم طلع أمامي واحد من زقاق الطيار، حاول يباغتني، بس ولد عمك قدها وقدود».

ومن حيث لا يعلم ظهر العم حسين من خلفه قائلًا «زقاق الطيار هاه... قم خلّص شغلك أول»، ويمصع حسين أذن فاضل، ليتلوّى وهو يحمل الصناديق.

«هذه الحركات ما تعمل رجال، علمك ودينك سامع يا محمد».

عادات وتقاليد

من التقاليد المدينية التي لم تعد تمارس «الرجبية». ففي يوم الـ 12 من رجب من كل عام، تمتلئ المدينة بالزائرين من القبائل، ومن مدن الحجاز. ومن الظواهر التي يتذكّرها محمد، وهو شاب، رجبية العام 1342هـ/1923م. يتذكّر كيف وصل إلى المدينة من أهل مكة بثلاثة عشر ركبًا. كلّ ركب يصعد إلى المصرع، حيث معركة أحد، حيث قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، رضي اللّه عنه. وتصبح الباحة من غرب الحرة إلى شرق المفتية، غاصّة بالناس.

يسهرون الليلة ويجتمعون في الساحة، في منظر أشبه بيوم وقفة عرفات في الحج. ومع وصول الكهرباء، أو الأتاريك، يرسَل نورها إلى كل ركب. يُنشد المنشِد في كل ركب قصائده، أشعارًا وأدعية وصوفيات وغيرها. في احتفال مهيب وعجيب، كله انتظام. لا تعديات أو تحرّش أو تطاول.

وقد عاصر محمد ركبين علقا في ذهنه. ركب حمزة لبان، وركب محمد سعيد حوالة. كان لكل منهما الفخامة والعدد. رجال وشبان. والدوابّ نوق وبغال وأحصنة وحمير. جمع كبير، يقف الجميع وهم راكبون أمام مسجد الغمامة. يتصدّرهم المنشد المعروف حسين بخاري، أو البناني. ينشدون نشيدًا حتى إذا اكتمل ساروا في طريقهم إلى مكة. فهم يعتزمون الحج باسم بريق حوالة، أو اللبان.

يسيرون إلى مكة متجنّبين الطريق الطويل. يأخذون طريق الجصة وحرشة والفاير. ولا يأخذون الطريق السلطاني، مع أنه أكثر راحة.

العين الزرقاء

فرح محمد كثيرًا برجوع أبيه إلى المدينة، وخاصة أنه بعد طول غياب. والأب حسين قرر قضاء وقت أكثر في دكانه في سوق الحبابة بين التجار أصدقائه للاطمئنان على محمد. وبحكم عمله مع جيش عقيل (العقيلات) كان كثير الانتقال، إضافةً إلى أنّ الطفل محمدًا، بدأ يخطو نحو عالم الصبا، يبحث عن آفاق جديدة للحياة. لذا بدت كل المهمّات التجارية ثانوية لحسين في مقابل ابنه.

استقر محمد مرة ثانية مع جدته في حوش خميس، بدلًا من أن ينضم إلى بيت والده المدر(2)، لكنّ الوالد أصر عليه لقضاء وقت أكثر في الدكان للتعلم. يريد لابنه الاحتكاك بعالم الحضر، عالم التجارة، وعالم التنوّع، الذي عُرفت به أزقة المدينة وشوارعها.

وكباقي أبناء جيله أُدخل محمد الكتّاب. كتّاب وقف السيد علوي السقّاف، الذي كان شيخ السادة يومها. وكان يقع أمام باب الكومة، الذي ينحدر الناس منه إذا ما جاؤوا من الحزم، الذي يمتد من ضرس سلع. شيخ الكتّاب هو الشيخ محمد الموشي، ويُنسب إلى موشي، وهي قرية في صعيد مصر. وما أسرع من انضم إليها من الطلبة والأساتذة.

وكان محمد يَضيق بالكتّاب. لا يُطيق التقيد، هو الذي يعيش في الصحراء. فالصحراء محيط لا نهاية له، ممتنع، ولكنه كل شيء. ولكن في غياب البديل يتألف البدوي ويصنع المستحيل، نفسيًا على الأقل.

وأُلحق في ينبع بالكتّاب، عند رحيل أهله إليها في زمن السفر برلك، وعاش قليلًا من المرح في ينبع مع بعض الأصدقاء والزملاء، منهم إبراهيم زارع، زكي عمر، وحمزة فرهود.

وعند العودة إلى المدينة من ينبع دخل كتّاب القشاشي، وكان الشيخ فيه السيد حسن صقر. ابن عم أستاذه لاحقًا محمد صقر، وأحمد صقر، من أشراف قِنا في الصعيد. ومنهم زعيمهم كلّهم السيد طه محمد حسين عثمان البطاطخي الجمازي الحسيني، والد صديق العمر لمحمد، السيد ياسين طه.

بعدها انفرجت أسارير الطفل محمد، حين دخل إلى المدرسة العبدلية، التي كان يديرها السيد أحمد صقر. وراح يتحضر مع كل شروق للشمس الذهاب للمدرسة متحمسًا. وليس مرغمًا. نقلة نوعية في نفسيته.

يستيقظ محمد داخل خيمته كل صباح بدون منبه أو ساعة حائط تدق بجرسها، وأول عمل يؤدّيه هو حَضن جدته، لا يعرف كيف. كيف تعرف الجدة لحظة استيقاظه من النوم. فمنذ صغره، إذا أفاق من النوم يجد الجدة يقظة، حتى إنه اعتقد أنّ الجدة لربما لا تنام. هكذا أسرّ إلى خاله.

يضحك الخال وهو الأكبر من محمد في السنّ، والأقرب إليه في الحياة.

«الجدة تشوف كل شيء، لا تصدّق أنها عمياء»، يقول الخال مفعمًا بالضحك.

«بس كيف تكون صاحية، ننام في الوقت نفسه»، يصرّ محمد على كشف اللغز.

«شوف محمد، أمي عندها قوة عجيبة، أبوية رجاء كان يقول إن جدّي فضلون كان يشوفها بخمسين رجلًا في الصبر»، هكذا يصف الخال الجدّة، ومحمد منبهر بما يسمع.

سمع محمد قصصًا كثيرة عن جده فضلون. الفارس العربي، صاحب المروءة والشهامة، الذي ذاع صيته ليصبح أميرًا في جيش عقيل. فزاد من فضوله عندما بدأ الخال بوصف الجد فضلون. حيث لا يمكن ذكر الجدة من دون المرور عن فارس العائلة.

«شوف يا محمد حنا من عالية نجد، ومن زمان وهذه أرضنا»، يمسك الخال بحماسة سيفه، محاولًا تمثيل وصفه في الجد فضلون. يرفع السيف إلى السماء، لترتفع عينا محمد معه. يميل رأس محمد إلى الخلف، وهو يتخيل هذا المارد الفارس والخيال، يستفيض في الوصف. كيف كان يركب حصانه. وكيف كان يحب عشيرته. وكيف يغزو على الأعداء. وكريمًا بدون حد وحليمًا من دون سبب. وغليظًا عند الغضب. ببساطة وكأنه فارس من أسبرطة من الملاحم الإغريقية.

وأثناء مسرحية الخال يمرّ يوسف الحيار الأحمدي الحربي، يقف متفرجًا على أداء ليس بكوميديّ، أو درامي. يحاول فهم التمثيلية، يتابع انبهار محمد وانفعال الخال. ليقطع المسرحية مع الاستياء الفاضح في الجمهور. لم يكن بوسع محمد التذمر على قطع المسرحية، فيوسف الحيار من أكابر أهل الحوش.

«آيش الكلام الفاضي هذا. أنت ما تعرف جدك فضلون، أنا أعرّفكم فيه. كان فضلون، رحمة الله عليه، من فرسان العرب صحيح. له سجلّ كبير في تاريخ

الكرم والشجاعة. كل البدو يسمعون عنه. في المعركة شديد، تقول جيش بحاله. وفي السلم حكيم، الكل يستشيرونه. هو كان يقول (خيالها يوم الزنابير فضلون إلى شرى عود القنا بالثنية)».

تسمّر محمد والخال منبهرَين. ثم أكمل يوسف «هذه قالها يوم انكسرت قناته، فراح، واشترى قناة جديدة بثنية من إبله، اللّه يرحمك يا أبا محمد، رجل وفارس وشيخ، بلا كلامكم الفاضي اسمعوا الصح».

أغلق محمد والخال فمَيهما مُرخيَين رأسيهما ومترحّمين على فضلون، الذي ترك لهما هذا الأثر، لم تتغير القصة ولكن سماعها من كبير في السن والمقام تضفي وقارًا واحترامًا أكثر.

عدّل محمد من وقفته وذهب يمشي حاملًا ثيابه الوسخة ليغسلها والأثر الرمزي الذي ما إن يتعدى حوش خميس يكاد أن يتلاشى مع الريح. ذلك أن سور المدينة كان فاصلًا طبقيًا وتراثيًا لحد بعيد.

ذهب يمشي إلى العين الزرقاء متأملًا ومتفكرًا بعقله ذوي السنوات القليلة.

والعين الزرقاء بئر قديمة. ماؤها للشرب، وأحيانًا للغسيل. فمرّات تكون العين فيها ملوحة يستعصي على مائها الصابون، وماء العين الزرقاء تنساب من بئر أريس (بئر الخاتم)، خاتم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم، سقط من يد الخليفة عثمان رضي اللّه عنه، فابتلعته البئر. وكان رسول اللّه يحب الجلوس إلى أريس، إذا وصل قباء.

العين الزرقاء تمثّل غوثًا للمدينة بالماء العذب. لم يبقَ ماؤها في بئر أريس، كما بقي في بئر روما، أصلًا كل بيت في المدينة فيه بئر. للسُّقيا والغسيل والشرب.

هناك الآبار القديمة يعرفها محمد، وكل مديني، جيدًا. منها البعة وغرس وسوالة وبيرحاء وبضاعه وروما وأريس وعروة.

ثم حفر أهل البلد آبارًا في العوالي وقربان والصدقة والعقيق. أما شمال المدينة، تهامتها، فالعيون كعين باني والغرابية والمدافعية وأم البيض والشنيبلية والزهرة والمفتية، كلها تقع في سفح أُحد، على حافة وادي قناة، شرق العقيق تروى من شرق المدينة. أما التي في الغرب من العقيق، فمنابعها من مجمع الأسيال.

تحرّك محمد بعد المسرحية والخاتمة الباذخة من رجل كبير في عالم حوش خميس، إلى العين، عين الرجال ليغسل ثيابه.

«يتيم الأم هكذا يصنع»، يقول لنفسه. هو يعرف من أين يسقى أبناء الأكابر.

على حافة بقيع النخيل، على الأواني من حزم الصمد، نقا العنبرية عين للرجال، وبجانبها عين للنساء. الرجال يستخدمون القِرَب، والنساء الصفائح. وهناك سقاة لكل منهما. من الرجال أكثرهم موالٍ. والنساء كلهن تكارنة. لكنْ كلهم يد واحدة، بعضهم مع بعض، كأنهم نقابة تعاونية، أو جمعية. فإذا مرض سقّاء تولّى زميلُه سِقاية البيوت، التي كان زميله يسقيها. والحمّال كذلك، إذا مرض تكفّل به زميله بكل شيء.

اقترب محمد من العين ليزيح ثيابه عن كتفيه استعدادًا لبدء الغسيل. يبحث عن طاسة أو طشت يضع فيه الثياب. وعلى غير عادة، يجد الكثير منها فارغًا. أصلًا كانت عين الآغوات هادئة، فإذا بصوت عالٍ جهوَري ينادي.

«يا جماءة يا جماءة (جماعة) التأم الحضور»، يقول شيخ السقاة في الصدر، ويجلس في دكّة على درجة العين. عرفه محمد.

جلس الشيخ والسقاة النقباء على شكل دائرة. في منتصفها جلس مولى من موالي القرارة، من موالي بيت البتاوي، البيت الكبير في مكة. إنها جلسة محاكمة.

يحاكم سعيد أبو عشرين، وهو من عبيد الآغوات ومن المطاليق. هو، أي سعيد، كان يُحسب له ألف حساب في العراك. رآه محمد في عدة صراعات. كان سعيد نحيل الجسم، إلا أن طوله الفارع عوّض عن غياب العضلات. عظام الترقوة تبرز بوضوح كأنها أسلحة إضافية عند الحاجة. حليق الرأس واسع العينين. ويحمل في يديه كفّين بحجم سرّة برتقال كبيرة. هذا هو سعيد أبو عشرين.

ولكنه جلس مطيعًا بين شيخ السقاة وأعوانه. جلس مطيعًا قانون السقاة، وسط هيئة المحاكمة. ومحمد يتابع ما يرى.

«يا سيد، كتر الشد يقطّئ الهبال، كتر الغربلة يقطّئ المناخل، يا جماءة، أحكم عليه بأشر عصي» يقول شيخ السقاة.

عندها وقف المحكوم عليه سعيد أبو عشرين وانبطح على الأرض بطوله تختفي جزء كبير من بلاط الأرض. وجاء الجلّاد يضربه. وأبو عشرين ثابت جامد في مكانه. لا يهزه ريح. وهيئة المحكمة أو المحلفين يتابعون ما يجري باستياء وكأنهم يريدون انتهاء العقاب للاهتمام بأمورهم. أحدهم يمسح العرق في جبينه والآخر يتثاوب بينما سبابته تزيل بعضًا من الغمس في مقلته.

ثم تأهب الجميع بإشارة. إشارة شيخ السقاة. ومعها يبدأ الجلاد بتنفيذ العقوبة المقررة. وترتفع عصا الجلاد عاليًا في السماء. وأبو عشرين الوحش على الأرض لا يخاف ولا يتحرك.

يحمل الجلّاد عصا ويطرق سعيد طرقًا خفيفًا على عجيزته. ثم يقفز إلى الجانب الثاني ليضربه كذلك. كل هذا والوحش سعيد أبو عشرين لا يتمرد، لا يصارع ولا يعارض. محمد مذهول ممّا يرى. عند الآغوات القانون قانون.

ثم في خضمّ كلّ ذلك، فإذا بأحد المشاهدين يرمي حزمة برسيم. لينتهي الجلد. توقف تنفيذ الحكم فجأة. فحزمة البرسيم شافعة.

بعدئذ بدأ سعيد يضحك وقام من أرضه متكئًا على ساعديه الطوال. واستمر في الضحك ومعه الجلاد. تعجب محمد والذهول سيطر على محياه ليقول في نفسه»القانون القانون عندهم».

الثغر والآبار والماء في المدينة

الأمير في المدينة. والأمير في القرية. والأمير في القبيلة، لكنّ أمير الأمراء في الصحراء هو الماء. فليس هناك من سقيا للناس ومادة للحياة، ورغد العيش كالسائل الذي يروي العطش، ويُنبت الزرع، ويجعل من كل شيء حيًّا. أصلًا حياة البادية، ومنذ أن تتفتّح أعين الطفل، فالماء هو العنصر الأساس في كيمياء الطبيعة. لا يعرف البدوي جدول العناصر الكيميائية، ولا يعرف الموادّ الأوّلية، لكنّ تغير الطقس، وتلبّد الغيوم، وخبرة سنين طويلة موروثة من الأجداد، أصدق إنباءً من كتب العلم.

في المدينة المنوّرة، ومكّة المكرّمة، يقول الزيدان «فيهما آبار يشرب منها الناس، في عرفات يحمل الناس الماء في قِرَب، لأنه لم تكن هناك عين، أما المدينة، فبقيت السقيا منها حتّى عهد بني أميّة».

«يقال إن مروان بن الحكم أوصل الماء بالعين. ويمتد ماؤها من بئر أريس في قباء، بئر الخاتم. ويقال أيضًا إن مروان أخذ يحفر، ويستنبط عينًا في وادي قناة، من حرة قريظة حتّى مجمّع الأسيال بروما. حتى إن الحفّار نبش قبر حمزة بن عبد المطلب، وعبد اللّٰه بن حرام، حيث دُفنا في مصرعهما. فنُقل جسد كلّ منهما، ولم تأكله الأرض إلى الحزم».

من يعرف الزيدان، فإنه يستطيع تخيّل كيف كان يسرد الحديث، والقصص من التاريخ، كما سبق. وحالما سمعت التفاصيل عن الآبار والعيون في المدينة لفتتني كلمة روما، والعين الزرقاء، وغيرهما ممّا سقى أهل طيبة. يحكى عن كل بئر وعين بموقعهما وتاريخهما وملّاكهما. خارطة ذهنية تفيض كما تفيض العيون التي يتكلم عنها.

فمثلًا العين الزرقاء، كما ورثها الأجداد، سُميت زرقاء نسبة إلى لون عيني مروان بن الحكم. أمّا الآبار، فتلك قصة أخرى.

بئر حاء مالكها الصحابي أبو طلحة الأنصاري. وتقع في باب المجيدي، كما بعدها، وعلى الوادي (مشعط) نفسه، قريبًا من بياضة وصيادة. والعوالي البصة وغرس والفقير، فيها الحائط الذي زرع الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم، والصحابة، صنوان النخل وفاءً لما كتبه سلمان الفارسي، ليعتَق من الرق، فيصبح سلمان منا نحن آل البيت.

وسوالة كانت ملكًا لعبد الرحمن بن عوف، لتصبح في حياة الزيدان ملكًا للشريف علي، والد الشريف شحّات.

وفي الشمال، وفي مجمع الأسيال، كانت بئر روما ملكًا ليهوديّ. ماؤها عذب، ويشرب الناس منها بمبلغ حدّده صاحبها، فاشترى عثمان بن عفان نصف البئر. لا تُقسَم البئر، ولكنّ القسمة تقضي بيوم لليهودي يشرب فيه الناس، في مقابل يوم لعثمان، يشرب الناس فيه من دون أي مقابل. اشتراها عثمان، فسبلها. وحين ضاق اليهودي ذرعًا، بعدما لم يأتِ إليه شارب ماء باع حصته لعثمان. وعين الزهرة. رجال مدّوا المدينة بالماء بحفر آبارها. محمد محروس حفر منابعها، وسيّر مجراها. وكانت المسافة لا تقل عن عشرين كيلومترًا من الأعياص (سلطانة) إلى الزهرة امتدت العين.

وكذلك العيون الأخرى لم يصنعها حاكم، بل صنعتها عزائم الرجال. باستثناء الملك عبد العزيز، الذي جعل الماء وحفر الآبار من أهم مشاريعه. وكما قال الزيدان «السلاطين والحكام والأمراء استأخروا ليتقدم عبد العزيز وبنوه، لا أكتب وأقول هذا استجداءً ولا نفاقًا ولا تملّقًا، وإنما هذه هي الحقيقة». مدّ عبد العزيز الماء، وما كان المال كثيرًا، وإنما العزم كان كبيرًا، والنية الصالحة أكبر. وصل ماء العين من وادي فاطمة إلى جدة. وغيرها كثير.

باب عرب

من إمارة الماء والى إمارة النفوذ والسلطة. يتذكر محمد بابًا من أبواب السلطة كان لها كل السلطة والنفوذ مع الماء. باب عرب الشهير بأميره الشريف ذياب ناصر.

تتسلّل أضواء متصلة كخيوط عند الشروق إلى داخل الخيمة. ما من ساعة أو منبّه، فقط نور الشمس وحرارتها. يستيقظ محمد بكل نشاط. اليوم سيرافقه جده إلى باب عرب.

«شوي شوي يا وليدي، الرجال لن يرحلوا بدونك»، تقول الجدة.

«يا جدّة، يا جدّة، اليوم جدّي رجاء سيأخذني إلى باب عرب، مجلس الرجال والكبار، مجلس الشريف ذياب»، مجاوبًا محمد جدته، وهو يهمّ بلبس ثوبه.

«أهم شي اسمع كلام جدك، لا تروح بعيد، فاهم، اللّٰه يحميك يا وليدي»، بعدئذ تبدأ الجدّة بقراءة أدعية تحصين الطفل.

نظر الطفل محمد إلى جدّته وكان ممسكًا ببطنه، بعدما لبس ثوبه، وحزام رصاص من دون رصاص، أخذه من خاله ليشتكي ألمًا، «عندي مغص، بطني يعورني».

دبّت فيه الحماسة الطفولية المفرطة التي ما لبثت أن تنغص عليه معدته ومشواره. هو الحماس عرفت الجدة بذلك، لا بل أحست به. وبدأت الجدة الكفيفة وبحاسة الأمومة تفرك بطنه «يا وليدي شوي شوي، بيجي يوم تكون فيه بين الرجال».

«بس ابغى أبويا يعرف أنني ذهبت إلى باب عرب»، يقول محمد، مجبرًا نفسه على الذهاب.

لم يكن محمد قد بلغ التاسعة من عمره. وبالرغم من مجلس جدّه العامر بزوّار من البادية، كانت لباب عرب رمزية خاصة بين أهل خارج السور.

أخو جوزة، أو أمير شؤون البادية، الشريف ذياب بن أبي بكر الناصر الحسيني، المنصب ابتدعه الباب العالي، ويكون مسؤولًا عن حل النزاعات القبلية، وتأمين قوافل الحجاج، والمحمل المصري. منصب باب عرب.

بيته كان في حارة المناخة، الذي دُمّر لاحقًا، يوم حريق القلعة. ومجلسه يضم كبار أهل المدينة وحائل والقصيم. ورث الشريف ذياب عن أبيه باب عرب، ليرث معها علاقاتها المتشابكة.

تجتمع عنده في مجلسه العامر قبائل العقايل. ويسمع محمد عن هذا المقعد من أبيه وجدّه. لهما مكانة خاصة عند الشريف ذياب، تحديدًا جدّه رجاء بن فضلون. وطبعًا رجال كبار كسيف العوجان وعبد اللّه بن دخيل وعساف الحسين، كلهم أمراء في جيش عقيل.

خرج محمد من الخيمة، يحمل حماسه الموجع ومعها كل عزيمة وإصرار لطفل يريد إثبات نفسه.

أمامه وقف جدّه، وخاله محمد بن رجاء بن فضلون. كلاهما يحمل سيفًا وبندقية. في تلك الفترة انعدم الأمن في المدينة، وكثرت السرقات وحوادث القتل، حتى التجارة بين المدينة وباقي المدن انقطعت، ودبّت المشاكل بين الناس. كل قبيلة وكل عائلة تأثرت، ازدادت عندئذ القضايا في باب عرب.

وحالما اقتربوا من مقعد الشريف ذياب غصّ المكان بالناس. كلّ يحمل همّه. وأياديهم تتحرك في السماء معبرة عن وتيرة الغضب التي غمرت باب عرب. بعضهم ذهب يناقش همّه مع مرافقيه وبغضب، لتعلو وتيرة الغضب أكثر عند حضور الخصم. صراخ وصراخ متبادل بين الجميع. ومحمد يقف مراقبًا ومتأملًا. متأملًا رجلًا أمامه يصيح بانفعال.

«هذه البضاعة ناقصة، وأنت تصرفت بملكي من دون أخذ رأيي، وعليها رجّع حصتي».

«ما نفعنا شي من محاربة الأتراك، بس فوضى وسرقة» يجاوبه آخر بدرجة الانفعال والغضب نفسها.

يخترق محمد الحضور، ممسكًا بيد خاله الذي يدير الطريق خوفًا عليه وعلى الجد حيث يمشي الجدّ على مهل خلفهما. وأعين محمد مرة ثانية تسبح بين الجمهور وانفعالاتهم. يتفرج ويسجل.

ثم أشار محمد على خاله بأن يقف ساحبًا يديه منه. انفعل الخال ليلتفت خلفه فرأى الجدّ واقفًا ومسلّمًا بحرارة على صديق. محمد بينهم في منتصف المسافة.

«محمد تعال قرّب سلّم على عمّك سيف»، يقول الجد.

يلتفت محمد نحو جدّه ويقترب للسلام. وبينما محمد يخطو خطوته، يخترق رجل من الحضور ركضًا ومتوجّهًا نحو الجدّ وصديقه. يمسك الخال محمد من كتفيه بيد، ويضع يده الأخرى على سيفه، متأهّبًا للدفاع عن أبيه وابن اخته.

يلهث الرجل واقفًا أمام الجدّ وصديقه ويقول: «يا أمير، يا أمير، الحقني ما سلمت. واحد يطلبني حلاله، وأنا الحلال انسرق. سرقوني جماعة جربوع في العوالي».

«هذا الملعون ما يخاف. أنا سأربّيه»، يجيب سيف العوجان بغضب مستتر بين لحيته. وهو أمير عقيل له هيبة السلطة وسلطة الهيبة معًا. يعرف متى وكيف يستخدمهما.

«اِهدأ اِهدأ، تعال امشِ بس ندخل عند ذياب ونلاقي حل لهذا الرجل»، ممسكًا بيده سيفه يقول الجد مهدئًا. يتوجّه بعدها الجد ومحمد والخال وسيف العوجان إلى داخل باب عرب.

يدخل الجميع إلى المجلس. حرّاس باب عرب ينتشرون عند المدخل وبين الناس، بلباسهم المعروف، ثياب بيض اللون من دون أكمام، وأحزمة رصاص تتقاطع عند البطن، إلى جانب جراب سيف. والبندقية تتمايل معلّقة على الكتف. الرأس يلبسه شماغ (كوفية) أسودَ اللون ليعقله بعقال صوف أسود سميك. يميزهم لباسهم عن عسكر الجندرمة. أو العسكر العثماني.

جلس الجدّ بجانب الشريف. وأخذ الخال محمدًا ليجلِسا بمحاذاة الجدّ، ولكنّ بمسافة، بينهم تسمح لرجال آخرين أكبر عمرًا ومقامًا بالجلوس. هو كود الاحترام. لا يتعلمه الطفل في المدرسة بل في المجالس.

«يا شريف، جربوع متسلّط على الناس، ولا في أحد يردعه، لازم يتوقف عند حده»، يقول سيف العوجان، ثم يكمل «اسأل ابن فضلون، عند مدخل مجلسكم العامر تخانقوا اثنان على حلالهما المنهوب».

«نعم أنا أشهد، وهذا الموضوع إذا ما انحل، فستنفلت الأمور أكثر والناس بتهوج. شوف كلّم أخا حسنة محسن الفرم هو يمون»، يوجّه الجدّ حديثه إلى محسن الفرم، وهو من شيوخ بني علي، من حرب نجد. وقد كان يجلس إلى جانب الشريف.

في تلك الفترة نُهبت أسواق المدينة غير مرّة. حتى أن محمدًا كان يسمع قصصًا عن حوادث سرقة للحجرة النبوية. كل ذلك كان يفعله أهل البلد. فالهاتك لحرمتها، وصانع الفتنة فيها، وعليها، من بنيها. لم يصلها برتغاليّ، ولا صليبيّ ولا تتريّ أو حتّى استعماريّ. والسرقة في أغلبها كانت لضياع السلطة، وغياب الحزم في العقوبات. وأيضًا كثرة الحروب وقلة التجارة.

يعلَم الشريف ناسه. ويعرف أكثر أصحاب السوابق. ليعدل من جلسته مخاطبًا المجلس بأكمله المليء بالجواسيس. فقد درج الوالي على دس رجاله في باب عرب.

«شوفوا يا رجال»، يبدأ الشريف حديثه متأهّبًا «تعرفون أنّ السلطان ضد أعمال النهب، وتعرفون أيضًا أنّ القبائل غرب المدينة قلّ أن تفعل ذلك، وشمالها فعل بعضًا من ذلك، أمّا شرقها، فقد فعل كل ذلك وأكثر»، غامزًا بكلامه أخا حسنة.

يفهم الفرم الإيحاءة، ويقابلها بكلام صريح وقاطع، كسيفه الذي يتأبطه: «جربوع حسابه عندي، ولكم عهد أنّ الموضوع من بعد هذا اليوم منتهٍ».

يجول محمد بنظره على الحضور فاحصًا. يحفظ الكنية والدور والمقام.

ليستطرد بعدها الشريف: «يا جماعة في المدينة داخل السور أربعة وجاقات يجب التعاون معها، هي حافظة لأمننا وأهلنا حضرًا وبدوًا، هذا نظام قديم».

همس محمد إلى خاله مستفسرًا عن معنى كلمة وجاق. ويريد معرفة الأربعة. ليأتيه الجواب همسًا أيضًا.

«بعدين بعدين، بس نخرج من هنا»، يُسكته الخال.

الوجاق هو موقد النار. وفي نجد يسمّون هذا الموقد الصلل. فقد كان حسين يقول لابنه محمد: «شبّ النار في الصلل».

والوجاقات الأربعة في المدينة من تركة والي مصر محمد علي باشا. فقد أسّس حينها أربعة مراكز لمن لهم حكم الزعماء. الأول السباهية، وتعني الخيّالة. كانت لحمزة ظاهر أولًا، ثم انتقلت إلى سعود دشيشة، وانضمت إليه بيوت أُخرى من المدينة كظافر دشيشة. والثاني القلعجية، حماة القلعة. انتهت كما يذكر محمد إلى عباس قمقمجي. والثالث النوباتشية، حماة الأبواب، وانتهت إلى عباس برادة. وأخيرًا البيرقدارية، أصحاب البيرق (العلم

أو البنديرة أو الراية)، كانت لمحمد سعيد حوالة. وبيوت أخرى تقادمت في المدينة، فكانت لها هذه الوظائف أيضًا. كبيت البري والكردي الكوراني، وبيت عباس والنحاس.

«أنا ماشي تأمروا بشي؟»، يسأل الفرم.

«بالسلامة، الحج قرّب والناس يخافون يتركون بيوتهم. ترى السلطان يعتمد على اللّه ثم عليك»، يجاوبه الشريف.

«من عندي، أنا على العهد، وسلامتكم» يجيب الفرم.

يمر أخو حسنة محسن الفرم من أمام محمد، ليجد محمد نفسه واقفًا ومصافحًا إيّاه قائلًا: «أنا محمد ولد حسين بن زيدان».

يقابل المصافحة الفرم ثم ينظر إلى الجدّ قائلًا: «هذا ولدك»؟

يومئ الجدّ برأسه من بعيد.

«والنعم به وبصلبه، فخر الرجال» يقول الفرم.

طار محمد من الفرح بعدئذ. لم يحضر مجلس الرجال فقط، بل حظي بتكريم الرجال أيضًا. كلمة اعتزّ بها طفلٌ بين أقرانه، متمنّيًا لو كان أبوه معه.

لكن محمدًا سيكون على موعد آخر في محافل الرجولة. وهذه المرة أبوه حسين الراعي الرسمي لهذا الاحتفال والتجمع. في ميدان يتذكره محمد وهو ابن الأربع سنوات.

باذنجانة حمراء

«عسى عمره ما انختن محمد، يعني لازم تسوّي الطهارة في بيتي، ما كان سويتها في حوش خميس في بيت جدته من الشعر». بكل استياء وغضب تكلم نفسها بختية الأحمدي (نسبة الى النوق البخت)، الزوجة الأولى والمفضّلة لحسين والد محمد.

سواء أقنعها حسين أم فرض عليها لا فرق، فالنتيجة أن حفلة ختان محمد، ابن الأربع سنوات في بيتها.

نعم احتفال بالختان. هكذا كانت العادة. يذاع الخبر في حفلة يُدعى إليها الأهل والأصدقاء والحلّاق والطبّاخ على الغداء. ولا حاجة لذكر المناسبة، يكفي أن يكون الطبق الرسمي الأرزّ بالحمّص لمعرفة عنوان الاحتفال. وعلى الرغم من تنوّع المطبخ المديني، فإن أكلة الأرزّ بالحمّص هي الأساس.

فقد تنوّع المطبخ المديني بتنوّع السكّان. فهناك الطعام الهنديّ والتركيّ والمغربيّ والأفريقيّ والمصريّ والشاميّ والجاويّ والبخاريّ والكابليّ. أمّا الموادّ الأوّلية، فكانت متوفرة في كل بيت، وخاصة لدى من هم خارج السور. فالضرع أكثره من الماعز، يعلفها سيد البيت، وتحلبها سيدته.

ومن الأكلات المدينية الشهيرة المطبق. يصنعه المطبقاني زردم وصنافيري، وحين يصل أهل مكّة المدينة يتذكّر محمد كيف يصبح المطبقاني صاحب الموسم، لأنه لذيذ.

ولا أحدُ يتقن أكلة الأرزّ بالحمّص في هذا العالم إلا طباخ واحد. المعلم شرشورة. عُرف في أوساط المدينة داخل السور، لتتّسع شهرته خارجه، وفي جميع الأحواش. إنه رمز للأصالة والتكريم والفخامة. شرشورة وبس. دعاه حسين إلى المناسبة. لا مانع اليوم من السخاء في حسابه. المناسبة كبيرة وعزيزة على قلب أبي محمد. ابنه عاش حتى الأربع سنوات بعدما فقد أطفالًا كثيرين قبله.

ومن العادات والتقاليد إقامة احتفالات متعددة أخرى، منها مثلًا الاحتفال بنجاة الأم، أو أنهّم في اليوم السابع يحتفلون بتسمية الطفل. وعند البعض، في ظل برجوازية أهل داخل السور، إذا بلغ الطفل أربعين يومًا تأتي الداية (المولّدة) وتحمل الأم طفلها ومعها بعض أخواتها أو الجدة، ويذهبن إلى المسجد النبوي. يتسلّمه الآغا، ويُدخله إلى الحجرة النبوية.

والطفل لا يُختن عند الرضاعة، لأن أهله يخشون حدوث مضاعفات أو آلام، وقد تتعثّر الأم في علاجه، إذ إنه ما من مستشفى أو حتى طبيب. ليس هناك إلا الحلّاق. العمّ غوث. أصلًا الحلاق يرفض أن يختن الرضيع، إلّا في سنّ الأربع سنوات فما فوق بشرطٍ لا تفاوض بشأنه، وهو أن يكون قد اشتدّ عود الطفل مشيًا وفهمًا. ويستطيع عند أي شعور بالألم الذهاب برجليه إلى العمّ غوث.

مارس الحلاق في ذاك الزمن مهنة الطبيب أيضًا. كيف لا وهو يحمل مشرطًا ومطهّرًا وإبرة وأحيانًا إذا توافر مُسكّن ألم. فيتذكّر محمد كيف وضع العمّ غوث والحلّاق إبراهيم الجرّاح المنافسة المهنية جانبًا. وكيف شارك الاثنان في مداواة جروح الإخوان من جيش الدويش، يوم حصار المدينة. في مناقبية عمل كثرت تلك الأيام.

اختار حسين الديوان داخل البيت لإقامة المناسبة. كان فصل الصيف قد أطلّ، والحرارة في ارتفاع. وكذلك حرارة أعصاب بختية. فلقد طلب حسين من النساء الصعود الى السطح.

أي مجلس؟ وفي السطوح؟ استغرب الضيوف. النظام معروف. في الصيف يكون الجلوس نهارًا في داخل البيت، وليلًا على السطوح.

«الشكوى لله، خلينا بس نخلص من هذا اليوم» شكت إحدى الزائرات خلسة.

اجتمع الأهل وشرشورة والعمّ غوث والطفل محمد. اكتمل النصاب، عندئذ تنهّد حسين راجيًا أن تمر المناسبة على خير، فهو يعرف أن شرشورة يُجنّ جنونه عند مناداته «بتنجانة حمرا». الغريب أنه لا يغضب من اسم شرشورة نفسه، فهو المكان الذي توضع فيه حفّارة القبور، ومغاسل الموتى. لهذا وتحسّبًا اختار الوالد البيت بدلًا من الحوش. في البيت يمكن عزل الطبّاخ عن الضيوف.

«مين الطبّاخ يا حسين؟» سأل أحد الأصدقاء.

«أبو حمرة» أجاب حسين، محاولًا التعتيم.

«ليه ما جبت شرشورة؟ هو أحسن»، أجاب الصديق، والاحتيال يغطّي محيّاه.

«أرجوك اسكت، أبو حمرة طبّاخ طيّب»، قال له حسين، وهو يعضّ على شفته.

بعدئذٍ دعا الجميع إلى الطعام. الرجال في البيت المجاور، بيت حمدان بن ضرار الأحمدي، خال أخوات محمد. مفارش على الأرض، وبضع طبليّات للكبار في السن. والنساء في بيت بختية، زوجة حسين، وأخت حمدان. يتبادلون النخب بضيافة الأرز وكؤوسهم يملؤها الماء والشاهي. والأطفال يسرحون ويمرحون بين الأهل يأكلون. الطعام وافر والجماعة مستأنسون.

وما إن قاربت المناسبة على الانتهاء، وإذا بصراخ عالٍ يخرج من داخل البيت. تسمّر الكل وتوقف الأكل وصوت المضغ وحتى الحديث الجانبي كل يقول «خيرًا إن شاء الله».

لربما جرح أحد الأطفال أو وقع في البئر. ولربما أسوأ من ذلك جريمة قتل لأحد من الجيران على يد لص فقد كثرت حوادث السرقة تلك الأيام.

لكن حسين عرف الأمر، وذهب إلى الديوان وكله غضب. يمشي غير مهرول. يعدو غير غازٍ. والغضب ينثره في المكان وكأنه فلاح يعرف ما حصد. ليصل ويجد شرشورة سينفجر غيظًا محاولًا إمساك الصبية، وبينهم محمد، بعد عملية الختان، «أنا بتنجانة حمرا، أنا» يقول شرشورة ويتنهّد بانزعاج فاضح.

فما كان من حسين إلا أنّ أمسك بأحد الصبية ويمصع أذن محمد قائلًا: «يا واد إحنا في فرح، تبغي تنكّد علينا، خلينا في ساعة الرحمن».

انتهى الإحتفال بسعادة عمت البيت والحارة الممتدة خارج السور. ومحمد أصبح طفلًا يريد اللعب واللهو كل يوم مع أقرانه الأولاد. يدخلون السور نهارًا إلى عالم جديد. فكل ما هو داخل السور من آليات غريبٌ عنهم. المنازل وعلو طوابقها، والمقاهي وكراسي القش والخشب. ولعل أكثرهم إثارة كان حصان إبليس.

حصان إبليس

دخول الآليات الصناعية إلى المدينة كان حدثًا بالفعل. فجغرافياتها تغيّرت. أصبح وصول الموادّ والرجال أسرع، وأكثر أمانًا. والتواصل مع أقطار الدولة العثمانية سهلًا. سكة الحجاز ربطت المدينة بالشام، محمَّلة بكل أنواع البضائع، العينية والمشاعر أيضًا. ووسيلة النقل الحديثة، القطار، أعادت رسم الخريطة، وخريطة محمد الطفل تغيّرت معها. لتتغيّر أكثر مع وصول الدراجة الهوائية، أو البسيكلت (السيكل).

لم يكن التطوير والتحديث بعيدين عن نهج السلطان العثماني عبد الحميد، إذْ يسجَّل له إدخال آلة التلغراف إلى أراضي السلطنة للمرة الأولى. أما مشاريع النقل بالقطار كانت تمثل فرصة للإمبراطورية العثمانية للحاق بركب الدول الصناعية، حيث كانت تشكو من تخلّف كبير في قطاع النقل، وتحديدًا نقل البضائع والقوات العسكرية من شرق الإمبراطورية إلى أرجاء أخرى منها، الذي كان يتطلّب أشهرًا متعدّدة، هذا إضافةً إلى العنوان الحداثي الذي يمثّله المشروع. عنوان ودعاية كان الباب العالي في أمس الحاجة إليهما، إذ كانت الصحف الأوروبية تتحدث كثيرًا عن تخلّف رجل أوروبا المريض (الدولة العثمانية) يومذاك.

يتذكّر محمد كيف انتشر الرخاء في المدينة في عهد السلطان عبد الحميد. يتذكّر وصول سكة الحديد والتلغراف والمدارس والعطايا. والعطايا لم تكن من ميزانية أي دولة، بل من أوقاف المسلمين لأن حكّام الأقاليم منعوها عن الحجاز.

وهذه الدرّاجة، التي تمشي على عجلتين، كانت محط أنظار الأطفال وإعجابهم، يركبون الحديد، وتمشي بهم سريعًا. أسرع من الدوابّ، وتحديدًا الحمار، الذي هو بطيء، لدرجة تثير الملل لديهم. فقط تعلّم التوازن عليه، لينطلق الطفل بين الناس وفي الأسواق، وبين المزارع.

لكن هذه الآلة الجديدة لم تكن محط إعجاب لدى الكبار في السن. فالأهالي خافوا على أبنائهم من التلوّث الفكري، الذي تُحدثه هذه الدابة الغريبة على عاداتهم. تعطيهم الحرية في الانتقال، والسرعة في التحرك، والأهمّ أنه لا سلطة اجتماعية على الآلة. لذلك لقّبها الأهل بحصان إبليس.

أثار حصان إبليس اهتمام محمد كأي طفل، وكان من أمنياته اقتناء واحد مثله، أو ركوبه على الأقل. عرف السفر على الجِمال، وتعلّم ركوب الخيل،

وتسريح الغنم، لكنّ السيكل دابة جديدة، يريد تجربتها، وهو ما كان لهُ أن يحقّقه في يوم من الأيام. فالفضول أهم مدرّس في الحياة.

تسلّل مع صديقه محمد سالم الحجيلي إلى داخل السوق، بالقرب من الحارس العثماني، الذي جلس يأخذ قيلولته نائمًا، والدراجة الخاصة بالدرك ملقاة إلى جانبه. على الفور قفز المحمدان على حصان إبليس، ظنًا منهما أنه سينطلق تلقائيًا. فما كان إلّا أن وقع الطفلان على الأرض، والسيكل فوقهما، فاستفاق الحارس والغضب يتطاير من عينيه. ومحمد يدفع برفيقه بيديه مبتعدًا عنه، وململمًا بعضًا من كرامته الطفولية.

وقف الحارس متفرّجًا، وهو يضحك. وقف يعيد التوازن إلى نفسه، بعدما قفز من نومه إلى المصيدة التي أمامه، طفلان يسرقان دراجة الحارس. تهمة سهلة لبدويين. وقف يعدّل من هيبته المصطنعة، ثم صاح قائلًا: «تستاهلوا، انتو ولد مجانين، الآن جنّيّ يركبكم، وتصيروا شياطين صغارًا».

دبّ الرعب في قلبَي الطفلين، فقد يتحوّلان الى شيطانين. فما كان منهما إلّا الركض هروبًا من الدراجة، وبسرعة لربما يبتعدان أكبر مسافة قبل أن يركبهما الجني. يريدان الرجوع الى العائلة، وشبكة الأمان. والحارس يصرخ متوعّدًا عن بُعد بصوت يغيب في الفضاء مع كل خطوة.

في تلك الليلة لم يذق محمد طعم النوم، حيث ظل يراقب نفسه في الخيمة خوفًا من تحوّله إلى شيطان صغير، خوفًا على نفسه، وعلى الجدة أيضًا. وخوف محمد الطفل لم يكن من فراغ. فقصص الجان وشياطين الصحراء مليئة في ذاكرة محمد، هي من زاد البدوي في السفر والترحال.

أحس بالخوف في الصميم. ومع كل عواء أو خرير هواء، «ينقز» محمد أكثر داخل خيمته. فيقرفص داخل لحافه، داعيًا ربه، متمتمًا بشفتيه أدعية، يعلو صوته قليلًا لتستفيق الجدة، فتدعوه إلى جانبها، وتحضنه وهو يتمسّك بطرف ضفيرتها. يتمسّك بحبل الأمن، حاضنًا طوق النجاة.

وفي صباح اليوم التالي، جلس محمد متدثّرًا بعباءته في الخيمة، يتجنّب النظر إلى الخارج. يسمع صوت الخال ينادي عليه، ولا يخرج منطلقًا كعادته. أدركت الجدّة أنّ في الأمر شيئًا، فدخلت بذكاء الى الخيمة، وجلست أمام محمد. أمسكت بيديه مطمئِنة إيّاه، لتمسح بكفها على وجهه قائلة: «يا محمد أنا ما أشوف، بس أحس إنو عندك كلام».

عندئذٍ انفجر الخوف في داخل محمد كبئر يتدفق منه الماء السيّال. وبدأ يخبر الجدة ما دار البارحة، والدموع تنهمر من عينيه بينما صوته يتهدّج. يصف لها كيف حاول هو وصديقه ركوب حصان إبليس، وأن الحارس الذي يمثّل كل السلطة في نظر أيّ طفل قال لهما إنهما سيصبحان شيطانين صغيرين. وهو لا يريد أن يكون شيطانًا.

«عجيب ماذا تريد أن تكون؟» تسأل الجدة مستدرجة.

«أريد أن أكون أنا» يجيبها محمد، وعلامات التعجّب تملأ عينيه الدامعتين.

«حسنًا فلتبقَ كما أنت، عليك أن تكون ملء الثقة بنفسك، وألّا تخاف. الرجال لا يخافون إلا من الظالم. والشيطان لا يظلم. الشيطان يوسوس على السوء والمنكر. فهمت يا وليدي»، تختم الجدة الحديث.

لم يقتنع محمد كثيرًا بما سمعه من كلام جدته، ولكنّ كلامها سكب قليلًا من البرد والسلام على النار في قلبه. فجرؤ وخرج من الخيمة. ليجد الخال أمامه يسأله بفظاظة: «وينك؟ ليش متأخر، شكلك وقعت في مشكلة».

لم يجِب محمد خاله، بل فضّل ترك همّه لنفسه، لكنّ كلام الجدة علق في أذنيه، إن الرجل لا يخاف إلا من الظالم. حكمة تعلّمها لتكون طوق النجاة له في الكبر. وحصان إبليس كثر عدده في المدينة، وركبه أطفال محمد، وأحفاده.

«ليس الحرمان ألا تجد، وإنما الحرمان أن تفقد ما وجدت»

محمد حسين زيدان

وفاةُ الجدةِ

يوم ثقيل، ويوم حزين، أحسّ به محمد في داخله. في كل أطرافه وفي كل خلية من خلايا جسمه أحس بهذا اليوم. لم تكن الحياة والموت غريبًا عنهم في ذاك الزمن بل مرافق دائم، إلّا أن وفاة الجدة هزّت كيان محمد الطفل من الصميم. هي الجدّة التي أمدّته بأبعاد في شخصيته تتخطّى دور الجدة.

وأيضًا الوفاة تعني الرحيل له. هي من عالم الأحياء إلى الأموات. وهو من عالم إلى آخر. يحمل معه بقجة. يحملها على كتفيه، اللتين لم تبلغا العشر سنوات بعد. يحمل كلّ ما يملك في هذه الدنيا. فيها ثوبان و»غياران». واحتفظ بحجاب الجدّة يستنشق من خلاله رائحتها كلما أراد الشعور بالأمان. ويسير من عالمه، الذي يحبه، من حوش خميس، إلى العالم جديد.

يخطو خطوة تلو أخرى، ليلتفت وراءه تجاه الحوش. يتذكّر التمر والجمر والقراقيش، زاد البدوي وعدّته. يتذكّر البداوة في بيت الشعر. فيه أرضعته أم، وحضنته جدة، وأعزّه خال، وحماه أب، وبكت عليه عين عمّه في يوم قاسٍ. ولاعَب أترابه في فنائه. ذلك العالم في حوش خميس.

ومع كل خطوة يعرف أن عالمه الذي يحبه لن يراه مرة ثانية، وأنّ الزمن سيزيل أيّ أثر لهذا المكان. تلك هي قسوة الزمن. تمحو المحسوس ليبقى الإحساس. يخطو خطواته ومحمد الحوش يخرج مع كل خطوة. ليملأ الفراغ في محمد العالم الجديد. ينتقل الى منزل أبيه المدر.

والحياة في بيت مدر أسهل بكثير من بيت الشعر، والاستقرار سيساعده على التركيز على الدراسة، إلّا أن ذلك لا يلغي المهمّات الجديدة. والآن عليه الانتقال من حوش خميس إلى منزل والده. على أيّ حال محمد في هذا العمر أقرب إلى الشاب منه إلى الطفل. مهمّاته أكثر، ومسوؤلياته في ازدياد.

يسير محمد وحده نحو عالمه الجديد، وبمهمّاته الجديدة، وكله إصرار على النجاح.

وحالما اقترب من بيته الجديد استقبلته زوجة الأب. مرحّبة به وبأخواته، فرحين بالتئام شمل العائلة. يضع البقجة عن كتفه في الأرض على حافة باب المنزل. يخجل من أن يعلن عن حضوره بوضع البقجة في إحدى الغرف، ولكنّ الأخت استدركت وأخذت أغراض محمد قائلةً: «يلا محمد تعال معايا آخذك لغرفتك».

تصيح ربة المنزل: «لا تؤخّري محمدًا، أبوه ينتظره في الدكان، وأنت عندك شغل ما خلص».

«حاضر حاضر» تجيب الأخت عائشة.

وتضع عائشة البقجة في إحدى الغرف. تقف قليلًا ثم تسأل: «محمد أنت ما تعرف أمك؟»

« أمي. أمي أنا؟» مستغربًا ومتلهفًا محمد يجيب.

«نعم أمك، خالتي فاطمة الفضلون، أنا أذكرها»، تقول عائشة، وعينا محمد تشعّان انشراحًا.

«وأذكر يوم تزوّجها أبونا، أنني كنت طفلة، لكنّ أمي بختية كانت في قمة الغضب»، تكمل عائشة حديثها، وهي تمشي باتجاه حوش البيت.

في الحوش، خارج المنزل، وعلى يمينه، تسكن الدوابّ والحلال. مربط الخيل أو الجمل والماعز. لم يشِع البقر بين أهل المدينة عامة. قليلٌ منها عند التكارنة فقط. وكانوا يبيعون ضرعها لبنًا أو زبدة، لكنّ الضرع الكثير من الماعز. والماعز ثلاثة أنواع: المصرية والعارضية والبدوية. المصرية والعارضية يشبه بعضها بعضًا. ووجه الشبه، كما يتذكر محمد، أن ثدي المصرية أسطواني فيه طول، يطلقون عليه «ثدي دروقي» كالدروق. أما العنز البدوية، فضرعها يكاد يلتصق ببطنها، ودقيق وصغير، ولا يخلو بيت، وخصوصًا من هم خارج السور، من وجود الماعز.

تقترب عائشة من العنز مقرفصة تريد حلبها. ويقف محمد عند رأس الماعز ممسكًا بها لكيلا تقطع سيل الكلام من عائشة أخته. وتقول عائشة: «جاءت خالتي فاطمة مع أبويا للبيت. طبعًا أمي كانت زعلانة، ومعها خالتي شمة في الغرفة. أسمع صوت أمي الحزينة، لكنها لم تبكِ. تقول ما جاب حسين مني ولد صبي، راح يتزوج غيري».

ثم ترفع نظرها باتجاه محمد، بينما كانت يداها على الضرع وهي تحلب، وتنفخ خصلة من شعرها وقفت حاجزًا بينها وبين أخيها لتكمل: «تعرف أنت أنو أمي جابت ولد صبي قبلي بس مات».

«صحيح صحيح» يتمتم محمد موافقًا وهو يحرك رأسه بعكس حركة رأس الغنمة. تتحرك يمينًا ويسارًا ومعها رأس محمد.

«بس واللّه يا محمد أتذكر أمك، كانت حنونة وطيبة جدًا، لعبت معي شوية لحين ما طلعت أمي من الغرفة تسلّم عليها»، ليقطع حديث عائشة عن أمه صوت والدتها بختية.

«يلا يا عائشة أسرعي، اليوم في شغل ما تأخريه، أبوك جايب ضيوف».

«حاضر حاضر أمي»، تجيب عائشة لتزيد من حركة يدها ووتيرتها لحلب ضرع العنز.

«وأنت محمد أبوك ينتظرك في الدكان، سوف يعطيك أغراضًا للبيت روح قوام»، عندها يفيق محمد من حلمه القصير. نعم أيّ حديث عن أمه هو حلم له.

لا وقت للتندر. العمل ثم العمل ثم العمل. هكذا كانت وتيرة الحياة. فكل شيء كان يُصنع في البيت. الطعام تحديدًا مهمّة ست البيت. ومحمد الصبي ذهب إلى دكان أبيه لجلب الأغراض. لم يكن هناك سوبر ماركت أو بقالة بمفهوم اليوم، بل منظومة بيع وشراء مرتبطة بالمواسم. كالخضروات، فهي موسمية. لهذا يتعامل أهل المدينة مع البامية والملوخية والطماطم والباذنجان الأسود بالتجفيف. يشترون كميات من كل الخضر، حتى النعناع. كما أنهم يخزّنون الثوم والبصل والجبن والسمن.

والتمر والفاكهة لم يُستوردا في المدينة، بل لديهم اكتفاء ذاتي منهما. رمّانًا وعنبًا وتينًا. ذلك حتى وصول سكة الحديد من الشام وإليها. والحنطة كافية بأنواعها الثلاثة. اللقيم للشوربة، والجريش والحنطة للخمير، والمعيا للفطير.

ولم يكن هناك برادات أو ثلاجات للحفظ والتخزين. أصلًا من اللحم لا يأكلون في المدينة إلا الضأن والجزور أحيانًا. أمّا الأنثى، فيمتنعون عنها ليكثر الضأن، ولكن في المدينة علة أخرى يتذكّرها محمد في ذاك الزمن. فهم كانوا يقولون إن لحم النعجة والعنزة والبقرة ضار. يعتقدون أنه لربما يكون في بطنها حمل. فهم بذلك يكرهون أكل ذات اللبن (الأنثى). والقليل يأكل البقر، لأن العجول لا تذبح، والثيران يكبر سنّها، أو يصيبها مرض، فيتداركونها بالذبح. وبعضهم يتذرّع بأن لحم البقر بارد.

يخرج محمد من عالمه الجديد إلى الدكان. دكان أبيه، وفيه كان يُعدّ شهادة تعلمية جديدة في الحياة، كما كان يقول. والجدة تظل في وجدانه أينما رحل. صورتها مطبوعة في قلبه لا تفارقه مدى الحياة.

الدكان

يذهب محمد كل يوم بعد المدرسة إلى دكان أبيه. الدكان يقع قريبًا من العنبرية. قريبًا من حركة سير التجار الخارجين من المدينة، والداخلين إليها. فقد عرف عن حسين بن زيدان التجارة. وتحديدًا بسبب عمله مع العقيلات في المدينة. وسافر كثيرًا بغرض المتاجرة، إلا أنه فضّل الاستقرار في دكان في الأيام الأخيرة، موكلًا جزءًا كبيرًا من عمله لابن أخيه محمد بن حسن بن زيدان.

يجلس محمد عند طرف المدخل بجانب والده حسين، حاملًا كتبه. يقرأ ثم يسمع حوار الوالد مع أصدقائه، ليعود بعد ذلك إلى القراءة أو اللعب. كان يتعلم من الدكان بحجم ما يتعلمه في المدرسة، وأكثر حبتين.

«محمد، يا محمد روح جيب لعمك البضاعة»، يصيح حسين على ابنه محمد.

يقفز محمد من كومة أكياس قش يجلس عليها ويسأل أباه «كم إردب(3) حق العم؟»

«جيب واحد إردب، أنت تقدر تشيل أكثر؟» مازحًا يقول الأب.

«نعم لو كان إردبًا مصريًا لا مدينيًا أقدر أشيل أكثر»، يجيب محمد بخباثة العارف بالفرق.

«روح يا ولد بسرعة بس بلاش كلام»، ينهي حسين الحوار، فخورًا أمام زبونه بمعرفة الابن بتجارة أبيه.

والإردب مما ورثته المدينة إبان حكم خديوي مصر محمد علي باشا. وهناك إردب مصري، وإردب مديني. كلاهما له المعنى نفسه، لكنّ الفرق في الكمية. فالإردب المصري ثمانية عشر مدًا. أمّا الإردب المديني فأربعة وعشرون مدًا. والمدّ فيه ستّ أقات. والخلاف في الكمية كان بسبب عملية قسمة الجراية، أو عملية احتيال. حين أراد البعض حبس أرادب من القمح وقف إحسان للمدينة احتالوا بها بالوفر. فجعلوا الإردب المصري أربعة وعشرين مدًا مدينيًا. وفر ستة أرداب.

«يلا يا محمد الجماعة يريدون الرحيل أسرع»، يصيح حسين وهو يتكلم مع زبونه عن شؤون عائلته وأخبار عمله.

وبينما يهم محمد بجمع الإردب، وإذا بصراخ يكسر حوار الأب والزبون. لتتبعه حركة تعلو بالصوت. صوت جموع تهيج وتركض. أفلت محمد ما في يده ليخرج إلى مدخل الدكان عند أبيه، فيمر الجمع الهائج أمامه. صراخ وضجيج عم المكان وهم يركضون باتجاه مسجد الغمامة، غبارهم يلحقهم، فركض محمد معهم.

يهب حسين قافزًا مناورًا بين الزبون ومدخل البيت صائحًا في ابنه: «قف مكانك ولا تتحرك». يصيح وهو ممسكًا بكتف ابنه يأمره بأن يجلس ويمتنع عن اللحاق. بأن يتوقف عن الركض مع الجموع الهائجة.

لملم الزبون أغراضه بسرعة وهم من مكانه معدلًا من عمامته وشاله على صدره يريد الذهاب، داعيًا حسين إلى ترك البضاعة عنده أمانة. يأتيه غدًا لأخذها. خوفه في محله. في تلك الأيام كانت المدينة تعاني من هوجة الجندرمة، جند العثمانيين المرتزقة، بغرض الترحيل في عهد والي المدينة فخري باشا.

وافق حسين وتعهد له ببقاء البضاعة مودعًا الزبون يقول:» تجنب طريق الغمامة بالسلامة». ثم التفت إلى ابنه غاضبًا حاسمًا. وساحبًا إياه الى داخل الدكان. وقام بإقفال الباب بالسلاسل الحديدية. وتوجه نحو محمد يقول بحزم لا يخلو من غليان: «اسمع، إياك ثم إياك إذا رأيت من يركض في هذه المدينة أن تركض وراءه، وإياك إذا رأيت جمعًا من الناس مجتمعين حول شيء أن تدخل فيهم».

«ليه ايش السبب؟» يسأل محمد متأثرًا.

«تعلّمت من الشيخ في المسجد، وكان أميًا رحمه الله، تعلّمت أنّ الدجال حين يصل إلى خارج المدينة يقف في الحرة الغربية، في حرة واقم، فيخرج ألوف من الناس الذين يضلهم الله به، فأخاف عليك أن تكون منهم» يجيب حسين ابنه.

«الدجال، في المدينة» جملة قالها محمد في سره، إلا أنّ عينه كانت تعبّر عما يجول في قلبه.

ويكمل الأب «الدخول في اللمّة غمّة لا فرجة فيها، والناس في السوق لا يلتمّون إلّا على شر، فهمت يا ولد».

وبقلب ثقيل وعقل بريء يرجع محمد إلى دكان أبيه، معاهدًا نفسه ألّا يكون ممن يدخلون في أي هوجة أو هوشة. درس تعلّمه ليتجنّب الصغير، ويتفرغ للكبير، من التجمعات، فكرية كانت أم بشرية.

أحس حسين بأنه أغلظ في التحذير. مدركًا أن الشدة لن ينساها محمد فبالغ في ردة فعله: «يلا قم يا محمد رتب الدكان، والحقني للبيت، لا تتأخر» يقول حسين لابنه محمد.

يلملم محمد البضاعة. كلّ في مكانه المناسب. ما من ترتيب محدّد، فقط ترصيف بعضها فوق بعض، إلا أنه عند وصول الزبون يستطيع الأب أو الابن جلب الغرض، ومن دون تأخير.

يغلق محمد الدكان من الباب الخلفي بسرعة، يريد اللحاق بأبيه وعائلته. مهرولًا نحو المنزل بعد أن هدأت الأمور في السوق. وكأنّ الجموع عاصفة وانتهت. يمر بعض الزبائن إلّا أن الأغلب من أصحاب المحال يقفلونها.

وصل محمد إلى البيت. وكان الوالد مع صديقه في المجلس. يتسامران ويتحدثان. ثم سلّم عليهما محمد.

«خليك يا ابني اجلس واسمع من عمك بادي بن جميعان»، يقول حسين.

«حاضر حاضر أبوية، تشربان شيئًا؟»، يجيبه محمد وهو يتوجّه نحو أخته في المطبخ. أو للدقة، إلى غرفة إعداد الطعام. تنّور وموقد وطشت وطبلية، وغيرها من بعض اللوازم.

في تلك الأيام نقص الغذاء. حُبس على أهل المدينة من الوالي فخري باشا. لا يصلها شيء، ولا ترسل شيئًا. وما زاد الطين بلة مجيء الآفة، الجراد والدبا(4). تراكمت الضغوط على الجميع. وبدأ الكثيرون ينفّس عن الضغط بشتى الوسائل.

«تعرف يا حسين أنّ خرص التمر لجباية الزكاة يبلغ خمسين ألف إردب. خمسون ألفًا(5) تعني أن يشبع أهل المدينة إذا ما أكلوا»، يقول بادي بن جميعان.

«معك حق، معك حق»، يهز رأسه من الأعلى إلى الأسفل موافقًا حسين.

يصل محمد حاملًا ما تيسّر من تمر وأكواب الشاي. يجري حساباته عن حجم الخمسين إردبًا من التمر.

«إذا أكلوا أو ما خزّنوا، يا رجل ألف صرفة وتدبير لهذه الكمية. تخيّل الناس تعبانة، حتى السوق جامد. يعني لو تباع هذه الكمية، فالحجاج يشترون التمر تبرّكًا»، يكمل حسين كلامه وهزة الرأس أصبحت من اليمين إلى اليسار.

«صادق يا حسين، بس تعرف كم وصلت الخمسين إردبًا؟ طبعًا مع الجراد والدبا؟» يسأل بادي حسين، ليجيب أقل من عشرين إردبًا، تخيل».

«لا حول الله، بس المدينة يا ابن جميعان لا تجوع وفيها الأسودان» يجيبه حسين.

«قالها الحسين بن علي، بس لو يدري عن فخري يمكن كان غيّر رأيه»، يستدرك بادي بن جميعان.

يتابع محمد الحوار. هو يعرف حجم الضرر الذي لحق بذلك الموسم. عانى أهل المدينة الكثير تلك الفترة. الجراد والدبا أكلا أكثر الثروة، التمر، ولكنّ المدد جاء من شمال المدينة وشرقها.

الشمال والشرق للمدينة هما المدد في كل شيء. فالضرع والأبقار عند التكارنة، أو بعض من في داخل السور، وهي قليلة. وضرعها للبيع. وما يأتيهم من شمال المدينة الشرقي تحديدًا من حرة فدك، أي من بني رشيد، فلديهم الضرع الكثير، يأتون بالجبن والسمن والمضير(6). وما كان الجبن في المدينة إلا من بني رشيد وفي كل بيت.

أما غربها، فالمدد منها بالوقود حطبًا وفحمًا.

الاكتفاء الذاتي في المدينة

لقد وهب الله المدينة موقعًا جغرافيًا مميّزا جعلها حلقة وصل بين نجد والشام ومصر، وبوابة للحجاز. فكل حاجّ أو زائر يخرج من الحجاز وعن بوابة طيبة، وكذلك أكرمها الله بمرقد رسوله الكريم، فكل طالب علم يجد في مسجدها العلماء الخبراء، فيعمل ليتعلّم. من ذلك ظلّت المدينة تحمل نفسها، لا يمنّ عليها أحد، ولا تطلب عونًا من غير أبنائها.

اشتهرت الحرفة في المدينة، فقد أعطتها الاكتفاء الذاتي، بحيث كان النجّار والقطّان والخيّاط والخرّاز و»الحذّاء» والطبّاخ، وما إلى ذلك من أهلها. والنجّار حمل العبء الأكبر. عمله أشبه بشركات المقاولات اليوم. مشاريع ضخمة، وموارد عديدة ومواد متعددة، لكنّ الأيدي العاملة من أهل البلد.

يتذّكر محمد كيف اتسع البناء في المدينة. شرقًا شُيّد بعضٌ منه، ومعظمه أُقيم في الشمال الغربي. اتسع البناء في النوافذ الرواشين، والسقوف القباقيب الصناديق. لا يستوردون شيئًا من الخارج. كلّ الخشب والحجر من الداخل. والتصاميم محلية الفكرة والتنفيذ. فما أبهى النوافذ المعلّقة المطلّة في الزقاق، والأبواب القوية الصلبة المفتوحة للضيافة. كلّ ذلك من صنع النجّار. والحجر ينحته الحجّار، وينقش ويتفنّن. اشتهر منهم العمّ إبراهيم حسون، كبير الحجّارين. ولو وُضع ثمن للبيوت التي بنيت في المدينة خارج السور، وداخله، وفي باب المجيدي، والصدقة، والتمار، وخيف الأغوات، وأرض محبة، وأرض القاضية، لوجدنا أنّ قيمة البناء بعملة اليوم تتعدّى المليارات.

كلّ هذه الصناعات والمهن كانت سائدة، إضافةً إلى دبغ الجلود وغزل الشعر، أمّا الخياطة، فكان لها جيش من الأهل. يخيط الأثواب والجبب والشايات(7) والأكوات. يحبون الأقمشة في المدينة، التي كانت تُستورد من الهند وفارس ومصر والشام. والتصاميم متنوّعة. للمرأة فستان مع مُلاءته، وهو اللباس التقليدي للمدينية. وللثريّات منهنّ تكون أزرار الفستان من حبّات الألماس، لأنه يُلبس كالقميص، مغطيًّا الجسد حتى الحلق. للرجال الثوب والشال والحزام الكشميريّ.

تباع كل البضائع في أسواقها المعروفة. فتجّار سوق الشروق، أو عقيل، كانوا من أهل عنيزة. وقد كانت لمحمد العلاقة القريبة والوطيدة معهم. منها صلة الرحم، ومنها صلة التجارة. وبرز من رجالاتها الكثير من التجار. منهم صالح النانية الحمود، وأخوه سليمان. ويطلق عليهم المطاليق، أى أصحاب الفزعة

والهمّة. يساعدون المحتاج، ويحمون الأهل. وصالح شيخ النجارة في المدينة. ويتذكّر محمد بعد مدة كيف ركب في طريقه إلى مدينة الخرج يرافقه سليمان الحمد. فإذا بهذا الشابّ يذكر اسمه ولقبه الثاني لمحمد. فسأله «من أبوك، أنت ولد سليمان؟»

فأجابه «أنا ولد صالح شيخ النجارة».

وادي مشعط

في أواخر العشرينّيات إلى أوائل الثلاثينّيات الهجرية من القرن الماضي، عاشت المدينة ترفًا لم تعرفه منذ مدة طويلة. نحن في عهد السلطان محمد رشاد. توالت أحداث كثيرة في المدينة المنورة. فلقد عُزل بصري باشا، الحاكم الصارم. وينتظر مجيء فخري باشا، الأكثر صرامة ليتولّى الحكم مكانه.

لكنّ المدينة كانت تعيش أجمل أيامها. عمل في النهار وسهر في الليل. الكلّ يشعر بهدوء المكان. وبلغ الرخاء خارج السور، من الحاضرة وحتى من حولها، من القبائل.

يتذكّر محمد كيف كان والده شديد الانشغال والسفر. ينفر من أقل كلمة أو من أي صوت. تمرّ الأيام والأسابيع ليلقاه، إلا أنه تعلّم الصبر. يعرف أن مهمّة أبيه ومسؤولياته كبيرة. أو هكذا أراد أن يقنع الطفل محمد نفسه.

حينها اتسع البناء في المدينة. وفي كل اتجاه إلّا شمال المسجد. أو الجهة المقاربة له. جهة باب المجيدي. كل ذلك بسبب وادي مشعط.

لا يغيب عن محمد تحذير جدّته المتكرّر له: «لا تروح وادي مشعط يا وليدي. انتبه لا يجيك، أو يمسك شيء». ثم يرفع كفيه اللتين لم تبلغا سن البلوغ بعد ليقرأ الفاتحة على روح جدته.

إلاّ أنه في يوم صيفيّ مشمس قرّر الصبي محمد استكشاف أرضه. قرر بعدما بلغ اللعب أقصى مداه بين الأحواش والأسواق، استكشاف ملاعب جديدة، أو حديقة لعب، بمصطلح اليوم. وذهب يخطط مع صديقه محمد سالم الحجيلي، لزيارة الوادي المنبوذ. المكان المسكون بالأوبئة.

«ايش رأيك يا محمد نروح لمشعط؟» بصيغة التساؤل غير البريء يسأل محمد صديقه محمد سالم.

«بس أنا أسمع من أمي تقول لا تروحوا هناك. فيه جن وشياطين وأمراض»،

يجيبه محمد سالم، وآثار تحذير الأم بادية على وجهه.

يمسك محمد بأسفل ثوبه ليشمّره على خصره بيديه الاثنتين. ثم ينفض بعضًا من الغبار، الذي تجمّع في وسطه ويقول «شوف، خلّينا نروح نسأل خالي، هو

يعرف هذه الأمور». بكل حزم اتفق الصبيّان على أن الخال، وهو أكثر من صبي، وأقل من رجل، هو صاحب الحكمة والمعرفة. عنده الكلمة الفصل.

يعرف محمد أن الخال في الدكان، لأن الأب حسين في رحلة عمل مع جيش عقيل، وقد طلب من الخال الصبي، محمد بن رجاء، أن يحرس المحل. فقرر الصبيّان سلوك أقصر الطرق، من داخل السور.

كان أهل المدينة لا يحبون أن يقطعوا النخيل في أرض الصَّدَقة. لذلك حالما اتسع البناء خارج السور كان في غربه. وكانوا يبتعدون عن البناء في شمال المسجد.

ومعظم الأحواش تقع في سفح سلع وزقاق الطيار والسيح والعنبرية، وأيضًا في الجنوب التاجوري، والتاجورية، والجديدة والبربورية، وطبعًا كان هناك زقاق النخاولة حتى باب العوالي.

يمشي المحمّدان في طرقات مدينتهما ومن خلال أزقّتها، مشي العارف والمنتمي. الكل يعرف الكل. فأنت ابن فلان، وتسكن مع فلان، وكبيركم فلان. هكذا صيغت منظومة الحماية، فضلًا عن أن انتماء أهل الحارة والأحواش إلى جماعة عرقية أو جغرافيّة أو مذهبيّة، يصنع نظام الأمن، نظامًا يحسّ به الطفل منذ الولادة.

دخل المحمّدان من باب المجيدي. ليخرجا منه إلى أرض سميت أرض باب المجيدي. وكانت الكثرة من سكانها من التركستانيين والأتراك والمغاربة. وأقاموا فيها بيوتهم. منطقة تتميز بعلامات الثراء، لأن معظم أهل هؤلاء السكان من المهاجرين، أصحاب الأموال. فنمت ثرواتهم بالتجارة في المدينة، ومعها نمت كل مظاهر الترف، البناء الكبير، والبلاد والأملاك.

ولا يستطيع المحمّدان إخفاء نظرة الإعجاب بالبناء، فيسدلان ويضربان بشماغهما على جيوبهما. ولو أن المنظر كان مألوفًا، إلا أن نظراتهما كانت تجول عليه، وعيونهما تتفحصه متسائلين كيف يكون العيش في هذه المنطقة. طفلان بدويان يحملان حلم التحدي في الحياة، ويلبسان لبوسًا بسيطًا يعكس قلة الحال.

يمر الطفلان بمحاذاة بيوت عثمان باشا، الذي يقع حول بئر حاء. وكل من يمشي على هذا الدرب لا يستطيع إلّا أن يرى هذا البيت الكبير ذا الطابقين. ثم بيت عائلة البشناق وأبو عزة. ليجاورهم بيت عبد الجليل مدني، وهو بيت متميّز يقع على شارعين في باب المجيدي أمام البيت الأبيض.

والبيت الأبيض شهير في المدينة المنوّرة. هو أبيض اللون، ولا علاقة لاسمه ببيت رئيس الولايات المتحدة الأميركية. بناه الدكتور أمين أفندي، الطبيب التركي، ثم آلت ملكيته بالشراء إلى الشيخ عبد الرحمن حسن القصيبي (والد الوزير غازي القصيبي)، صديق حسين والد محمّد.

وحالما وصل المحمدان إلى منطقة التمار، التي تتّصل بباب المجيدي قرب منزل السيد علي الحبشي، مرّ من أمامهما الوالي بصري باشا. يعرفانه جيدًا. فهو، أي الباشا، كان حبيب المعشر. يخالط الناس ويمازحهم. لم يحبس نفسه في قصر، ولم تكن له حاشية. يمشي في الأسواق بين الناس. وكم من مرة شاهده الطفلان.

وقف الوالي أمام الطفلين ومعه السيد محمد صقر، أستاذهما ومعلمهما. وببساطة بصري باشا ذهب يلاعب المحمدين ويسألهما عن أحوالهما، وعن سبب مرورهما في المكان.

«مررنا من هنا لأننا نريد الذهاب الى وادي مشعط»، يقول محمد سالم، والبراءة في عينيه. لينكزه محمد حسين زيدان بكوعه كي لا يُفصح عن السر. فلقد خاف أن يمنعهما الوالي من الذهاب، أو الأسوأ، أن يُبلغ عنهما السيد محمد صقر الأهل.

علت ضحكة كبيرة من بصري باشا، ومال برأسه إلى الوراء كاشفًا عن رقبته. ليهبط رأسه على قلادة في عنقه. وفي كل مرة يعلو فيها صوت الضحك، يميل الرأس ويهبط معها. والسيد محمد صقر يقف بجانبه ينتظر انتهاء نوبة الضحك، أو نوبة المبالغة في التواضع والتباسط مع الناس، التي كان يوصف بها بصري باشا.

«انتو ولد مجانين»، يقول بصري باشا بلهجته التركية، وهو يضحك. ليكمل «وادي مشعط يوك. كل واحد يروح هناك يرجع مجنون. تتذكر أم الكشيكش يا مهمد؟».

«أيوه طبعًا، كيف يا باشا ما أتذكّر»، يجيب السيد صقر.

«اسمع الحكاية من عمّك محمد يا ولد»، ليدخل بصري باشا في حالة هستيرية الآن من الضحك. فيما يجد المحمدان نفسيهما في مكان أجمل من وادي مشعط بالتأكيد، فيملأهما الفضول أيّما امتلاء.

«آهكي يا محمد آهكي» يقول الوالي ليضحك مجدّدًا.

«هذه يا أولاد واحدة مجنونة اسمها أم الكشيكيش. يقولون إنها وهي صغيرة ضاعت في وادي مشعط كم يوم. ورجعت بعدين، أو وجدها أهلها انجنّت وفقدت عقلها. معروفة هي في المناخة، في مكانها تجلس، هناك، ولكن في يوم من الأيام تعاركت مع أحد الرجال في وسط السوق في المناخة. واجتمع الناس من حولهما يشاهدون العراك، ويضحكون على الرجل وأم الكشيكيش. ومع كل الخصام الحاصل مرّ مولانا الباشا بصري، وأنا كنت هناك. فسألني الباشا عن الحاصل «.

ليقطع الوالي بصري باشا كلام السيد صقر: «وأفندينا السيد ما يعرف تركي. قال لي السيد بالتركي انو أنا مجنون بدل من أن هؤلاء مجانين»، ليعلو صوت الضحك، وحركة الرأس، حتى ظن المحمدان أن الوالي لعله هو أيضًا زار وادي مشعط!

«روحوا يا أولاد على البيت. واتركوكم من الوادي. في هذا الزمان بعض المجانين عقلاء، وبعض العقلاء مجانين». يختم السيد الحديث. مع إصرار المحمدين على زيارة الوادي.

لم يقف الجنون عند حدود وادي مشعط. بل تطور الجنون مع تبدل الأحداث لتصبح حفلة من جنون تقلع الحرث والنسل من الأرض. في زمن بدأ يأخذ محمد أولى خطواته نحو الفتوة. نحو عهد جديد انطلق من مكة ومن بيت الشريف الحسين بن علي، انطلقت الثورة العربية الكبرى لتنطلق معها زمن الترحيل من عالمه الذي يحبه وهو الذي يحمل ساعة الصفر للتحرك قبل وقوع كل ذلك.

أول سر حفظه الطفل محمد

لعلّ محمدًا قد بلغ العاشرة من عمره. يجلس في دكان أبيه، في سوق الحبابة، معتزلًا لا معزولًا عن مشاغل العائلة ومشاكلها. فالتعدّد في الزوجات له ارتداداته. والأب كان مزواجًا، لا يطيق محمد الخصام، وخاصة بين الأهل. وكلّ من عرفه كان يرى كيف يسرع لإطفاء حريق الخلاف ومن دون معالجة أسبابه.

على قاعدة البدوي «حنا استجلال وهن استجلال» اكتسب مهارة العزل الإرادي. حيلة تعلّمها من الصغر لتكبر معه.

في أحد الأيام وهو يطالع ما تيسّر له من كتب سمع صوتًا جهوريًا، صوتًا عاليًا ينادي. لوهلة توقف عن القراءة ظانًّا أن الأمر لا بد وأن يكون خلافًا تجاريًا. وما إن اقترب الصوت أكثر حتى قفز من مكانه متجهًا صوبه. ليرمي كتابه من يديه واقعًا على الأرض ثم يخطف رجليه راكضًا.

خرج من عزلته ومن الدكان مسرعًا باتجاه الصوت، ليلتفت يمينًا من باب المصري ويصبح أمام سبيل ستّنا فاطمة، وهو بناء في منتصف السوق. فإذا بالسيدين بافقيه ومحمد هاشم يقفان أمامه وهما ممسكان ببيرق ومنديان بأعلى صوتهما «الجهاد يا مسلمين»، «إلى السويس إلى السويس، أخرجوا الإنكليز من السويس، أخرجوهم من مصر».

سمع الكل هذا النداء، وذهب الكثيرون يستعدون للجهاد. وسمعه محمد بأذن عقله. وقال «اللّه يستر». فالدعوة للجهاد تعني اندلاع الحرب. وقد عاين محمد آثار الحرب العالمية الأولى على أهله.

همّ والد محمد بإغلاق الدكان. وما هي إلّا لحظات حتى هاج السوق وماج. محال تقفل. والناس تجري بين الدكاكين مسرعة الى بيوتها. بين تلك العاصفة جرّ حسين ابنه محمدًا من يديه قائلًا: «اذهب إلى البيت». هو يقصد بيت زوجته الكبرى، إذ إن محمدًا ما زال يعيش عند جدته في بيت الشعر، وفي حوش خميس. انطلق محمد. وحالما وصل إلى البيت وصل معه والده.

«أين ذهب بهذه السرعة؟» تساءل الطفل في نفسه.

في تلك الفترة كان أهل المدينة يستبشرون خيرًا بعزل الوالي العثماني بصري باشا، ووصول فخري باشا. حتى إنها، أي المدينة، كانت تموج بكثرة السكان.

فالأفراح متتالية كل يوم.

واستبشروا أيضًا بمجيء أنور باشا، وهو الرجل الثاني من الاتحاديين. وذهب الكل يبحث عن ترتيب جديد مع الوالي الجديد، كما كان الأمر مع الشريف علي بن الحسين وأخيه فيصل. فهما لم يفارقا أنور أو فخري باشا، كأنهما رهينتان غير معلنتين، ليطمئن أنور وفخري إلى ابتعادهما عن أي تحرك ضد الأتراك. فيما كان أخوهما الشريف عبد الله بن الحسين في مصر في ذلك الوقت يفاوض السير هنري مكماهون، يتبادلان الخطابات والوعود استعدادًا وترتيبًا للثورة على الأتراك.

وسكن الشريفان علي وفيصل خارج السور، لأنهما كانا يخافان أن يُحجزا داخله عند الساعة الصفر، أو ساعة التحرك. فنزلا خارج الباب الشامي في بيت مصطفى سليم، وهو بيت بُني خصيصًا لهما. واجهته غاربة، وظهره حتّى أول حدود التمار ولا يبعد عن سقيفة بني ساعدة كثيرًا، ولا يبتعد عن العطن سكن البادية. بذلك يُطمئنا الباشا بأنهم لم يخرجا ضده، وأن يجنّدا من أطاعهما من القبائل، كزعيم أهل العوالي الشريف شحات بن علي، وأخيه ناصر، كما أطاعهما بعض من أبناء بني عمرو، أهل الريان وأبو ضباع والفرع وعلى رأسهم أحمد بن جميعان.

دخل حسين البيت مسرعًا، وطلب ثيابًا وعباءة من زوجته وهو يمسك سيفًا بيد، وبندق أبو إصبع بالأخرى مقلبًا في حاجياته. فقد كان يهوى السلاح.

صاحت الزوجة: «آشبك مربوش؟».

أجابها: «خذي الذهب وبيعوا البضاعة التي في الدكان، أنا رايح للجهاد».

بهت كل من في البيت، محمد والأخوات. والبنات بدأن يبكين وهنّ يرجون أباهنَّ أن يبقى، متعلّقات بطرف ثوبه، لكنّ الزوجة تماسكت. لم تعلن تأثرها. وفي غفلة من أمر حسين لبست بختية، الزوجة (نسبة الى النوق البخت) ملاءتها في ليل وخرجت.

خرجت من زقاق الطيار إلى حوش خميس، وصولًا إلى بيت أحمد بن جميعان العمري، وأخيه بادي بن جميعان، صاحب العقل الكبير. طرقت الباب بتوتر فاضح، عرفها ابن جميعان.

فتح الباب متسائلًا: «خير آيشبك بختية، حسين فيه شيء؟».

قالت: «حسين جمع سلاحه، وترك حلاله، ويريد الذهاب إلى الجهاد».

تمتم ابن جميعان وطمأن بختية قائلًا: «روحي للبيت، وأنا وراك».

وصل ابن جميعان أحمد، وجلس هو وحسين في زاوية البيت. نادت بختية على محمد ليقدّم القهوة، والأخوات كنّ يحاولن استراق السمع خلف الجدران. وبعدما قدّم محمد القهوة جلس معهما يسمع ما يدور من حديث. وقد فوجئ كيف أن أباه لم يعد يطيق الانتظار، وأنه أصبح يغلي من كثرة ما يسمعه عن جرائم الإنكليز.

«أيّ إنكليز، وأيّ انتظار» علامة تعجّب رُسمت على وجهه.

عندئذٍ تأهّب ابن جميعان، ممسكًا بطرفي عباءته وضمّهما إلى وسطه مركّزًا بصره على حسين قائلًا: «يا مهبول وين أنت رايح، ما بقي إلّا ثلاثة أيام نشبها على الأتراك، يشبها حسين (الشريف حسين بن علي) في مكّة، أشبها أنا في آبار علي، ويشبها شحات (الشريف شحات بن علي قائم مقام المدينة) في العوالي، لن تعود إذا رحت، اجلس مع عيالك، هذا لعب عيال، يخرجونكم من المدينة لتهلكوا في سيناء... حرب الإنكليز مو هينة».

تراجع ابن جميعان بإسناد ظهره إلى المسندة، وعينا حسين مصوّبتان لا ترمشان تجاه الحائط، وكأنه يراجع نفسه بعدما هدأت خواطره. ليأخذ نفسًا طويلًا ويُلحقه بزفير، كأنه يطرد السلبية من جسمه. ثم يومئ برأسه موافقًا صديقه.

«معاك حق، والله معاك حق، الله يصبّر الجميع».

كان لإشارة حسين بإلقاء السلاح وعدم القتال الصدى العميق في المنزل. تنفّست على الأثر الأخوات والزوجة الصعداء. وهمّ ابن جميعان بالرحيل. عندئذٍ نظر حسين إلى ابنه ومن دون كلام أو حركة، هزّ محمد برأسه. كانت النظرة بليغة. هذا هو السر. اِحفظه.

علم الطفل محمد هذا الخبر. علم أن العرب سيثورون على الأتراك. وأن الانطلاقة من مكّة، ومن الشريف الحسين بن علي، لكنه لم يكن ليفشي السر.

لم يخن حسين أو ابنه محمد، العهد. ولو أرادا لكان بمقدورهما إخبار غالب باشا الشعلان، معاون والي المدينة، هو عربيّ، ويستطيعان أن يكلماه بالعربية، ليعلم فخري باشا.

وهكذا، قُتل الرجال وأحرقت المنازل في العوالي وأبيار علي، وفخري باشا، والي المدينة لا يتحرك، ولا يؤمّن أي قبلي. وبدأ الترحيل من المدينة. بدأ عهد السفر برلك.

الترحيل

الباب يُدَق بقوة. يهتز نافضًا قليلًا من الغبار المتجمع عليه. ومحمد مع أخواته في بيت زوجة أبيه بختية بنت ضرار الأحمدي في زقاق الطيار. تفصل بين الدقة والأخرى أقل من ثانية. والصوت يُحدث صخبًا أقوى مع كل دقة قلب. والغبار معها.

«اِفتحوا الباب... اِفتحوا الباب... يلّا يلاّ».

يعرف أهل البيت هذا الصوت جيدًا. هو صوت أحمد عزوز. إنه من رجال رئيس البلدية السيد أحمد صافي، إضافةً إلى ذلك هو أحمدي، وكذلك صاحبة الدار. يعني أنه منزل بنت العم.

دخل أحمد البيت، فتراجعت الفتيات مستترات خلف خلخال في طرف الغرفة. راح أحمد يفتش عن الأرزاق. يفتش عن الأكل. تمر، أو حنطة، أو غيرهما. أثار فوضى وهو يقلّب أرجاء المنزل، لكن لا شيء أمامه. لا شيء يجده. ومع كل محاولة فاشلة تزداد عاصفة الفوضى. والفتيات خائفات على أغراضهنّ، ويبكين من خلف ستار.

لا يدري أحمد أنَّ أهل البيت واحتياطًا أخفوا الأرزاق. الحنطة في ثلاثة أكياس وُضعت في صندوق سيسم كبير، وغُطيت بالقشّ، ووُضعت عليها ثياب الفتيات ولباسهنّ. النظيف منه والوسخ. الثياب الداخلية والخارجية كذلك. أما التمر، ففرشه محمد في الصالون، وفي غرفة النوم، وغطّاه بالجلايل والسباح، ولو انتبه أحمد قليلًا في مشيته، وضغط لكان قد أحس به تحت رجليه، لكنه توجّه نحو الصندوق.

«يخص عليك ايش في الصندوق خروق بنت عمك، لو كان حسين موجودًا كان ذبحك تحت الصندوق، اخص عليك، اتفو عليك». هكذا صاحت في وجهه بنت العم بختية.

أطرق أحمد عزوز برأسه خجلًا من فعلته، فهو يدرك الأعراف، ويدري كم أنه محظوظ لغياب حسين.

لم يكن حسين غافلًا عمّا يجري، بل إنه اضطر إلى الاختفاء بعدما اشتد إمساك والي المدينة فخري باشا بالناس بغرض الترحيل. كل الناس، رجالًا

ونساءً وأطفالًا. وعندما خاف من الإمساك به، قرر حسين الغياب لترتيب الأمور.

فقد عقد العزم على أخذ العائلة إلى ينبع النخل، وعلى أثرها أعدّ خال محمد علمي بن رميضان الرميح، وكان في جيش عقيل، ناقة مع دليل وراء حوش القشاشي، ومنها بعد منتصف الليل، ومن بيت الخال يتسلق الجدار إلى خارج الحوش، يركب الذلول، ومعه الدليل وإلى فدك والحائط والحويط، ثم ليصل إلى خيبر.

غاب حسين في خيبر فترة، ثمّ حانت له فرصة الرجوع إلى المدينة، وأخذِ عائلته معه، وذلك باستخدام سكة الحديد. طريق السكة الذي اقترحه الأمير شكيب إرسلان على أنور باشا يربط قرية هدية بخيبر، الخط الذي حمى ظهر فخري باشا، يوم حبس نفسه داخل المدينة، مفرغًا إيّاها من سكانها. فلا بيع ولا شراء ولا حتى زراعة. فقط نخلها يقوم بنفسه.

أضاع فخري باشا فرصًا كثيرة. وأقحم نفسه في قفص الحصار. لم يحاصر من الفريش ولا من وادي العيص، وكانت العيون والعوالي والقربان والقباء معه، بل ضيّق على نفسه عندما اتفق مع جمال باشا والي دمشق على ترحيل أهل المدينة إلى الشام. كان باستطاعته إغراء بني رشيد وعنزة في خيبر، ومن في شرق المدينة. ولو استمال بني عمرو من حرب، لوقفوا معه. هم لديهم ثأر مع الأشراف. فقد قتل الشريف عبد الله بن الحسين بن ربيق وهو أحد مشايخهم.

ينتظر حسين القطار متخفيًا خلف رمال جمعها على شكل كثبان، حتى إذا جاء انطلق باتجاه آخر عربة وفتح بابها. قفز إلى داخلها كامنًا بين أكياس القمح. لا ينام والنعاس بلغ أشدّه. يبقى تأهّبه تحسّبًا لأي حدث، لكنه العارف بأرضه. المسافات والزمن مسألة إحساس لديه.

يقترب القطار من محطة العنبرية. عندئذٍ يفتح حسين الباب وفي يده عكة

(كيس) سمن، وفي الأخرى عكة قمح، ويقفز. يهبط سالمًا على الأرض، لينفض الغبار عنه ويكمل طريقه مشيًا. لا يثير أيّ شك أو ريبة. واثق الخطوة يمشي متأهّبًا. ينسرب نحو بيته في القاضية، يكمن قليلًا ثم يكمل. من أمّ الورد على حافة بطحان إلى باب البيت. لا يدقّه لأنه ما زال الوقت ليلًا. يتستر بين الباب والحوش، ويتمدّد على الأرض لأخذ غفوة.

صباح اليوم التالي تفتح الزوجة الباب لتجد حسين عنده. غافلة عن وجوده. قالت: «لماذا لم تدقّ الباب؟».

يجاوبها «سمعت الشيخ في المسجد يقول إنه يُكره للرجل إذا جاء من السفر أن يدخل بيته ليلًا، بس ولد عمك عزوز حسابو عندي، جهزي الكل، بكرة راحلين إلى ينبع».

في اليوم التالي يسرع حسين في نقل زوجتيه وابنتيه وحفيديه خارج المدينة. إلى الجرف يأخذهم ليستأجر ثلاثة جمال من عبد الله الجحودي. ركبوا الجمال وإلى الفرسية وهو واد بين رحقان والجماء، وإلى الفريش وإلى ينبع البحر، فينبع النخل.

لم تكد تمضي أيام حتى لحق محمد وأبوه بالأهل.

والحجاز يعيش على جمر الغضى. تحرّكات من الأهالي والقبائل، كلهم يريد تقرير المصير. الإعداد في مكة، والعدد في الطائف وحولها. والتواصل مع الخارج يجري من جدة، وفي ما خص المدينة يتذكر محمد التفاصيل في الإعداد والعدد. يعرف حركة السلاح. ويسمع عن خطابات التسليح والتثوير. يعرف الـ «مع» والـ «ضدّ» في الموقف.

ففي رابغ بإمرة أميرها القبلي حسين بن مبيريك ظل على ولائه للدولة العثمانية. حتى إنه، أي محمد، يتذكّر جيدًا مقولة سعيد أبو عوف، وهو أحد المتّصلين اتصالًا وثيقًا بشيخ الهبة من عوف المسروحية الحربية، التي ورد فيها «الأتراك حاربهم العرب بالخطأ. كانوا يرسلون كل شيء من اسطنبول، حتى الكنادر».

قالها أبو عوف وفعلها ابن مبيريك. ليجري تدبير اغتيال حسين بن مبيريك في جرول في مكّة. فإذا بأخيه إسماعيل بن مبيريك له الدور الإيجابي مع الملك عبد العزيز. هذا الدور الذي تُرجم بحجز نوري السعيد وجعفر العسكري ومن معهما من ضباط العراق، الذين أفرج عنهم الإنكليز من الأسر، وأرسلهم مددًا إلى فيصل بن الحسين. لم يستطيعوا أن يركبوا البواخر لقربهم من الوصول إلى الساحل، فحوصروا في آبار ابن حصاني.

والمدينة يومذاك كانت تموج بكثرة السكان. عمل في النهار وسهرات في الليل. كان ذلك يوم استبشرت بعزل الوالي بصري ووصول الوالي الجديد فخري. الكل يتقرّب ويتحدّث مع فخري. وما أدراك ما فخري بفاعل. فصوت طلقة الحسين بن علي، التي آذنت ببدء الثورة العربية الكبرى وصل صداه

إلى المدينة المنوّرة. وقد سمعه محمد قبل أن تطلق الرصاصة. ترحل العائلة منها. ويعيش محمد في ينبع وكله شوقٌ للمدينة، عالمه الذي دخل عهدًا جديدًا.

جبل التمر

هو زمن الترحيل أو السفر برلك. عهد الباشا فخري والي المدينة. وبكل بساطة قرر فخري باشا تفريغ المدينة من أهلها، ومن دون بيانات أو قوائم، أو حتى فرصة لهم لترتيب أغراضهم. يحملون للتسفير. عملية إذلال وظلم عاشها أهل المدينة. يتفرّق الأب عن بناته، والأمّ عن أولادها، والأهل عن أرضهم. حالة رعب وخوف يتذكّر محمد طعمها، ولا تفارقه. يجلس مع أبيه، الباحث عن أمان لعائلته، والساعي إلى التخلص من حكم فخري باشا.

وسط كل ذلك وبعد أن أمن على عائلته في ينبع النخل قرّر حسين والد محمد أن يبيع مخازنه استعدادًا للأسوأ. وخرج من البيت مع ابنه يبحث عمن يشتري بضاعته. السوق يغصّ بالناس، والعساكر الأتراك أو الجندرمة، منتشرون في كل زقاق، وكل مدخل. لا أحد يشتري، فقط هناك تجميع. تجميع البشر وتخييرهم، أو حشرهم للتخيير، الانتقال أو القتال. والقتال كان بمعنى أن يقاتلوا مع الوالي التركي دفاعًا عن السلطان في اسطنبول.

كل هذا والمجاعة تضرب معدة الكل من دون استثناء. جاعت المدينة. مع العلم أن أهلها ليسوا بحاجة إلى شيء. فقد كان الخبز يصلهم من القصيم، والخيرات من ينبع. حتى إن بعض من في البادية أكل القطط.

ولكنّ فخري باشا حصر نفسه ومعه الأهالي داخل السور. لو استمال من في شرق المدينة من قبيلة مطير، لجلبوا الأرزاق، ولما عزّ السمن والجبن وحتى الحنطة. كان كلّ همه أن يملأ المستودعات بالتمر، الذي لم يكن شحيحًا. وأراد أيضًا أن يملأ المستودعات بالذخيرة، بندقًا ومدفعًا وقنابل وطلقات من الرصاص.

واشتدّت عزيمة فخري على الترحيل أكثر فأكثر، وأُمسِك الناس بطريقة عمياء وبتعسف.

وفجأةً في منتصف السوق يقف الضابط التركي ومعه ثلة من العساكر الذين يتهجّمون على واحد من الأهالي.

«حرام عليكم، حرام كيف أن الفتاة وأمّها ترحلان من دون رجل أو محرم أو أهل، أهذا يجوز في الإسلام، هكذا تعاملون المسلمين؟» يصيح الأب باكيًا ومنفعلًا عند ركبتي الضابط. ينظر من تحت إلى فوق إلى الضابط راجيًا إيّاه الرحمة، وهو يشاهد زوجته وابنتيه يَنْسَقن مع العسكر معَ غيرهن للترحيل.

والضابط لا يرف له جفن. يرفع الضابط يديه ليعدّل من بزته العسكرية، ويرتّب بعض النياشين. ثم وهو يهذّب شاربيه ليستمد منهما رجولة أو سلطة وهمية يعتقدها فيهما، يأمر العسكر بمواصلة العمل.

عندئذ يدرك الرجل أن لا خيار أمامه الآن إلّا الهرب أو القتال مع الجيش التركي. فيُجري مناورة صغيرة لتشتيت الانتباه. يوحي للضابط بأنه يسعى لتقبيل يديه والوقوف نصف وقفة. بمحاذاة المسدس في خصر الضابط. يسحب الرجل المسدس مع ذهول الضابط. مهددًا ومتوعدًا. إلّا أن زوجته وابنتيه قد اختفين مع الممسوكين. فيقرّر الهرب بعيدًا.

يركض بأقصى سرعة بين الجموع وبعيدًا من العسكر، والأهل يتعاطفون معه، فيعرقلون المكان ويزحمونه بحركتهم كي لا يلحق العسكر به. ومحمد الطفل يراقب متعاطفًا، ويد أبيه حوله.

يعرف محمد الرجل ويعرف عائلته، ويعلم بعد مدة طويلة أنّ الأم ماتت في الشام، والأخت ضاعت. فلا أحد تولى رعايتهن. ولولا رعاية الله لما رجعت إحدى البنات إلى المدينة. وصلت بالباخرة. رجعت بعد دخول المدينة في حكم الشريف الحسين بن علي، وتحديدًا رجع معظم سكانها من الشام، بجهد من ملكها حينها فيصل بن الحسين، بترتيب من لورانس والإنكليز. وعرفها بعض الأهالي، لتجتمع مع الأب، الذي هرب إلى ينبع.

ولم يقتصر الاضطراب على البشر فقط، بل طاول الحجر أيضًا. ولو كان هناك مؤشر لسوق العقار لربما وُصف باليوم الأسود، أو حتى بالأيام السود. انهيار في الأسعار، الكلّ خائف ويبحث عن السيولة. والسوق يعيش في بيئة خطرة. لتنحدر الأسعار أكثر فأكثر.

وصل محمد وأبوه الى دكان أحد الأصدقاء. يجلس حسين وابنه محمد عند مدخل الدكان وليس داخله. يريدون متابعة ما يجري فلا أمن. وينهمك الأب مع صديقه في نقاش حاد وبانفعال.

«تخيّل يا حسين. تذكر بيت محمد يوسف عبيد في زقاق الطيار، تتذكر؟» يقول الصديق والانفعال بلغ أشده لديْه.

«تخيل بيت من ثلاث طبقات. البيت أمام حوش السمان وحوش بني رشيد الذين باعوا الرجل بكيس أرزّ!» ويكمل الصديق كلامه. هنا عدّل من جلسته واقترب أكثر من حسين واضعًا يديه على ركبتيه والعروق من جبهته بدأت بالبروز، وتكبر، مع كل حرف وقال:

«طيّب بيت في الجديدة والتاجوري، اشتراه محمود مصطفى، عرفته؟».

«نعم أعرفه شيخ الفلتية».

«أيوا، هو اشتراه بكيس أرزّ كمان»، يجيب الصديق.

«والله الأمور رايحة للأسوأ. لا حول الله» يقول حسين وهو يربت بكفيه ثم يغير الموضوع سائلًا: «عندي بضاعة أبغى أصرّفها، عندك أحد؟».

«سمعت أن ضباط فخري يشترون الأرزاق. شوف سالم أفندي الليبي، أو حسني علي المقدسي»، يجيبه الصديق.

أغلب جيش فخري باشا كان من المرتزقة، والضباط من العرب. ومن أشهرهم الذين ظلّوا في المدينة بعد خروج فخري، كان حسني العلي المقدسي، وخليل هجانة وعبد المجيد اليافي الصيدلي، وضياء الدين بيك التركي الصيدلي، والطبيب المعروف يومها محمد علي الطرابلسي الليبي. ومن أبرزهم أيضًا الضابط سالم أفندي الليبي.

فلقد أمر فخري باشا ضباطه بجمع الأرزاق، فجمعوا التمر ووضعوه في المخازن. حتى إنه شاعت وقتذاك لدى البعض تخميره للتمر وصنعه العرق. وعندئذٍ كثرت التعديات على الأهالي، وكان من تركة فخري باشا جبل من التمر. أخرجه الأهالي من المخازن ووضعوه في آخر سوق التمارة والحبابة، أمام مسجد الغمامة، وأمام البلدية.

«لا والله ما أبيع حلالي للتركي. سأخرج من هنا وأبيعها لجيش الشريف» يقول حسين، وهو يؤشر بيديه لمحمد بالذهاب، ثم استأذن صديقه وقام. حسين وابنه يقصدون جيش الشريف.

فطن حسين لما سيحصل، الترحيل ليس أوّل التداعيات، هناك تصعيد خطير آتٍ، فقرر اللحاق بالعائلة في ينبع النخل. والتخطيط بدأ يشغل كل تفكيره. لكن لديه مهمة تأمين عائلته من المستقبل المجهول. وما إنْ وصل حسين وابنه إلى ينبع فإذا بهما يمشيان في مدينة تغيرت أحوالها. يمشي حسين الوالد ومحمد الفتى وكلاهما يحملا المهمة نفسها.

ولد الكشي

يفيق حسين متأهبًا وهواء ينبع النخل العليل يدخل من نافذة منزل العائلة الجديد. لا تكلف أو فخامة فقط طاقة صغيرة (نافذة) في الجدار تسمح بدخول الهواء وبعض الحاجات المنزلية. ففي تلك الأيام كثرت حوادث السرقة وانعدم الأمن فيها.

جمع حسين أغراضه، سيفه وبندقيته ومحمد يجهز ما تيسر له من مؤن. وعند باب المنزل وقفت الزوجة: «بالسلامة إن شاء الله، وتعود بخير نحنا بانتظارك»، تقول بختية مودّعة زوجها من خلف باب البيت. ليظهر رأس ابنته عائشة، والدمع يغطي وجهها الأبيض البشرة.

«بإذن الله بس أصرّف البضاعة سأبيت كم يوم عند ابن خليوي، وإذا احتجتوا شيء، الله الحامي»، يجيب حسين حاملًا بقجته على كتفيه النحيلين، ومحمد يقف إلى جانبه.

«المهم تذكّري في الأيام المقبلة سيتحرّك فخري، يمكن يفلت الشلاوية جماعة ولد الكشي، الحذر، أقصى درجات الحذر»، منبّهًا والعصبية تنضح من صوته، وملامحه. كلّ هذا لإثبات حجم مخاوفه. والابنة تصيح ودموعها تنهمر بوتيرة أكبر.

قرر حسين أن يذهب إلى العيون شمال المدينة، حيث خيم فيها جيش الشريف عبد الله بن الحسين. والمخيم واقع في وادي العيص، الحاجز لسكة الحديد. يريد حسين أخذ ما تبقى من بضاعته وبيعها. فهو يعرف أن الأيام المقبلة ستكون حبلى بالمشاكل والقلاقل.

لم يكن الحصار على فخري باشا والي المدينة من الفريش، أو عرضي الشريف علي بن الحسين فقط، بل كان يعاونه في ذلك الحصار من وادي العيص أو عرضي الشريف عبد الله بن الحسين.

فقد حصر فخري باشا نفسه في المدينة. والحجاز بمعظمه خرج من يد الأتراك. ونجد حُجبت عنه كذلك، مع أن سلطانها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود لم يدخل في الحرب بعد، لكنّ الحجب جاء من قبائل اليمامة، والقصيم، والأحساء، التي توقفت عن إيصال خيراتها إلى المدينة. فالرجال لم يكونوا مع فخري باشا.

الرجال، أو بعض منهم، كانوا مع لورانس في العقبة. ولو أن فخري خرج من المدينة مُعينًا جميل باشا لمنع الشريف فيصل بن الحسين من تخريب سكة الحديد. ولكان أيضًا حجز رجال لورانس من قبائل الحويطات، وبني عطية، وبني صخر، والرولة، وبلي عن حربهم ضد جمال باشا والي دمشق. ولو جلس في معان لربما حمى القدسي أو حاز مجد حطين، لكنه انحصر في المدينة، يُفرغها من أهلها.

ومع اشتداد الحصار انقطع المدد عن فخري باشا. جيش قوامه ثلاثون ألفًا كلهم من المرتزقة. مات بعضهم من الأمراض والآفات، ورحل الآخرون تاركين خلفهم الوالي. وكان الاتحاديون قد توغّلوا في العمل العسكري، منهمكين في بلاد الشام. بعدها ذهب فخري يبحث عن جيش جديد، ولكي يُنهي عملية إفراغ المدينة من شبابها، اقترح بناء الجيش الجديد من شباب أهل البلد. ولم يجد فخري أفضل من «ولد الكشي»، أو أشرف بيك، فجمع الكشي الشلاوية والعربجية من البلد.

يسير محمد مع والده ليركب الذلول، وحسين الدليل، لينسربوا تحت آخر ضوء للشمس، إلى وادي العيص.

لم يكن بيع بضاعة أو تصريفها بالأمر الصعب. فالحصار المفروض على المدينة خلق سوقًا سوداء، وتحديدًا من الجيش المحاصر. وحسين أراد التخلص من حلاله، ومن دون حساب ربح أو خسارة، فقط التحرّر والحرية. التحرّر من مسؤولية البضاعة، والحرية في التنقّل بوجود السيولة النقدية، تحسّبًا لما سيأتي. فهو، أي حسين، شهد أيامًا صعبة مماثلة، أيام الترحيل لحفر قناة السويس.

وعند إنهاء بيع البضاعة، سار حسين وابنه إلى أسفل وادي الحمض، عند مخيم ابن خليوي. رجاء بن خليوي، من ولد التميمي، الذين هم من رؤوس بني سالم وفروعها ميمون الحربية. وعندما وصلا استقبلهما ابن خليوي استقبالًا عربيًا أصيلًا. وأكرم ضيافتهما.

لصداقتهما نشأة قوية.

«حيّا الله ابن زيدان، يا هلا وسهلا»، محيِّيًا يقف رجاء. طويل القامة هو وعالي الهامة. يحمل في وجهه علامات الفرسان شكلًا ومضمونًا.

«هلا ابن خليوي. سوف نبيت كم يوم ثم نرحل للمرأة والعيال»، يجيبه حسين.

«هلا وسهلا، هلا بالغالي، تفضّل تفضّل»، يقول ابن خليوي.

حطّ محمد ووالده رحالهما في المخيم. وأراد محمد اللعب مع بعض الأطفال خارج الخيمة إلّا أن والده منعه من ذلك قائلًا له: «اِسمع وتعلّم كلام الرجال». وجلس محمد متململًا. تعوّد محمد مشقّة السفر، إلا أن الطفل فيه، أراد اللهو واللعب.

«طال الحصار يا ابن خليوي، وبعدين الناس بدت تشتكي، والأرزاق في تناقص» يقول حسين.

«صادق والله يا بو محمد. تخيّل حتى فخري ضايع. ذاك اليوم طلب منه جمال باشا والي دمشق فلوس»، هنا يقطع حسين حديث ابن خليوي مكملًا:

«أدري أدري يا صديقي. وصلها السيد طه محمد حسين عثمان، وصل مبلغ أربعة آلاف جنيه ذهب عثماني».

«لا» بصيغة التعجّب الممزوجة بالانبهار يقول ابن خليوي ليكمل «السيد طه! أبو السيد حسين. طيّب كيف وصلها؟» متسائلًا ابن خليوي.

«شوف سكة الحديد مقطوعة، وأي ضابط تركي مهما تنكّر لا يستطيع أن يصل بالمال إلى جمال باشا، هنا قرر السيد طه بهذا التكليف أن يرسل أهله إلى مكة. وكذا لا يرحلون إلى الشام وينقذهم من الجوع».

«وبعدين. وش صار»

«أبدًا. لبس السيد طه الأمانة ليصل الى نجد، في عنيزة عند صديقنا عبد الكريم الخريجي. يشتري بضاعة بمعونة الخراجة ويركب الفلاة محروسًا بالدليل ويصل دمشق. باع البضاعة وراح لعند جمال».

«والله كفّو هالرَجّال. ولقى جمال في الشام؟» يسأل ابن خليوي.

«نعم، نعم» يضحك حسين ليكمل «وجد جمال باشا يحزم حقائبه يريد أن يخرج من دمشق، بعدما دخلها فيصل بن الحسين. فاستأذن السيد وعنده برقية من فخري. وسلّمه المبلغ»

«بس كذا ما قال شيئًا جمال؟ لم يستغرب، فهو كان لا يثق بالعرب».

قال جمال باشا «أبيتَ يا سيد طه إلّا أن تثبت أن في العرب أمناء». يقول حسين.

«ايه والله. قال العرب خيانات قال؟ بارك الله فيه السيد. أصيل جمازي(8) أصيل».

وبينما يقوم ابن خليوي بواجب ضيافة القهوة يدخل أحد مواليه مسرعًا إلي الخيمة.

«يا شيخ يا شيخ أمسكنا دخيلًا علينا».

قفز حسين من مكانه خوفًا على ابنه، إلّا أن ابن خليوي طمأنه مذكِّرًا إيّاه أنه في ضيافته، فخاف حسين أن يُتهم بالمسابلة مع جيش الشريف، أو أنّ أحد رجال فخري باشا رآه خارجًا من المخيم. فلقد كان لفخري معلومات كافية عمّا يجري في المدينة وحولها. كان غالب باشا الشعلان، ومحمد عبد العال، من رجالاته. وهما من أصحاب النفوذ والصلات.

مع أن فخري لم يكن لديه جهاز استخبارات، لكن كان لديه الكثير من المخبرين تطوّعًا، أو تزلّفًا للوالي. حتى إن الشريف علي بن الحسين وأخاه فيصل اضطّرا إلى الانسراب ليلًا إلى العوالي خارج المدينة، وإلى مكة حتّى لا يراهما أحد. وكذلك يومئذٍ دخل الشيخ كامل القصاب، ومحب الدين الخطيب، بلباس البدو حتى لا يعرفهما أحد. وهكذا سيطر الخوف على كل من دخل إلى المدينة، وخرج منها.

استُنفر مخيم ابن خليوي، وتأهّب الرجال لاستقبال الدخلاء.

دخل الأغراب وكانوا جمعًا من رجال العصا والمشكلة، أي الفتوّة، لا رجال البندق والمدفع. وساروا باتجاه ابن خليوي. حتى إذا اقتربوا عرف محمد أحدهم. «أبوية أبوية هذا العمّ حذيفة النحاس»، يقول محمد لأبيه بانفعال.

وحذيفة النحاس كان رجلًا من أهل المدينة، يتذكّره محمد بلطفه وظرافته. عنده عربة كان يقودها حماران أسودان «فلفل وكمّون» هو سمّاهما. ويحمل على العربة ما يشتريه بعض الناس من الأرزّ والحنطة، وهو أي العمّ حذيفة، كان أمينًا على كل بيت، وأمينًا على كل ما يحمل.

يُسكت حسين ابنه، طالبًا منه ألّا ينبس بكلمة أو همسة، فالوضع لا يحتمل التأويل.

ثمّ اقترب زعيم العصابة، إنه آشرف بيك، ولد الكشي.

عرف ابن خليوي غرض ولد الكشي، وعرف ما هي مهمّته ومن حرّضه، فقد أراد أشرف بيك مهاجمة الشريف عبد الله بن الحسين خلسة في مخيمه، ولكنّ رجال ابن خليوي صادوه قبل إتمام المهمة. هنا قرر ابن خليوي في لحظة قائلًا: «جزاء الخونة الحساب. لو كان لي أمركم لأنزلت بكم العقاب، لكنّ أمركم اليوم عند ابن حسين الشريف عبد الله».

وخرج الحرس معهم ولد الكشي وحذيفة وغيرهم من المشكلجية يصلون إلى الشريف عبد الله.

وهكذا مَثَل الأسرى أمام الشريف عبد الله بن الحسين، فإذا به يرى حذيفة النحاس بينهم، لأنه يعرفه من العلاقة القديمة بينهما.

فقال الشريف: «حتى أنت يا حذيفة؟ تحاربنا؟»

انتفض حذيفة من مكانه ليقول: «يا سيدي أنت تعرف المثل، كلْ عيش النثراني واضرب بثيفه» لأنه كان ألثغ، يلثغ بالسين يجعلها ثاء. وبهذه الإجابة وعلى بساطته لا يدري أنه كان يشتم الشريف.

فالشريف عبد الله كان حليف الإنكليز، وهو صاحب الرسائل بينه وبين السير هنري مكماهون، الذي نفّذ وعد بلفور.

خاف محمد على العمّ حذيفة، وخشي أن ينال جزاءه، ولكنّ ضحكة فاقعة من الشريف بدّدت هذا الشعور، ليعفو الشريف عنه، ويُفرج عن حذيفة، وينال والد الكشي العقاب.

التتريك وحصار المدينة الأول

تحرّكُ العرب في الأقاليم العثمانية لم يكن صدفة، بل عملية تراكم من الأخطاء السياسية التي ارتكبها الباب العالي. ليس أولها الضوء الأخضر، الذي أرسله الحلفاء الجدد إلى العرب، بريطانيا وفرنسا. وليس آخرها سياسة التتريك، التي جهر بها الاتحاديون، ونشروا المدارس التي تعلّم اللغة التركية.

ولكن هي أيضًا سعي وبحث من العرب عن كيان يجمعهم على شكل هوية على أرضهم. كيان طال انتظاره. فوجد العرب أنفسهم يريدون الخلاص من التتريك، ثائرين على الخلافة العثمانية. وجدوا أنفسهم ثوارًا يعرفون حمل السلاح، ولا يعرفون تحوّلات السياسة الدولية وألاعيبها.

فإذا العرب باتوا فرقًا. قسّمتهم معاهدة سايكس بيكو، وهم في غفلة. غفلة لم يفيقوا منها إلّا عندما أُسقط القيصر في روسيا بضربة لينينية. لتضربهم الغفلة مرة ثانية بوعد بلفور لليهود. لتنتهي الدولة العثمانية بثورة مصطفى كمال أتاتورك. أتاتورك لم يسأل عن الطورانية خارج حدود الأناضول، بل كان همه أن تبقى تركيا الدولة في الأناضول. فغيّر القبلة السياسية للترك نحو الغرب. واستبدل بلغة القرآن الحروف اللاتينية الغربية. ثم خلع القلنسوة والعمامة ولبس الزي الأطلنطي.

ومع انتهاء عصر السلطان عبد الحميد، ذهب معه الولاء للخلافة. وعهد رشاد لم يعوّض عن الولاء الضائع، لأن الاتحاديين كانت السلطة بيدهم، وانشقّت الأقاليم العربية عليهم، الواحد تلو الآخر. فمصر الخديوية أصبحت سلطنة لا خديوية. في يوم 28 شباط/ فبراير 1922م/1340هـ يوم تصريح بريطانيا الشهير بإنهاء الحماية البريطانية على مصر معلنة أن مصر «دولة مستقلة ذات سيادة» والذي حوّل مصر من السلطنة الى المملكة . ولو أنها تحت الاحتلال الإنكليزي. أما الشام، من معان جنوبًا إلى أضنة والاسكندرون شمالًا، ومن رفح غربًا، حتى الجزيرة على الفرات شرقًا، فإقليم واحد، أقبل على ثورة الحسين بن علي في مكة.

والمدينة وأهلها عاشوا كل تلك التحوّلات، تحوّلات يتذكّرها محمد بالتفاصيل.

بدأت بوادر التحوّل تظهر في المدينة. وتحرّك فخري باشا كما جمال باشا والي دمشق. تحرّكا ضد كل معارض من العرب. فجمال علّق المشانق وفتح السجون للذين أنكروا أن الدولة العثمانية دولتهم. وقبِل فخري باشا أن يرحل

أهل المدينة عنها إلى الشام. هذا وجيش الأشراف يطبق الحصار على طيبة. بعدما أخذوا مكة المكرمة وجدة والطائف. وظلت رابغ بإمرة أميرها القبلي حسين بن مبيريك مع الترك. فابن مبيريك الزبيدي الحربي أعلن ولاءه للدولة العثمانية هو وبخيت بن بنيان أبو ناصر. ليُقتل بعدئذٍ في جرول في مكة. بعد زوال الأتراك، ويمسك أخوه إسماعيل بن مبيريك بالإمارة.

ليشتد الحصار على المدينة أكثر.

في أول الأمر لمّا وصل الشريف عبد الله بن الحسين وادي العيص شنّ حملة كبرى. وكان أخوه الشريف فيصل يلازم الساحل حتى وصل إلى ينبع النخل. فهاجمه فخري باشا بجيش جرّار وسلاح فتّاك، لينحصر الشريف فيصل بين خيف المبارك في ينبع النخل، التي احتلّها فخري باشا، وينبع البحر التي ما زالت في يد الدولة العثمانية، وحاكمها بشير السعداوي الليبي. حوصر فيصل ولم يستطع مواجهة فخري، ولم يقدر أيضًا على أن يقتحم ينبع البحر. هذا والأسطول البريطاني يُنتظر وصوله إلى الشاطئ.

إلا أنّ فيصل نجا ودخل ينبع البحر فاتحًا. وكان ذلك بمساعدة الشريف عبد الكريم بن بديوي، أحد أعيان الأشراف ذوي هجار العياشية. وكان لهم إمرة في جهينة، فجاء الشريف ابن بديوي بخيله خلف فخري باشا ليجعل الجيش التركي محصورًا بين ابن بديوي، وجيش ابن عمه، فيصل بن الحسين. فكلاهما ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. وذهب فخري يطارد جهينة حتى رجع إلى المدينة، وسار فيصل إلى ينبع البحر، ومدافع الأسطول الإنكليزي تحميه. ورجع فخري إلى المدينة لينحصر أكثر فأكثر.

وضاق الخناق على أهل المدينة.

عندئذ أعلن الاتحاديون خلع الحسين بن علي من إمارة مكّة المكرّمة، واستبدلوه بالشريف حيدر باشا آل غالب. وبذلك يكونون قد استبدلوا ذوي عون العبادلة بآل غالب من ذوي زيد، الذين كانوا في الأناضول، وبنوا لحيدر باشا سبيلًا في المناخة أمام مقرّ فخري باشا، إعلانًا لإمرة حيدر باشا. واستمرّ الحصار. وفرغت المدينة من أهلها، إلّا أن بعض الأهالي استطاع البقاء باستمالة فخري. فالشيخ الفا هاشم زعيم التكارنة، الذين كانوا في المدينة كثرًا، تقرّب من فخري ليصبح ناصحًا ومستشارًا. في مقابل عدم ترحيل جماعته. ولم يرحل منهم أحد، بل جنّدهم فخري في الجيش، ليصبحوا بعد جلاء الأتراك من حرس الشريف علي بن الحسين.

وخرج فخري باشا مع أكثر جنده وضباطه، لتدخل المدينة في حكم الشريف حسين بن علي، وينتهي الحصار معلنة قيام دولة الأشراف، ويبدأ عهد جديد.

خرج أكثر ضباط فخري من المدينة مع العهد الجديد. ومن هؤلاء الضباط من بقي من العرب، وبعض الترك كحسني العلي المقدسي وخليل هجانة وعبد المجيد اليافي الصيدلي. وضياء الدين بك التركي الصيدلي. ثم الطبيب المعروف محمد علي الطرابلسي الليبي، والضابط سالم أفندي الليبي، ومهدي بك معروف. ومهدي المعروف بذكائه فبدأ عسكريًا مع الجندرمة، ليصبح صيدليًا متعلمًا من الكبار.

وتألفّت في المدينة حكومة شريفية جديدة. في بادئ الأمر كان الحاكم شكري بك الأيوبي من أعيان دمشق، ومن أبرز القادة الثوار. إلّا أن الحال لم يعجبه، فرجع إلى الشام. ثم جاء بعده الشريف جميل باشا الراوي، الذي تولّى رئاسة الحكومة، أو الحكم العسكري بمساندة ابن عمه إبراهيم باشا الراوي. وكان معهم عزت بك شامي، وعبد القادر ديري، وقاسم ديري.

ليحكم بعده عبد المجيد باشا، القائد العسكري، الذي كان محط احترام وتقدير كبيرين من أهل البلد.

كلّ هذا والحاكم العسكري في المدينة كان يشاركه في السلطة أربعة حكام. كلّ له سلطانه. الديوان كان يرأسه أول الأمر حامد حمد اللّٰه، ورشيد أفندي، لينتهي إلى عبد اللّٰه عمير، الذي لم يحكم بل يراقب. والحاكم الثاني وكيل الإمارة الشريف أحمد بن منصور. وقد كان رجلًا طويلَ القامة، حليم العقل، وطيّب المعشر، ما مدّ يده بضرّ إلى أحد. يتذكّره محمد جيدًا، فكان رئيس ديوانه صديقه محمد حسين شويل.

المستر إحسان اللّٰه ضابط استخبارات

يمشي محمد بين البضائع، والروائح التي تفوح في المكان جديدة عليه. طعام متعفّن ملقى على الأرض. وأرزاق بالية مكدّسة معروضة للبيع، وبعض الفئران النافقة من التسمّم تحوم حول المكان. يمشي مع أبيه في ميناء ينبع. فبعد دخول المدينة عهد الشريف حسين، وسقوط دمشق بيد الشريف فيصل، بدأ الأهالي المرحّلون الرجوع بالبواخر إلى ينبع. وكان ذلك بمساعدة من الإنكليز وبتخطيط لورانس. وضجّ الميناء بالناس وبأحزانهم وأمراضهم.

فلقد انتشرت حمّى التيفوس في ينبع، ومات الكثير من الأهل والأصدقاء. من الأهل خسر محمد ثلاثة: زوجة أبيه الكبرى، والعزيزة على قلب أبيه بختية الأحمدي. وأخته الكبرى وعمّه الأصغر، وبعض الأعزّاء من أهل المدينة من أصحاب الجاه.

«لا حول ولا قوّة إلا بالله» يربّت حسين والد محمد كفيه. فقد هاله حال بعض أكابر أهل المدينة. الهجرة صعبة. والرجوع من الهجرة إلى الأرض بعد فقدان الامتيازات، أصعب.

يتذكّر محمد قصّة عودة الوجيه المديني السيد زين العابدين مدني من الشام، وكيف أغاثه الشريف ناصر بن علي بألف جنيه ليعود بكرامة، كما فعل عبد اللّٰه بن هويمل من شيوخ الحوازم، في وادي الصفراء عندما أعطى صديقه مصطفى قباني ألف جنيه أيضًا. ولكلٍّ منهم أسبابه، إلا أنها النخوة والإكبار من أهل المدينة بعضهم لبعض.

يمشي محمد مع أبيه ليتعلّم درسًا جديدًا في الحياة. يتعلّم أن الأيام دول.

قرر حسين الرجوع إلى المدينة مع ابنه وعائلته، عائلته الجديدة، وبدء حياة جديدة. وعقدَ العزم على الرحيل. رحيل العشيرة من ينبع. حسين وعائلته التي تقلّصت بالعدد، والفضلون خال محمد ومن معه من نسائه وأطفاله. وبعد مكوثهم في فصلي الصيف والربيع، قرر الجميع الانتقال في الخريف.

خلال فترة المكوث في ينبع التحق محمد بكتّاب الموشي، وتعرّف على أصدقاء جدد. وأراد أن يودّعهم فاستأذن محمد من أبيه أن يذهب مع خاله محمد الفضلون ليودّع أحد الأصدقاء قبل الرحيل. فأذِن له، لكن بتحذير صريح.

«انتبه. هناك حالات خطف. خليك بجانب خالك»، ليصل التحذير إلى الخال «يا محمد انتبه على ولد أختك. خسرت الكثير». يومها انعدم الأمن.

يتوجّه محمد والخال صوب السوق. يريد الذهاب إلى هناك لعلّه يلقى صديقه في دكان أبيه. يتحرّك بعيدًا من الميناء مشيًا مع خاله وعينا أبيه حسين تراقبانه من بعيد. يدلف الاثنان من قرب ناصية ليصبح أمامهما السوق. تختلف الرائحة هنا. تفوح رائحة البهارات المنبعثة من الهند وبلاد فارس. وتزركش الدكاكين بألوان الأقمشة المترامية حول المكان. من فوقهم ومن تحتهم وحولهم. الأصفر قرب الأحمر، ثم الأخضر والأسود من دون تنسيق. والتجّار، منهم من يجلس أمام الدكان يراقب المارّة، ومنهم من أجلس ابنه يراقب الحركة والتجارة.

وحالما وصل محمد إلى دكّان صديقه إذا بخاله يصيح مهلّلًا.

«هلا هلا هلا، يا أهلًا وسهلًا، ما توقعت أشوفكم أبدًا أبدًا» يصيح الخال فرحًا وهو يعانق صديقيه، الشابين أسعد طرابزوني وإبراهيم شاكر. العناق حار ومتبادل بين الثلاثة.

لم يقابلهما الخال منذ ترحيلهما إلى الشام. ليرجعا مع غيرهما إلى ينبع. ومحمد يبادرهما بالسلام فهو يعرفهما أيضًا.

في منتصف السوق وقف الأربعة يتبادلون السلام والكلام. والناس بينهم يمرّون بلا مبالاة. وعند مرور الحنطور، وصاحبه بائع التمور، يصيح غاضبًا لكي يتنحّوا ويبتعدوا عن الطريق، ليقفوا في زاوية من السوق، قلّ فيها النّاس وحركتهم. يتّكئ محمد على الحائط خلفه هو وأسعد طرابزوني. ويقابلهما الخال وإبراهيم شاكر.

يشرح الاثنان الآتيان من دمشق مشقّة التجربة والترحيل، يشكوان من ضياع الأهل والمال. والأسوأ أنه في خلال أيام كان حتى الأمل ضائعًا. يصفان الفوضى التي واجهاها في الشام. صحيح أخذها الشريف فيصل، إلا أن العرب لم يُحسنوا الإدارة المدنية، وشرحا كيف تنازع العرب الصلاحيات.

ثم يقطع الخال محمد الكلام سائلًا عن بعض الأهل والأصدقاء، وإن كانا قد صادفاهم أو رأيا أحدهم. ليأتي الجواب «اللّه يعين الجميع، كبارًا وصغارًا» ، لينتهي سيل الأسئلة بالدعاء لهم.

تنهمر دمعة من عين أسعد، ليلتقط الإشارة رفيقه وصديقه إبراهيم، محاولًا تلطيف الأجواء سائلًا: «هل تتذكّرون إحسان اللّه، البوّاب؟»

«نعم أتذكّره» يجيب محمد، وقد تملّكه الفضول «أتذكّره جيدًا، هو من مسلمي الهند، وكان بوّابًا على باب النساء، أحد أبواب المسجد النبوي».

ليقول الخال «أذكره جيدًا، حتّى إنني أذكر أنه كانت له علاقة قربى مع عبد الحق النقشبندي، وعبد الحميد عنبر، أعرف الرجل».

ليضيف محمد: «إيش صار فيه. ما عدنا شفناه، وهو قديم في المدينة، فوق الثمانية عشر عامًا يعمل في الحرم».

هنا يمسح أسعد طرابزوني دمعته، وتنشرح عيناه بابتسامة خفيّة «بوّاب هه، بوّاب!» ثم يعدّل من وقفته غير متكئ على الحائط ويقول «أنا شفت الرجل في دمشق، شفته مع المرشال الإنكليزي اللنبي داخلًا دمشق».

«شفت البوّاب إحسان ما غيره؟» متسائلًا ومندهشًا في الوقت عينه، محمد.

«نعم هو. أنا شفته، هو البواب إحسان اللّه، ضابط كبير مع اللنبي. ضابط استخبارات مع الإنكليز» وبكل تأكيد وجزم يوافقه الرأي إبراهيم شاكر.

«طيّب كيف ما مسكوه الأتراك أو ما عرف فخري باشا؟» يسأل محمد.

«غفلة. ليش فخري كان عارف مين في البلد؟» يجيب الخال.

«أصلًا إحسان اللّه كان رجلًا باطنيًا. كان يهتّم بالناس الذين يحملون الجنسية البريطانية ويرعاهم، هل تتذكّرون؟». يجيب إبراهيم شاكر، منهيًا النقاش.

لم تغادر المعلومة ذهن محمد، بل ظلّت عالقة فيه، ولم تظهر على السطح مرةً ثانية إلّا بعد مدة طويلة، وتحديدًا حين شبّ محمد وأراد السفر إلى الهند، التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار البريطاني. فقد عزم على زيارة درّة التاج البريطانيّ هو وصديقه محمود شويل، والحصول على التأشيرة كان سهلًا بالنسبة إلى محمد وصديقه، وذلك بتوصية من الشيخ محمد حسين عمر نصيف. وقد كان المضياف لمحمد وصديقه، حيث أمضيا ليلتهما في منزله.

وفي أواخر جُمادى الآخرة عام ألف وثلاثمئة واثنين وخمسين حصل محمد وصديقه على تأشيرتي الدخول إلى الهند من القنصلية البريطانية في مدينة جدة. وقد كان يعمل فيها المستر إحسان اللّه البّواب. فقد رجع من الشام إلى جدة في آخر عهد الأشراف، وبقي فيها حتّى أوائل العهد السعودي. وكان عمله في القنصلية فعالًا. فقد كان يعرف كل شيء عن المطوّفين والأدلّاء. كأنما هو الرقيب عليهم. إضافة إلى ذلك، معرفة المستر إحسان اللّه تحديدًا بمحمود شويل من المدينة، الذي كان تلميذًا للشيخ فالح الظاهري، كما أنه يعرف عن محمود شويل صلته بالخديوي عباس.

وقد انكشف كل ذلك حين صعد المسافران على متن الباخرة علوي من ميناء عدن. وقف محمد وصديقه أمام ضابط الجوازات الذي كان ينادي بصوت جهوريّ. وجلس إلى المكتب والبذلة الإنكليزية الكاكية اللون الشهيرة يعتريها العرق وعلامات الزمن. حتى إن لونها عند الأطراف كان يميل الى الاخضرار.

اقترب محمد وصديقه من الضابط وهما يحملان جوازي سفرهما. ثم وقف الضابط ليعدّل من مقعده. رجل ربعة أقرب إلى القِصر وإلى السمنة. شعره شديد الحمرة برتقاليّ اللون. لعله صبغه بالحنّاء أو مولد (خلاسي(، يعني أن الأب عدني والأم إنكليزية يقول محمد في نفسه. ثم جلس مرة أخرى إلى مكتبه.

هنا اكفهرّ وجه الضابط واستغلظ في السؤال قائلًا، وهو يتصفّح الأوراق التي قدّمها صديق محمد: «محمود شويل؟»

«نعم»، يجيب محمود، وعلامات الاستياء بدت تظهر على حركة جسمه. فصديق محمد سريع المبادرة، غضوب.

«من ساعة ما ركبتوا الباخرة وعندنا خبر عنكم» يقول الضابط.

استدرك الأمر محمد ممسكًا بيد صديقه كي لا يجيب. وتوجّه محمد مقتربًا أكثر إلى الضابط مميلًا جسمه من فوق المكتب ليقول: «يسرّنا ذلك لأن رقابتكم نوع من الحراسة لنا أو الحماية. فحيثما نذهب نجد هذه الرقابة، ليست تهديداً، بل هي من حرصكم».

كاد الضابط يبتسم لولا خشيته من انحسار الهيبة. ليهزّ رأسه وهو يختم الجوازات: «سنسمع سنسمع».

تسلّم محمد الجوازين من الضابط، وصديقه يتبرّم هازًا برأسه يمينًا ويسارًا. وصعد المسافرون الباخرة. والمستر إحسان اللّٰه يجلس في القنصلية مخبرًا عن أهل البلد. ولعله لم يكن الوحيد في هذا الشأن، كما يتذكّر محمد. فأول قنصل لفرنسا في جدة في العهد العثماني الأخير كان ذلك الضابط الشاب كاترو، الذي أصبح الجنرال كاترو، من عناصر المقاومة لاحتلال النازيين، ومن شيعة الجنرال ديغول. وقد احتل الفرنسيون الشام في الحرب العالمية الثانية، حين هُزم النازيون، ليغدو القنصل جنرالًا ومحتلًا.

اختلطت الأمور. لكن العائلة قررت الرجوع إلى المدينة التي لا يعرفونها في عهدها الجديد. العهد الذي أصبح كبيرها صغيرها. وحراميها حاميها. وانفلات أمني فاضح، فالأمن أصبح سلعة لا تقدر بثمن.

(عن الأمن المفقود)

لم يكن هناك أمن، إلّا الأمن الذاتيّ. سلاحك بيد، وحليفك باليد الثانية. انفلات إلى أقصى حدوده. الحاكم لا يتصرّف. والتركيّ مشغول بمناورات أعدائه، بينما الأهالي في دوامة العنف يعيشون. حوادث سرقة وجرائم قتل. ففي يوم واحد قتل ثلاثة كأنهم لا شيء.

ففي ضحى يوم جميل، وبعد أن استقرت العائلة يخرج محمد من دكان أبيه متوجّهًا نحو مقهى محمود تحت بيت عائلة البري المدينية. أراد أن يستغلّ فترة الهدوء في المحلّ ليقابل بعض الأصدقاء. يتحدثون في أمور بلدهم ويناقشون الأوضاع السياسية ولا يخلو الحديث من بعض كلام المراهقين الحالم. يجلسون لبعض وكأنهم في جزيرة من حوار معزولة يحيطها واقع كالمحيط الهائج.

يسير وحده متجهًا إلى المقهى وكله حرص على ألّا يخطئ ويعرّض نفسه للنشل أو الخطفِ. رائحةُ انعدام الأمن تفوح من الطرقات. تعلّم محمد من أبيه الحرص، وهو لا يغيب عن باله، بيتهم، الذي بناه الأب في بلادهم (المزرعة) في القاضية، وكيف أنه لم يبنِ درجًا للسطوح، بل سلّمًا يستخدمونه للصعود وقت النوم، ثم يسحب الأب السلم معه ليرقد معهم حتى لا يرقى إليهم أحد في الليل. ينام الأب وبندقيته إلى جانبه. وإذا سمع خشخشة يطلق رصاصة حول هذا المخشخش ليهرب، أو يئن. وتلك قصة أخرى.

يقف محمد برهة، محاولًا إقناع نفسه بسلوك أي طريق. خارطة المدينة مرسومة في ذهنه. فهو كان يفاخر بأنه عاش مع الناس، وفي الشارع. المهم أنه اختار المرور من خلال سوق المناخة، وفيها ساحة واسعة يختلط في نواحيها كلّ ذي حاجة، البائع والشاري والباحث عن عمل ما. يعني أنها مكان آمن للعبور فيه.

وساحة المناخة تقع غربي المسجد النبوي، تحدّها من الشمال ثنية الوداع (الشامية). إلى قربان في الجنوب. كان هناك التزام ألا يقام بناء في سوق المناخة، لأن أهل البلد يقولون إن عمر بن الخطاب (رضي اللّه عنه) جعلها وقفًا، مانعًا البناء عليها. حتى سوق الحبابة والتمارة كانت مبنيّة من «العشش» والصناديق، وبقيت هكذا.

وبينما هو يمشي سمع ضجيجًا في إحدى زوايا السوق. يعلو الصوت كلما اقترب منه. قد يكون شجارًا بين تاجرين، أو ديانة. هكذا ظنّ محمد. فالجوّ

العامّ للسوق كان النقيض لجوّ المكتبات اليوم، لا مكانَ للهدوء، ولكن فجأة ساد الصمت في الساحة. لا بدّ أن هناك شيئًا يحدث. هذا السكون غريب جدًا عن العادة. اقترب أكثر ففوجئ بما رأى. مندهشًا وقف محمد أمام منظر لم يكن يتوقعه.

هذا ابن سمرة، من شيوخ قبيلة بني رشيد، ملقى على الأرض ومغطّى بدمائه. والقاتل فوقه يقف منتصبًا وشاهرًا سلاحه بدون وجل أو خوف. والشمس في عز النهار تضيء على مسرح الجريمة حيث لا مجال لإخفائها. والناس حول الحدث يتفرجون.

لم يحاول أحد حتّى الإمساك بالمجرم، وهو يبتعد بكل ثقة عن موقع جريمته، يمشي واثقًا غير أبه. لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا ولا يعنيه إن عاينه أحد. يمشي حرًا طليقًا بيديه الملطخة بالدم.

لم يجفل محمد، هذه ليست المرة الأولى التي يشاهد فيها رجلًا ميّتًا. للوهلة الأولى، لم يدرِ لماذا لاحت أمامه صورة من الماضي. صورة ذلك الرجل الأبيض البشرة بشعره الأصفر والعينين الزرقاوين. صورة رأس الضابط الإنكليزيّ الكابتن وليام شيكسبير، معلّقًا على سور المدينة وهو الذي قُتل في معركة جراب، التي جرت عام ألف وتسعمئة وخمسة عشر بين قوات ابن سعود عبد العزيز وقوات ابن رشيد سعود.

وظلّ ابن سمرة ساعات لا يحمله أحد من الطريق. دبّت الحركة في السوق مرة أخرى، وواصل الناس قضاء حوائجهم. يمر الناس بين الجثة الملقاة غير آبهين. والحاكم والمسؤول في غياب. كأنه لا» من شاف ولا من يدري».

وصل محمد إلى مقهى محمود، وبدأ يسرد ما رأى في السوق قبل السلام، ثم قاطعهم صبي بتقديم أكواب الشاهي إليهم. يلبس ثوبًا باليًا وعلى رأسه طاقية لا تقل قدمًا عن ثوبه ، معلقًا منشفة على كتفه يستخدمها لمسح الطاولات. يعرف محمدًا وأصحابه. وبعد تقديم طلبهم الذي لم يطلبه يهرول مسرعًا الى معلمه الذي ناداه بصوت عال. فالمعلم يعرف أن الصبي قد يتأخر عن العمل ليسمع آخر أخبار الشباب.

تلقّى الشباب مشروبهم وانتقلوا في الحديث بعدئذٍ إلى شؤون الشباب والحياة، منهمكين بسرد نوادر وقصص. الأكثر ظرفًا بينها قصص الحب من طرف واحد، وعن بُعد. فصديقه راح يصف محبوبته، رآها بالصدفة صباح اليوم وهو يسلّم الأمانة من أمه لأمها، كل التفاصيل حاضرة. الفستان والملاءة وألوانها. وشكل ابتسامتها وكيف ذبلت عيونها عندما رآها وذهل هو

من جمالها. كل ذلك يصفه الصديق للقاء لم يكن أكثر من ثانية واحدة. لكن أحلام الشباب تجعل المبالغات واقعًا.

فجأةً يقطع الحديث رجل يدخل إلى المقهى مسرعًا، محاولًا الهروب من ثلاثة رجال. حاول الرجل الاحتماء بين الكراسي والطاولة. ثم قفز الرجال الثلاثة من فوق الحاجز وهجموا عليه، مقطّعين إيّاه بسكاكينهم. والدماء تتناثر على أرضية المحل والطاولات بينما الضحية تصرخ من الألم طالبة المساعدة. والناس في المقهى جالسون لا يتحرّكون. تذكّر محمد كلام أبيه: «لا تعمل بطل، فأنت أغلى ما عندي».

انفضّ كلّ من في المقهى. مسرعين غادر الجميع محمد والأصدقاء. وصاحب المقهى حزين وغاضب في الوقت نفسه. يعرف كتاجر أنّ الأمن المفقود يتعارض مع مصلحته. وأن هذه الجريمة ستصم مقهاه وتبعد الزبائن عنه. متحسرًا على ما يحصل إلا أنه يفضل التستر خلف الباب. وخسارة التجارة أهون من خسارة حياته.

يمشي محمد وكتفاه تحملان أفكارًا ثقيلة مرهِقة خارج المقهى. خائفًا ومسترجعًا صور الجريمة في ذهنه. يمشي باتجاه بيته حزينًا. والناس في الطريق تتحسب كل حركة وتتهيب من كل صوت.

يدخل محمد البيت ويسلّم على الأهل. على زوجة أبيه رقية الأحمدي وأختيه. ثمّ تبادر أخته عائشة بالتحدّث وبسرعة وتقول: «سمعت أيش صار اليوم؟».

«أيوه شفت، ما سمعت» يجيب.

«أنت كنت في حوش درج! قتلوا محمدي (من ولد محمد من بني سالم من حرب) هناك، والمجرم مشي من غير ما يتمسّك» تقول أخته وهي المندهشة من أخيها.

«لا لم أكن هناك، من قتل في حوش درج؟» يسأل محمد. ثم يدخل الوالد حسين وعلامات الوجوم على وجهه. يشكر ربه أن ابنه ما زال بينهم ومعه. وهكذا في يوم واحد ثلاث جرائم قتل في وضح النهار بلا رقيب ولا حسيب. والأمن المفقود لم يكن يومًا بعيد المنال مثل هذا اليوم.

كثيرة هي القصص التي يذكرها محمد عن انعدام الأمن، تحديدًا خلال الفترة الممتدّة بين سقوط الدولة العثمانية وقيام العهد الشريفي. حكايات حاز فيها

البعض النصر والنجاة. وأخرى لم يُكتب لها أن تُحكى بسبب الفشل والموت. هي أكثر من قصص لمحمد. هي محطات في مسار تاريخ مدينة أحبّها بأيامها الحلوة والمرّة. أيام طُبعت في وجدانه ليتلوها تاريخًا. جولات كان شاهدًا عليها.

كان حسين، والد محمد، يعمل في التجارة. يشتري ويبيع بربح كأي رجل أعمال بمقياس ذاك الزمن. فالمدينة سوق كبير. حمل حسين بضاعته من ينبع البحر متوجّهًا إلى الفريش، يمكث فيها أيامًا معدودة ليعود بعدئذٍ إلى أهله.

البضاعة كانت بقيمة ألف جنيه ذهبًا، لم تكن كلها ملكه، كان الثلث ملكًا لحسن موسى، والثلث الآخر لسليمان الناقور. وكلاهما مكّيّ. وفي آخر أيامه باع البضاعة بأكملها، ليصبح مستعدًا للذهاب إلى عائلته في ينبع النخل يلحق بهم هناك بعد خروجهم من المدينة.

يركب حسين ناقته متوجهًا للأهل. يسلك طريقًا يعرفه جيدًا لكن غياب الأمن جعله في حالة تأهب مستمرة. يتفحص دربه، ويراقب سرعة حركته، وينصت لكل خشخشة وصوت. كل هذا ويده اليمنى تتأبط بندقيته أبو إصبع. والسلاح معمر وجاهز للاستخدام في ثوان. ثوان ثمينة عند حاجته للدفاع عن نفسه في وجه الخطر وقطّاعين الطرق واللصوص. وفي خلال سلوكه الدرب يجد في البعد رجلًا، مؤشرًا ومحييًا عن بعد وكأنه يعرف حسينًا.

«سلام يا حسين، أخبارك؟»، وقف جربوع في منتصف الطريق محيّيًا أبا محمد.

«أهلًا يا جربوع»، مجيبًا حسين، فهو يعرفه ويعرف طباعه جيدًا. والحذر يتملك حواس حسين في أقصى درجات الاستعداد بعد ظهور رجل آخر خلسة من خلف جربوع.

مع تغربل الطرق وضياع الأمن، أو ضياع الطاسة على حدّ قول المثل الحديث. اختلطت الأحداث ومع انسحاب الحاميات التركيةِ أصبح كل طريق مؤدٍ إلى المدينة يتحكّم فيه قُطّاع طرق ولصوص ينهبون الضعفاء، والقويّ لا يسرقونه لأنّ لديه ظهرًا أو حماية.

وقد اتّخذ جربوع، وهو من عبيد بني علي، أهل العوالي، وصديقه العليبي الطريق بين المدينة والعوالي، مكانًا لهما للسرقة.

التفت جربوع إلى حسين وعلامات الاحتيال تفيض من وجهه قائلًا «حسن أبو تيج غاضب منك، وهو مسجون عند منديل، عبد الشريف علي بن الحسين، قائد الخيل». استدرك حسين الحيلة فورًا.

«خيرًا إن شاء الله، ليش زعلان»، يجيب حسين متحسِّسًا سيفه.

«والله هو يقول، حسين بن زيدان العقيصي ما زارني ولا سأل عني»، بكل ما أُوتي من نصب وكذب، يقول جربوع.

عرف حسين المكيدة، أو فلنقل شمّ رائحة الاحتيال والنصب من حركات جسد جربوع وزميله العليبي، وعرف أيضًا أنه إذا وصل معهما إلى المخيم أمسكوا به هناك وسرقوا ماله. ثم يُترك ليُسجن بتهمة أنه يسابل إلى المدينة، معينًا لفخري باشا، والي المدينة التركي.

تذكّر حسين أيضًا كيف سُلب مصطفى عزوز مرتين. وكيف قُتل حسن أبو عوف، أخو محمد سعيد أبو عوف، بالرّغم من صلتهما بأمير رابغ حسين بن مبيريك.

فطن حسين للمكيدة أو المؤامرة حينها. ترجل من ناقته ويده على البندقية. أخذ خطوتين باتجاه جربوع مقتربًا يريد مصافحته وطمأنته بأن المكيدة نجحت. بادر جربوع برد السلام فرحًا بابتسامة تشق طريقها من طرف فمه كاشفة عن أسنانه السوداء اللون. فيقول حسين: «يا جربوع تدري عن حسن وما تقول لي؟ هيا اسبقني أخذ معايا راس نيفة وعيش وبصل أتغدّى أنا وحسن هناك».

فرح جربوع بالصيد الثمين وذهب.

لم يتريّث حسين، حرّك ماكينات عقله لتعمل يده، كما كان يفعل دائمًا.

بقيت عنده ستة أكياس شاهي وأراد بيعها للتخفيف من حمله. وذهب عند عابدين بغدادي وخليل بصاص عارضًا بيعهما إيّاها. كانت قيمة الأوقية اثنين وثلاثين قرشًا. باعهما إيّاها بثمانية وعشرين وقبض الثمن ذهبًا.

ربط الذهب حول بطنه وظهره، ثم ذهب إلى خيمته يلبس عباءته وسيفه. وشق الخيمة من الخلف ليطمئنّ جربوع. تاركًا بابها مفتوحًا والميزان كذلك. هكذا لن يشك في أنه ذهب بعيدًا.

اختفى حسين بين النخيل. يتحيّن الفرصة، يراقب عن بُعد ومن الخلف وفي كل اتجاه. إصبعه على زناد بندقيته يراقب. استلقى قليلًا على ظهره. أغمض عينيه يريد تهدئة أعصابه. وطفق يحلم بعائلته. ثوانٍ بعدها انتفض من مكانه على صوت. تأهب ماسحًا الرمل عن جفونه بكمّه ومراقبًا.

ظهر في البعيد جمّال، يمشي ويقترب.

عندئذٍ قفز أمامه قائلًا «أنا في وجهك يا ابن أخي، تراني دخيلًا وضربت مكّيًا وأخاف من منديل».

شهر البدوي بندقيته وقال «أنا ماني ذاهب إلى ينبع، سأمر على الديرة، أجلس عند المعزّبة ثلاثة أيام».

«هذا ما كنت أبغاه، صرت دخيلًا وضيفًا» يجيب حسين.

وانحدر البدوي إلى شعب من شعاب وادي سجسج بعد الصدارة.

جلس حسين ثلاثة أيام في ضيافة البدوي. ضيافة عربية حربية أصيلة. خبز وتمر وعسل ولبن. والبدوي من الرحلة من بني سالم من قبيلة حرب.

ليرحل بعدها إلى ينبع.

تيقّن حسين أن جربوعًا وزميله قد لحقا به إلى ينبع ليمسكا به في الطريق. وقلق على مصير عائلته. فذهب مباشرة إلى بيت الشريف معلا وهو من أشراف ينبع ذوي هجار. يلتقون وعائلة عنقاوي أشراف قنا في الصعيد بجدّهم وبير. وكلاهما من أحفاد موسى الجون بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب.

دخل على الشريف وهو يعرفه. يجلس معلا في صدر المجلس وحوله أبناؤه الشباب والأطفال. يكسو وجهه الفخر والاعتزاز والمشيخة. حكى حسين له قصته ومكيدة جربوع. طالبًا الحماية منهما. انتفض معلا من مكانه شامخًا بيده على رأسه قائلًا: «بلّغ جربوع ومحمد شربه العليبي أنك في وجه معلا. واسحب سيفك إذا ما قاما راحلين. قطّعهما وأنا وراك». قالها معلا وأبناؤه يهزون برؤوسهم موافقين وداعمين لكلمة أبيهم. شكر حسين معلا على ضيافته وحمايته الأصيلة واصفًا إياه بابن النسب والحسب من صفاتهم الحق ونصرته.

انطلق حسين يريد النصابين. مازالت بندقيته بيده لكنه يحمل سلاحًا أمضى وأفتك بالعرف والعادات. وصل حسين إلى المقهى، حيث فيه اللصان. يتقدّم خطوة خطوة ويده اليمنى تحت إبطه الأيسر ممسكًا ببندقيته. وسيفه معلّق على كتفيه. يدخل كالمارد. فقد كان طويل القامة عريض الكتفين واسع الكفّين.

وقف أمامهما وهما في حالة ذهول من جرأته. ينظر إليهما مباشرة بدون وجل يصدح بأعلى صوته: «أنا في وجه معلا قوما، ووالله إذا ما ركبتما خيلكما ورجعتما إلى الفريش قطعتكما. ماني راجع للفريش، سوف أبيع وأشتري في وادي العيص في جيش عبد الله بن الحسين»، وسحب بندقيته في وجهيهما.

تراجع جربوع وزميله خوفًا من القطع من دون حساب.

ورجع حسين إلى أهله سالمًا غانمًا. ينتظره ابنه محمد وإخوته.

استمرّت الفتن، وكل يوم تجري حادثة نهب وسلب. حتى السور لم يمنع الظلم عن أهله، بل استغله الحاكم. والحاكم، أو الباشا، كما كان يناديه أهل المدينة، أصبح من دون سلطان.

حسنًا الباشا باشا في المدينة. له كل أشكال الاحترام والتقدير، لكنه لا يمارس سلطانه لحفظ الأمن. وصحّ المثل الشاميّ «افتكرنا الباشا باشا طلع الباشا زلمي». وكم من حادثة لم يُقم الباشا العقاب على الجاني. فهو رمز أكثر منه صاحب سلطة.

يتذكّر محمد أن كل باشا، سواء كان عثمانيًا أم مصريًا لا يتحرك إلا ونفوذ السيد أحمد أسعد أمامه. فالسيد، صاحب حظوة عند السلطان عبد الحميد.

والسيد أحمد أسعد لم يكن أول الرجال عند السلطان عبد الحميد فقط، بل كان أكثرهم نفوذًا وفاعلية أيضًا. واتّسعت دائرة نفوذ السيد أحمد أسعد خارج أسوار المدينة، لتصل إلى جدّة ومكّة. الشريف عون، شريف مكّة، كان معه، وعمر نصيف في جدّة كان أيضًا له، حتى إنه يقال إن نفوذه قد استحوذ على الخديوي إسماعيل في مصر.

يومئذٍ ضجّت المدينة بخبر خادم قتل سيده. قتل كل الأسرة، الأب والأم والأطفال. كانت الجريمة مجزرة ومن داخل البيت، ما زاد من منسوب الخوف في كل عائلة، وفي كل بيت يقطنه خدم. سكن الرعب في قلوب الأهالي.

بحث الأهالي عن الجاني، لكنه استطاع الهرب. خرج خلسة في الليل، وإلى خارج المدينة وفي بيت الزيدان جلس حسين وزوجته والأولاد حولهم يتسامرون. وحديث الجلسة الجريمة. فما من كلام أو خبر عم المدينة كتلك المجزرة المخيفة.

يجلس حسين متكئًا على سنادة وركبته اليمنى تقف عالية بينما رجله اليسرى تتخفى تحته. كان حسين رجلًا طويلًا يحمل ساقاه النحيلان جسده النحيل، فلا شحم غليظ يغطي ساقيه. بجانبه تجلس زوجته تحرص على تلبية طلبات حسين بسرعة. جلس أمامهما محمد وأخته في شبه دائرة. تحت سماء المدينة في سطوح البيت وعلى ضوء الشفق الأحمر عند الغروب. حيث الهواء الربيعي العليل يمرح مرطبًا الخوف في داخل البيت.

«سمعت خبر يا حسين عن المجرم إذا مسكوه»، تسأل بختية زوجة حسين، وهي تسكب الشاي في كأس من إبريق نحاسي مخصص للشاي فقط.

«لا والله بس بإذن الله يمسكونه هذا المجرم، تخيّلي حتى الأطفال ما وفّرهم» يجيب حسين، قبل أن يرتشف رشفة من كوب الشاي الأحمر، والمغليّ بنعناع المدينة أو الحبق.

«أبوية تتوقّع يلاقونه، سمعت من محمد أخوية أنه هرب برّه»، تسأل عائشة وهي تجلس إلى جانب أخيها محمد. تخاف هي المقبلة على الزواج، وقد طلبها من سيكون زوجها المستقبلي. الشاب أحمد الحربي.

«لا تخافي يا بنتي، يمسكونه وانتي لا تخافي على نفسك، زوجك رجل، وعنده جماعة تحميه»، هكذا يرسم الأب شبكة الأمان لابنته في المستقبل. لا دولة، ولا قضاء، الحمولة هي خط الدفاع الأول.

تبدأ الشمس بالغروب ليصدح صوت المؤذّن، إنه أذان المغرب يرفعه أحد الشباب. يتسلّق المسجد ويؤذّن ،لا يهمّ الصوت، المهم الإعلان. فالصوت الجميل كان في المسجد النبوي.

يستدرك الجميع ليعدّلوا جلستهم. إجلالًا للأذان. وترفع الزوجة يدها بالدعاء «يا رب هدّئ خاطر آل كماخي، واقتصّ من المجرم».

آمين، يردّد الكل. ثم يقوم حسين معلنًا انقضاء الجلسة ونزوله عن السطح إلى غرفته. تقف عندها الزوجة بسرعة لتلحقه. ومحمد مع أخته يكملان

نقاشهما وحديثهما. ضحك ولعب وقليل من الترتيب قبل عزل السطوح استعدادًا للنوم.

في صباح اليوم التالي تستيقظ الزوجة بزغاريد تعمّ المكان. تخرج مسرعة من فراشها باحثة عن السبب، لتجد أمامها ابنتها، وكل تفاصيل وجهها مبتسمة «أمي، أمي الله استجاب، أمسكوا المجرم أمسكوا المجرم».

«يا ربّ لك الحمد»، تقول بتنهّد لتركض مسرعة إلى غرفتها ميقظة زوجها بلهفة. وعائشة تلحقها بلهفة مماثلة. يقتحمان غرفة النوم. وكان حسين مستيقظًا يقوم بتجهيز نفسه قبل الخروج من المنزل لدكانه. يلبس ثوبه ويتحزم بسلاحه. فلقد استبدل كل مظاهر الترف في اللباس بالأسلحة.

«حسين سمعت الخبر؟» تسأل الزوجة. يلتفت حسين إلى زوجته غير مبالٍ بالخبر. وسط استغراب الزوجة والابنة. لقد سبق كل البيت حسين وابنه. استيقظا من النوم لصلاة الفجر وخرجا إلى مدخل الحارة مع باقي الشباب خوفًا من دخول الجاني إلى بيتهم. لم يخافوا منه، بل خافوا إذا ما دخل أن يتحول من مجرم إلى أجير. عندئذٍ يصبحون في أزمة. فهم لا يستطيعون تسليم دخيل أو أجير. العرف هنا أقوى من القانون.

وسلطة القضاء في المدينة، أي المحاكم الشرعية، ظلّت عن طريق الوراثة القديمة بيد ذوي حسين الجمازيّين، الذين عاشوا دهرًا طويلًا، ظلّت هذه المحاكم وقضاؤها على فقه الإمامية، على الفقه الشيعيّ، نسبة إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو المؤسّس لهذا الباب الفقهي. وعندما اضمحلّ سلطان الأشراف الجمازيين ونزحوا إلى خارج المدينة، حانت الفرصة لسلطان القوة التي يملكها ابن فرحون (تولّى القضاء في المدينة من العام سبعمئة وثلاثة وتسعين هجرية) لإلغاء القضاء الشيعي، وأصبحت المحاكم على فقه المذاهب السنية الأربعة. الحنفيّ في الأكثر تبعًا للسلطان. وأحيانًا الشافعي والمالكي على نحو أقل، والفقه الحنبلي نادرًا.

«أيوه سمعنا صباح اليوم. الشيخ أحمد كماخي أصر على بصري باشا كي يجري التفتيش عن المجرم. المغدورون من جماعته، وهو من كبار قضاة المدينة، ما يعني أن الوالي لا يستطيع أن يرد طلبًا لبيت الكماخي»، يقول حسين.

«كيف؟ ووين أمسكوا بالمجرم»، تسأل عائشة بحماس وهي تساعد أباها في ارتداء ثيابه.

«فتّشوا عليه داخل المدينة فلم يجدوه، لأنه ركب رجله وهرب. عثروا عليه في رابغ. وأمسك به حسين بن مبيريك» يجيب حسين ليكمل: «لا تنسين الأغراض التي أريد أخذها للدكان وحضري الفطور أبغى أمشي بسرعة».

كان حسين بن مبيريك الزبيديّ المسروحيّ الحربيّ، أمير رابغ، على وئام مع الدولة العثمانية وقتذاك، لا يدخل طرفًا في الصراعات الدائرة على أرض نجد ولا فيما يحصل في مكة. يبني علاقة متينة مع السلطنة العثمانية في تبادل للمنافع. وعندما علم بوجود المجرم سلّمه إلى الوالي بحسب الاتفاق بينهما.

تناول حسين طعام الإفطار مع زوجته، خمس حبات تمر، وكأس لبن مضير. ثمّ همّ بالخروج ومعه ابنه محمد لمتابعة حدث اليوم. خرجوا يقصدون الدكان. وقرر حسين المرور من سوق المناخة لمتابعة آخر الأحداث عن الجاني. فالسوق بمثابة التلفاز الذي يعرض نشرة الأخبار اليوم. يتبادل الناس الشراء والأخبار.

وعند وصولهم إلى المناخة سمع حسين وابنه محمد غلبة وصياحًا. أصوات الناس تعلو مع كل خطوة. وما إن اقتربا من الصوت في منتصف الساحة وجدا تجمهر الناس من أهل المدينة في حلقة واسعة، وكان القاتل في وسطها.

عرف حسين على الفور ما يجري. هي عملية قصاص. حاول إبعاد ابنه محمد من المشاهدة خوفًا عليه من المنظر، لكن نجح محمد بمتابعة المشهد من بين رجلي أبيه. يسترق النظر مراقبًا الحضور. يحاول قراءة المشاعر، فكل ما يراه غضب وانفعال. هيجان للمشاعر كموج البحر، ما إن يهدأ حتى يضرب شاطئ التجمهر مرة ثانية.

يدخل بعد ذلك ومن بين الناس رجل ضخم، عريض الكتفين، يمشي كأن ملك الموت يسير معه. يُخرج سيفه من غمده لتنعكس أنوار الشمس لامعة في عيون الحاضرين. ومعهم القاتل، على الأرض مستندًا على ركبتيه ورأسه منحن. وبالرغم من العصابة الموضوعة على عينيه، يشعر المجرم بثقل الموقف.

يضرب الجمهور بموجه. والهيجان يرتفع مع ظهور السياف. وبطريقة ما أشار أحد الحضور على الجاني بأن الشريف علي بن الحسين وأخاه فيصل كانا واقفين في شرق الحلقة يتابعان ما يجري. صرخ أحدهم من بين الناس يطلب الشفاعة من الشريف باسم الجاني. وسط استهجان من الجمهور. ومحمد الطفل يراقب.

«أبوية شوف شوف المجرم يزحف باتجاه الشريف، يطلب الشفاعة، تتوقع يشفع له؟» يسأل محمد والتفاعل بلغ أشدّه.

«لا ما يقدر، الحقّ حقّ، والعين بالعين»، يقول حسين بكل هدوء.

اقترب الجاني من الشريفين، وقد سمح له السيّاف بذلك. سكت الناس لثوان يترقبون رد فعل الشريف. هنا صاح أحدهم يبدو أنه من أهل الدم مطالبًا بالعقوبة كما شرعها الله ليصيح الجمهور هادرًا وموافقًا على تطبيق العقوبة. أدرك الشريف علي أن الشفاعة اليوم لا مكان لها. فما كان من الشريفين إلا أن ابتعدا عن الجاني ليمسك به السياف ويضعه أمامه.

يعلو السيف في عرض السماء يبرق ويد السياف تكشف عن كوعه. ليسقط السيف على رأس الجاني قاطعًا. والدم ينفث من رقبته. ثم يسقط جسد الجاني على الأرض مغطى بدمه ورأسه بعيد عنه.

صاح الجمهور بالتكبير.» الله أكبر الله أكبر». ومن بين الجمهور يتقدم الشيخ أحمد كماخي حامدًا ربه ومستغفرًا إيّاه وهو يبكي ومعه بعض أهله. أما الباشا، فقد حضر، واكتفى بإقامة الحدّ، لا بوازع منه، بل بإصرار من بيت الكماخي.

ومع غياب الأمن وسلطة الحكم نسج الأهالي أمنهم الذاتي. اتفاقات بين القبائل وتحالف بين الحضر والبدو. وتأمين خطوط التموين والتجارة بين المدينة والقصيم. كلها من صنع البلد وأهلها. فما أكثر من عاش من القصيم في المدينة فتمدن وأصبح عينًا من أعيان طيبة.

لكن كادت أن تفسد هذه المنظومة!

طريق البلدية خط التماس

يدخل حسين والد محمد البيت غاضبًا. له هيبة في الشكل. وفي الغضب تصل هيبته إلى أقصى درجاتها. عندئذ يمكن أن يسمع صوته من هم داخل السور. لم يكن سريع الانفعال. وهو الرجل الفارع الطول والعريض المنكبين. كان نحيل الجسد عند الكتفين ممتلئًا عند البطن، ذا عصب في الحركة والضرب. ويداه واضحتان في مداهما الاستباقي باللكم. وكفّاه ظاهرهما أسمر حنطي اللون فاقع، وحالما تميلان جانبًا يظهر لون باطنهما المصفرّ كأنهما صفائح، أو دروع عسكرية.

لا يجرؤ أحد في البيت على اعتراض طريقه وهو هادئ، فما بالكم وهو غاضب. أما اليوم، فهو في قمة الغضب. تحاول الزوجة تهدئته. ملاطِفةً إياه بمعسول الكلام. الكلام الذي لم يكن في قاموس حسين اليومي. هموم الحياة وتحدياتها تجعله في أقصى اليمين: مشرقي الطابع، ذكوري المزاج، وتقليديًا في التربية.

ينهي محاولات الزوجة بنظرة يتيمة. لتستقيل بعدئذ الزوجة وتترك المجال للأولاد لعلهم يخفّفون من غضب سي السيد.

«إن شاء الله يعدّي اليوم على خير، مو ناقصين مشاكل وخناقات»، تقول الزوجة لتنادي على محمد كي يستطلع الأجواء.

يدخل محمد على أبيه مستطلعًا الأجواء، وعارضًا عليه كوبًا من الشاي بالنعناع المديني. يحبّه في كأس من زجاج، ولونه أحمر شفافًا، لا ثقيلًا ولا خفيفًا. يعني أنه حالما يتغيّر لون الماء الممزوج مع الشاي يضاف السكر، ويجري تحريك الكأس ليثبت اللون المراد، ثم يستخرج الشاي، ويسقط النعناع فيه، ريش أخضر اللون طويل يسمونه الحبق.

بعد ذلك جلس محمد قرب والده حتى صاح مناديًا بأعلى صوته :»رقية يا رقية، جاي ابن فضلون معاه سيف العوجان الآن إلى البيت، سمعتِ؟»

تتمتم رقية بصمت عاضّة على شفتيها «زعلان ويبغاني أهتم وأضيّف أهل ضرتي»، ليقطع حسين من استيائها بصوت أعلى قائلًا: «سمعتِ يا رقية، سمعتِ؟».

فتقابل الزوجة صوت الزوج الغاضب بهدوء لا يخلو من مكر نسوي: «آيوه سامعة يا حسين، سامعة يا قلبي»، وهي تعضّ على شفتيها، ولكن بأسنانها البيض الناصعة اللون الظاهرة. والمكر لم يكن عن سوء نية أو تخطيط، بل لأنّ ابن فضلون هو جدّ محمد، يعني أنه والد المرأة التي أنجبت لحسين صبيًا ولدًا. وهي، أي رقية، لم يرزقها الله بعد.

لكنها وهي الزوجة المحبّبة، كانت تعرف عندما يكون غضب حسين قويًا. ورقية أصبحت خبيرة في مزاج حسين. وتعرف أكثر أنه قليل الغضب، وإن كان صارمًا. هي تعرف أنّ هذا النوع من الغضب عند زوجها مرده إلى سوء الأيام المقبلة. فقد عمّت المشاكل في التجارة، وغاب الأمن عن أهل البلد، ولا بد من أنّ قضية ما أضافت مزيدًا من المشاكل.

في تلك الأيام طوّع صالح بن عقل شرق المدينة، وانقطعت صلته بكل من كان معه كدغيمان، الذي ورد ذكره في صحيح الآثار، تأليف محمد بن بليهد. وقد ساهم ابن عقل في تهدئة الأمور، وخلق شبكة حماية لأهل نجد في المدينة. كما فعل الخريجي إخوان. واطمأنّ الأهالي بعد غياب للأمن طال أمده، تعرضت فيه البضائع والمؤن للسرقة. اطمأنّ للخط الاقتصادي الآمن الذي وفّرته هذه الشبكة. وقد كان هناك تفاهم واتفاق بين الأهالي والقبائل على عدم التعرض لهذا الخط، الذي يمر من أمام البلدية.

دخل ابن فضلون وسيف العوجان على عجل في الموضوع مع والد محمد. وبدأ ابن فضلون يشرح ما يحدث من تعديات على طريق التجارة، وكيف أنه قُتل شخصان مرّا من أمام البلدية رميًا بالرصاص.

استطلع محمد الموقع، فهو يعرف البيت المقابل لمبنى البلدية. هو بيت زوج ابنة خاله من الرضاعة نورة بنت سليمان الأطرم، وقد تزوّجها عبد العزيز الحجام. يعرف البيت جيدًا، لأنه كان يتردّد عليه كثيرًا مع خاله محمد بن فضلون. ويتذكّر ابنة خاله نورة أكثر، وكيف كانت قريبة من الأهل تسأل دائمًا عن أحوالهم، وخاصةً عن أحفاد ميثاء الضويان، الجدّة التي جمعت الكل، وحضنت الكل.

وبعصبية وصوت جَهوريّ يصيح ابن فضلون: «هذا يا حسين عبد العزيز الحجام كلامه عندي، تكلّمت مع الإخوان، وبما أنه خال العيال، فأنا المسؤول».

«خير خير يا أبا محمد»، يجيب حسين بن زيدان، ليكمل: «لكن فليكن في علمك إذا ما تاب وتوقف الحجام، ترى أنا في حلّ من أمرى، لا أنا ولا ابن عقل

ولا حتى الخريجية عندهم استعداد لتعريض الاتفاق وحلال العالم للخطر، صحيح الحجام خال محمد ابني، لكن الاتفاق اتفاق، وكلام الرجال مثل العرض».

استغرب محمد ما يسمع. وتأثر كثيرًا خوفًا على عائلة ابنة خاله. استغرب أكثر أنّ عبد العزيز الحجام قد أطلق أكثر من رصاصة من بيته على من يمر أمام البلدية. وهو العارف بالاتفاقات والعهود.

ثم يأخذ سيف العوجان الكلام نحو الهدوء قائلًا :»يا جماعة، يا جماعة، الموضوع عندي، أنا عندي الحل، الحجام عبد العزيز وأبوه من جماعة ضاري الرشيد».

«ضاري الذي ترك نجد ولجأ إلى المدينة تقصد؟» يسأل ابن فضلون.

«ضاري الفهيد الرشيد يا ابن فضلون»، يجيبه حسين بن زيدان ويكمل:

«هذا من أحفاد عبيد العلي الرشيد، وخرج من المدينة ومعه ١٢ ذلولًا، وذهب إلى مكة في ضيافة الشريف علي بن الحسين، وبعدين راح للعراق مع ابن أخيه محمد العبد المحسن الرشيد».

«صحيح صحيح، ترى في أسرة الرشيد ما من اسم ضاري غيره، والاسم على العموم غير شائع في حائل إلا لشخص واحد، وهو ضاري بن طوالة، شيخ الإسلام من شمّر، أكيد عرفتوه»، مضيفًا سيف العوجان إلى الحديث.

«المهّم عندي ما أبغى الحجام يفسد ما صنعناه بشقى وتعب، لو كان عند مين من العرب وحتى لو كان نسيب عيالي الموضوع ينتهي، الأيام اللي قدامنا صعبة كثير، وأنتم تعرفون تحركات الأتراك، ما نبغى نفتح العين علينا»، ينهي ابن فضلون الحديث بحزم.

«ما عليك، بس خليها علي أنا وأبشر، اعتبر الموضوع منتهيًا»، يقابل سيف العوجان الحزم بجزم.

خرج الجميع من منزل محمد وهم متّفقون على طريقة احتواء الموضوع، وانتدبوا سيف العوجان يحمل معه تفويضًا من الجماعة، وسلطة من أعراف وتقاليد وشرعية عهود ومواثيق. والأهم من كل ذلك غطاءً من ابن رشيد. فحكم الأشراف في هذا العهد لم يصل الى عالية نجد بل أقصى حدوده كانت من والى الشريف حسين من شرق المدينة وهم غير كثير.

علاقة القصيم بالمدينة

القصيم أو «أوكرانيا جزيرة العرب» كما كان يسميها محمد، وجاء في لسان العرب أن القصيمة ما سهل من الأرض وكثر شجره. فلقد ولد محمد وكبر وعرف أن الغذاء والمدد منها يوم لا مغيث للمدينة وأهلها. المدد بالمواد والرجال. فبضاعة القصيم فيها الغوث للجياع، وهي، أي القصيم، أمّ الحنطة بأنواعها، وأمّ التمر بأنواعه، وأمّ السمن بأنواعه، وأمّ اللحم بأنواعه. حالما تمطر في بريدة وعنيزة والرس والبكيرية وعيون الجواء وعقلة الصقور والأسياح والنبهانية والمذنب، يؤتى بالحصاد في المدينة.

ولم يخلُ عهد من العهود الثلاثة إلّا ورجال من أهل القصيم، الذين تمدّنوا، أصبحوا من كبارها. ليس أوّلهم صاحب الفضل الكبير على محمد الشيخ صالح الإبراهيم القاضي. وقد نمت هذه الصداقة أكثر مع محمد أيام حصار المدينة.

وكان القاضي الحامي، والراعي، لأهل القصيم في المدينة، وأكثرهم من أهل مدينة عنيزة. فكان صالح القاضي عونًا للحصار بأدب وكتمان، كما يصفه محمد. وكان له أيضًا العون بعلاقته المتميزة، التي لم يعرفها أحد مع إبراهيم النشمي، وعبد المحسن الفرم، ودغيمان، الذي كان صديقًا ومعينًا لمحمد بن بليهد.

ومن أهل عنيزة الكبار، الذين تمدّنوا فأصبحوا الحماية للمدينة، الشيخ عبد العزيز الخريجي، صاحب العقل الحليم واليد الكريمة. ابن الحسب من ربيعة الفرس، وعلى الرأس فيهم من عنزة ومن إليهم من الرولة. جمع النسب والسبب، وجعله مجدًا من صنع المدينة. يعاونه فيها ابن أخته محمد الخريجيّ. كانت له العلاقة مع الشريف أحمد بن منصور، ومحمد الخريجي مع الشريف شحات بن علي، قائم مقام المدينة.

ومن هذه العلاقة نسجت شبكة الحماية لأهل نجد من هم في المدينة. أهل نجد كلهم من دون استثناء سواء قصيمها أو وشمها أو رياضها وحتى حدود حائل. يُدخل الخريجيان من البوابة الغربية للمدينة في ينبع، وبترتيب مع أميرها، بعضًا من المدد. ومن الحناكية البوابة الشرقية للمدينة يمررون الحلال للداخل. يصنعون بذلك دورة اقتصادية كاملة. لمست كل بيت، وكل زقاق، وكل قرية. تقدمة آل الخريجي.

مع كل ذلك كانت نجد تغلي. غليان وصل مداه المدينة المنورة.

فقد ذهب عهد عبد الحميد العثماني مع ثورة حزب الاتحاد والترقي. وعهد رشاد من بعده لم يكن يعطي الخلافة الرافعة لاسترداد الولاء. حينئذٍ بدأ سلطان الخليفة العثماني بالاضمحلال. فالولاء للباب العالي أخذ يتدحرج نحو الانشقاق في الأقاليم العربية. وذهب كل إقليم يبحث عن مخرج. والتدخل الخارجي البريطاني والفرنسي يسير على قدم وساق. إثارة وتحريض وكل أنواع الأعمال السرية.

مصر الخديوية، والتابعة شكلًا للدولة العثمانية، أصبحت مملكة في الثامن والعشرين من شباط/ فبراير، وبعد خلع الخديوي عباس الثاني. عندئذ أصبح السلطان ملكًا. وأصبحت لمصر وزارة خارجية وسفراء وقناصل. مع أن الإنكليز كانت لهم اليد الطولى في الشأن العام، لكن مصر ظلت محتلة، ليثور زعماؤها على المحتل، إلّا أن قناة السويس بأهميتها الاستراتيجية امتصّت الثورة واستوعبتها، لتتحوّل أرض الكنانة والأهرام وأبو الهول والنيل إلى مستوعب للعسكر البريطاني.

كانت الشام، إقليمًا عربيًا متصلًا واسعًا وغنيًا، يمتد من معان جنوبًا إلى أضنة والإسكندرون شمالًا، ومن رفح غربًا إلى الجزيرة على الفرات شرقًا. قُسمت وقُطّعت إلى شرائح. قسّمها التتريك ليشرّحها الإنكليز والفرنسيون. بالرغم من أنّ الشام هي قلب العروبة النابض، فمنها مصدر القومية العربية، والمكمن المغذّي لها.

كان للشام نصيب من الثورات المتتالية، وكان الثوار من أهل الشام على استعداد لتقّبل أيّ ثائر عربي. فتحوا صدورهم واستقبلوا ثورة الحسين بن علي. ولم تدبر (تتخلّ) عن سلطان نجد وملحقاتها الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن، حتى إنّ فيصل بن الحسين حين خسر العرش في دمشق، وجد أنه قد يرى العزيمة في أن يكون مع الملك عبد العزيز، وألّا يلجأ إلى أبيه في مكّة، وهو قال ذلك في حيفا لجميل مردم بك وعوني عبد الهادي ونوري السعيد وحيدر رستم. وقد سمع محمد بذلك من جميل مردم شخصيًا، يوم زار المدينة.

حريق القلعة

في يوم من أيام موسم الصيف والشريف على بن الحسين أميرًا على المدينة. في العهد الثاني من حياة محمد. خرج محمد مع والده، وصديق والده أحمد بن جميعان العمري الحربيّ. خرجوا يصطافون في التمار. وقد انتصف النهار، وهم يجولون في البساتين. يعرف حسين أنواع التمر، وقد حرص على تعليم ابنه ما يعرفه في هذا المجال.

لا يمكن ذكر المدينة من دون تذكّر تمرها. فالمدينة أرض نخيل. مثل نجران ومثل اليمامة. فقد كان رسول اللّٰه قد أمر بالهجرة إلى أرض ذات نخل، ظنًا منه أنها غير يثرب، لكنّ اللّٰه أمره بأن تكون يثرب لتسمى طيبة دار الإيمان، ودار الهجرة.

والنخل صنوان، وغير صنوان.

يتذكّر محمد كلام أبيه «الصنو لأمه صنو الحلوة حلوة، والصنو البدنيّ بدني، فالصنو دائمًا لأمه».

يجول الأب مع صديقه في البستان ومعهم محمد. والشمس تراقبهم في منتصف الفضاء بينما ظلهم يحاول اللحاق بهم. وعند اشتداد الحرارة يتظللون بظل النخيل، حيث لا ظل في البستان غير ظلها. ولا فخر لمديني إلا بتمرها.

«سبحان اللّٰه ما ينبت في الأرض إلّا منها وفيها، هذا الشيخ عبد اللّٰه بن مسلم المحمادي الحربي أبو حليت، زرع صنوان من البرحية أخذهما هدية من صهره، شويمي بن حجاز، وما أثمرا»، يقول حسين مخاطبًا صديقه.

«ترى حتّى في القصيم ما أثمرا، وقائم مقام جدّة زرعهما وما في فايدة، هذه البرحية نخلة من البصرة» يجيب أحمد بن جميعان.

ليكمل حسين وهو العارف بتربة أرضه:» شوف يا بن جميعان، واسمع يا محمد، في المدينة التربة ثلاثة أنواع، كم؟».

«ثلاثة أنواع»، يردّد محمد وهو يمشي خلف والده وصديقه، ممرِّرًا عصاه على الأرض. يحبّ الكتابة فكأنما كان يسجّل ما يسمعه.

«التربة في سفح الحرة كالعوالي، وقباء، وقربان، أرض حلوة، السيل يطؤها فتصبح حلوة، تربة غسلها الماء من السبخ» يقول حسين.

«والعيون كذلك تربة حلوة»، يستطرد محمد، ليجيب أبوه: «أحسنت أحسنت يا ابني، لأن السيول الثلاثة غسلت الملح».

يمشي الثلاثة والحديث بينهم بدأ يتوسع أكثر. «في الشمال الشرقي التربة مختلفة»، يقول حسين، ومتابعًا درجة إنصات ابنه «التربة هناك جصّة، وأما في أرض محبت والقاضية، فالتربة سبخة لأنها حُصرت بوادي العقيق، ولا يصلها الماء من وادي بطحان، فما غسلت تربتها».

يبتسم ابن جميعان قائلًا: «أول من بنى فيها كان بيت حمام سكر، بناه أتباع شيخ الطريقة محمد الدندراوي»، ثم يكمل ليقول منهيًا الدرس الجيولوجيّ لمحمد: «والله يا حسين، اللّه وفق بهاء الدين خاشقجي هالصيف».

«يا رجل، بكم باع محصول الشنبلية (اسم بلاده أو المزرعة) ؟» يسأل حسين مستفسرًا.

«باعها بسبعمئة جنيه ذهبًا» يجيبه ابن جميعان ثم يكمل: «يستاهل يستاهل، ونِعمَ الرجل»، يقول ابن جميعان مطلًا خلفه مباغتًا محمد بسؤال أرض جو: «يا محمد، السويدة، والروتانة كيف تؤكلان؟ هل تعرف؟».

يخطو محمد خطوتين في واحدة ليقترب من والده وصديقه مجيبًا: «تؤكل رطبًا لا زهوًا ولا تمرًا، بعكس البرحية التي تؤكل زهوًا ورطبًا لا تمرًا».

«طيب يا شاطر، والبيض والبرني والمشوك والشلبي كيف تؤكل؟» يسأل حسين ابنه بصيغة التحدي.

«أنا في امتحان اليوم شكلي»، يقول محمد مستطلعًا ومازحًا.

«يا ولد جاوب من غير كلام فاضي»، يقول صديق الوالد.

«حاضر حاضر، كلها تؤكل تمرًا فقط»، يجيب محمد وهو يلحق الرجلين.

وحالما أكمل محمد جملته دوّى صوت انفجار. صوت قويّ كسر وتيرة الأسئلة والاختبار انتفض من قوته الثلاثة. ليضرب الصوت مرة ثانية. ثم ثالثة. ورابعة مستمرًا لدقائق معدودة.

«هذا صوت قنابل وديناميت» يقول حسين. فقد كان يعرف الفرق بين صوت إطلاق النار والمتفجرات. يصيح بعدها لصديقه: «ما في إلا القلعة، كل الذخائر مخزّنة هناك، أكيد هذا العمل مفتعل».

وعلى عجل جمع محمد وأبوه وصديق والده كل ما لديهم ورحلوا لتفقّد الأهل أولًا، ثمّ معرفة ما جرى. هم بحسّهم الأمنيّ أدركوا أن في الأمر شيئًا كبيرًا.

وحريق القلعة شبّ في ظهر قائظ. الحريق شبّ في منطقة تخزين القنابل وما أكثرها. هي من مخلّفات فخري باشا والي المدينة. جعلها مركزًا للذخائر. وسعير الحريق لحسن الحظ لم يقذف القنابل إلى الشرق بعدما منعتها الرياح. فلم تصل شظية إلى الحماطة أو الساحة المقامة حماية للمسجد. ولم تمسّ سوق الحبابة ولا مسجد الغمامة إلى الجنوب، بل توجهت الشظايا إلى الجنوب الغربيّ. وصلت إلى مقربة من حوش كرباش.

وبيت جمل الليل، والداغستاني، والياس والكردي ومسجد الإمام علي، كل هذا لم تصله، بل وصل الحريق والدمار إلى بيت السيد علوي السقّاف، وحوش سرقان، وبيت ذياب ناصر (باب عرب).

وصل حسين وولده إلى البيت. وبعدما اطمأنّ حسين على سلامة عائلته، توجّه فورًا إلى مكان الحريق يرافقه ابنه محمد، حيث كانت جموع من الناس تساعد على إخماد الحريق. لا مطافئ أو دفاع مدني، بل كان كل رجل يحمل ما تيسّر له بدلو ماء ويتقدّم لأداء المهمة. شارك حسين ومحمد في المهمة بحماسة. لكن لهيب النار اشتدّ. وكلما هدأ اشتد مرة أخرى. والماء قليل إلى أن جاء بعض الرجال بزنابيل أكبر تحمل كمية وافرة.

وحالما انطلق أذان صلاة العصر أُخمد الحريق، وانشرح الناس بعد عمل شاق. ذهب معظمهم يسكب الماء المتبقي في دلوهم على رؤوسهم المغبرة. مهنئين أنفسهم بنجاح عملهم الإطفائي.

لكن الحريق عاد واشتعل في اليوم التالي.

كان الدمار كبيرًا. باب عرب أُحرق. ومعه مصالح ناس كثيرين. منازل ودكاكين ومخازن التجار. ومع هول الخسارة في المواد بدأت رحلة البحث عن الفاعل. وأن الخسارة لا بد من دفع ثمنها. أثار الحريق سخط التجار على وجه الخصوص. مع ضياع رأس مالهم أخذ بعضهم يلوم منافسيه. والبعض الآخر

ذهب يضع اللوم على قلة الأدب والدين من الممارسات العصرية لبعض الأهالي. وغيرهم قليل اكتفى بالدعاء إلى الله للتعويض.

لم يطفأ الحريق إلا عند مغيب شمس اليوم التالي. وبعدما تمكّن الناس من إطفاء الحريق وبعيدًا من أعين الناس الغاضبة اجتمع أحمد بن جميعان وأخوه بادي وحسين مع رجاء بن فضلون الآتي من القصيم في منزل حسين. ومحمد يجلس إلى جانب جدّه رجاء الذي لم يره منذ سفره. اجتمعوا يسمعون آخر الأخبار الآتية من نجد. لعل ما يجري هناك له أثر في المدينة، وأن الحريق عمل مقصود لا منافسة تجارية ولا عقوبة إلهية.

«هناك مؤامرة خلف هذا الحريق»، يقول ابن فضلون بصوته الأشج شارحًا وبالتفصيل خلفية ادعائه. «تعرفون أنَّ القلعة كانت مصدر التموين للسلاح. الوالي كان يخزّن فيها رصاصًا وبنادق وقنابل. يوزّعها إذا ما كان عنده ذهب، يبيعها للصوص أو أي أحد يدفع ثمنها غاليًا. ويستخدمها العسكر مرات ومرات. غير أن ضرب المخزن في هذا التوقيت له دلالات وإشارات».

«لكنني سمعت أنّ عبد المحسن الطيب، الضابط، مع أخيه عبد العزيز، هما المسؤولان» يقول بادي بن جميعان قاطعًا تحليل الجد رجاء بن فضلون.

«تقصد الضابط التونسيّ الخبير في البحرية؟» يسأل أخو بادي أحمد.

«أيوه أخوه، وحقّ البحرية كان يفاخر بها، ويفاخر بأنّ عبد العزيز الثعالبي، الزعيم التونسي، من أخواله» يحسم الموضوع حسين داعيًا ابن فضلون إلى إكمال شرحه.

«المهم» يستدرك ابن فضلون قائلًا: «ما جرى كان مفتعلًا، والطيب هو وأخوه سُجنا ظلمًا، على أي حال لم يثبت عليهما شيء».

نظر المستمعون بعضهم إلى بعض مستغربين ومتسائلين عن الفاعل، ليكمل ابن فضلون: «شوفوا يا جماعة، معظم السلاح في القلعة اشترته قبائل نجد. وكان بعض الضباط يبيعون لها البنادق والطلقات، بعلم الحاكم طبعًا. أما القنابل التي لا مصلحة لهم بها، فبقيت في المخزن».

«ليش كل هالسلاح؟» يسأل حسين ويداه تبرمان كاشفتان عن باطنها.

«ابن سعود في الدرعية يعدّ جيشًا كبيرًا، وعنده مخطط يُخرج به الأتراك من المنطقة كلها» يجيب ابن فضلون.

«نحن في مرحلة جديدة، ثمة شيء جديد» يقولها بادي بن جميعان، ويفرك لحيته.

يعرف ابن جميعان كيف تتسلّح القبائل. ويعرف لماذا. ويعرف أكثر طرق التموين. ولكنْ أن يشبّ حريق في مخزن أسلحة ولا تحرَق فيه إلا القنابل، فهنا تكمن المؤامرة.

«صائغ الكلمة البيانية لا يمرض الكلام في فمه».

محمد حسين زيدان

الكرسيّ عربي أم أعجمي؟

استقرت العائلة في منزلها في المدينة بعد الغياب القصري في ينبع. وعادت بعض من نواحي الحياة إلى طبيعتها. الوالد يعمل في الدكان ومحمد يساعده كأي ابنٍ في ذاك الزمن. لكن محمدًا أحب العلم، وقد شجعه والده أكثر. فوجد محمد نفسه مستقرًا في المدرسة. يعمل ليتعلم. ويتعلم كي لا يتألم.

كان محمد تلميذًا نجيبًا. أحب القراءة. وأحب التعلّم. وأحبّ أكثر التعلّم في المدرسة. فهي التي أخرجته من الكتّاب. لم يطق التعلّم وعصا الخيزران فوقه. فلنقل إن شخصيته المتمرّدة لم تناسبها صرامة الكتّاب، إضافةً إلى أنّ ما يتعلّمه تحت العصا لا تحدّي فكريًا فيه. أفقه ضيّق.

في أول مشواره العلمي أُدخل الكتّاب كمعظم أطفال ذاك الزمن. أُدخل كتّاب وقف السيد علوي السقاف، الذي كان شيخ السادة يومذاك. وهو جدّ السيد عمر السقاف الوزير. ثمّ انتقل إلى كتّاب القشاشي. الشيخ فيه كان السيد حسن صقر، ابن عم السيد محمد صقر، وأخيه أحمد صقر. وبعدما ضاق الحال به في الكتّاب ذهب إلى المدرسة العبدلية لتكون طوق النجاة له.

دخل الأستاذ السيد محمد صقر الفصل (الصف). رجل وقور، سيماؤه العلم، وبوجه واضح، يحمل صفات النبلاء.

نسبًا هو من آل بيت رسول الله، من أشراف قنا، من أعمال صعيد مصر. جدّه الشريف جماز من أحفاد الحسين بن علي، دانت لهم إمارة المدينة تقليديًا حتّى أُخرجوا منها على يد أبناء عمّهم الحسنيين حكّام مكّة. أحفاد أبي نمي. وأقطعهم السلطان الصالح أيوب حينها قنا في الصعيد، مسكنًا لهم. وبعضهم نزح إلى الوراقية أو الحفنة، وبعضهم مكث في العوالي.

فالسادة في المدينة لهم المقام الأول والاحترام الكبير. وانتشر أعيان منهم في ماليزيا وإندونيسيا وفي المدينة ومكّة. يحفظون نسبهم، لا بل هم أشد الأشراف صونًا لشجرة النسب. فلقد استعان الشريف شحات بهم أن بعد حرقت شجرة النسب للأشراف يوم حريق القلعة.

هم من ذرية الحسين بن علي، أشراف المدينة الأوّلون مع آل باعلوي. وهم والبطاطخة والمخادمة في قنا، وآل بدر الدين في بخارى، والكتانيون في المغرب. وكان لآل باعلوي امتياز خاصّ. فشيخ السادة في مكّة والمدينة

منهم. عرف منهم السيد علوي السقاف، ثم السيد عبد اللّه جمل الليل، ثم السيد بافقيه.

والسادة آل جمل الليل لهم البيت الكبير، وهو قصرٌ فخم في مقعد بني حسين، على حافة السور الغربي للمدينة، وبمحاذاة باب المصري. وهو من القصور المعروفة، ولا يشبهه إلا بيت البري، على حافة العنبرية.

لكنَّ دوافع محمد ذاك اليوم كانت أقوى. في قرارة نفسه كان يعرف قدره عند السيد صقر، فالأستاذ اكتشف نجابته وذاكرته الحديدية منذ أن رآه، إلا أن الظرف يتطلب أكثر من رعاية أستاذ جليل لطالب نبيه.

التحدي كان تعويض ما فاته من امتحان. في يوم من أيام الامتحانات غاب عنه محمد. أقعده المرض عن الحضور، فأصبح راسبًا. لا يُرقّى إلى الفصل الثاني من السنة الأولى.

أبى السيد صقر أن يكون محمد راسبًا.

فكلّم المدير قائلًا له: «امنح محمد فرصة، فهو يستحقها».

وافق المدير على انضمام محمد كمستجد على أن يجري اختباره. وبكل ثقة قبِل السيد صقر التحدّي.

يجلس محمد في مقعده بعناية في الفصل، وقد اكتمل عدد الطلاب، عشرين. يجلس في مكان يختاره عن دراسة لا تخلو من المكر والفطنة، خصلة تعلمها من مجالس الكبار. وكما كان يقول: «أنت حيث تجلس».

يعرف أولًا أنه تحت الاختبار. ويعرف ثانيًا أنه لا يحبّ أن يخذل أستاذه. ويعرف ثالثًا أن الرسوب قد يعني رجوعه إلى الكتّاب. ثلاثية الضغط الشهيرة للطالب في أي جامعة أو كلية: عنصر المفاجأة، والخوف من الخذلان، والرسوب في مادة ما. التأم النصاب وبدأ الأستاذ الفصل.

جمع الأستاذ صقر الصف بنظرة وهو الشيخ الوقور الذي بحركة العين يتحدث ثم سأل الطلاب: « كلمة تفاوت اسم أم فعل؟»

جاوب أغلب الطلاب بأنها فعل. فقد خدعهم حرف التاء، ولكن محمدًا لم يخدع.

ضحك في سره محمد. وقد رأى الأستاذ وجه محمد الذي يفيض بالضحك الباطني. ثم رفع محمد إصبعه اعتراضًا وقال «هي اسم، قال تعالى {ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت}(9)، الكلمة سبقها حرف جر، ولا يسبق حرف الجر إلا الاسم، كما لحقها التنوين في آخرها، والتنوين لا يدخل إلا على الاسم النكرة».

بادر الأستاذ إلى منحه درجة امتياز. الأول وهو يبادل محمدًا الابتسام والفخر.

في اليوم التالي بدأ الأستاذ صقر بقراءة كتاب في وفاء الوفاء عن تاريخ المدينة أمام الفصل (الصف). ثم أخذ يشرح «أن الشمس كُسفت في اليوم السادس من الشهر».

سكت جميع الطلاب ظنًا منهم أنه صحيح. لكن محمد غير!

اعترض الزيدان على ذلك. هذه المرة لم يرفع إصبعه، بل بادر إلى الكلام واثقا قائلًا: «هذا خطأ». هكذا أخطأ الأستاذ بكل بساطة وسط دهشة الطلاب.

«هل أخطأ المؤلّف؟» يسأل الأستاذ بتهكم ليقابله محمد بجواب حاضر.

«لا لم يخطئ السمهودي، ولكن المطبعة يمكن. الشمس لا تنكسف إلا إذا كان القمر في المحاق، أي في نهاية الشهر».

هز الأستاذ رأسه، ووضع علامة الامتياز ليصبح عدد الأهداف في مرمى الشهادة لمحمد اثنين امتياز. سجلهما وهو يلعب بمهارات فردية.

وباشر الأستاذ بسؤال آخر: «النهر ماء عذب يجري منحدرًا، ما معنى كلمة عذبٍ؟».

تنطح أحد الطلاب مجيبًا وممثلًا الإجابة. أجاب: «إنه الماء الذي يجري كذا وكذا»، محركًا يديه الاثنتين يمينًا ويسارًا لتوضيح كلمة كذا.

عندئذ قطع محمد حركة تموّج اليدين. قطعها بجملة قطعت أنفاس الفصل الذي بات مستغربًا من نباهة وسرعة بديهة زميلهم. قطع التمثيلية يقول: «كلمة العذب تعني الحلو» .

هكذا بلا إصبع ولا شرح، أطلقها محمد ليطلق الأستاذ الامتياز الثالث وتصبح النتيجة ثلاثة لصالح محمد.

وفي آخر الأسبوع اجتمع الطلاب كالعادة يتابعون مبارزة جديدة من الأسئلة والامتحانات. فيدخل الأستاذ الفصل حاملًا معه سؤاله ليذهب مباغتًا الطلاب: «هل كلمة كرسيّ ممنوعة من الصرف؟»، يسأل السيد صقر طلّابه.

أجاب الطلّاب بإجماع «أعجمية». معتقدين وبكامل الثقة أنهم هذه المرة سيدخلون هدفًا في المرمى. فقد تصوّر الطلّاب أنّ الكرسي لا يجلس عليه إلا رجل أعجمي، فهو أعجمي. لأن الكراسي لم تكن مستعملة بين سكان المدينة.

رفع محمد إصبعه معترضًا وسط التململ الفاضح بين الطلاب وبكل ثقة قال: «إنه عربي وقرآنيّ. {وسع كرسيّه السماوات والأرض}(10)»

أومأ السيد برأسه، واضعًا علامة الامتياز الرابعة له ومحمد يركض ذهنه في الفصل كأنه ملعب. يقفز من كرسيه العربي محتفلًا بانتصاره وعبوره ونجاحه. تميز محمد عن أقرانه كان فاقعًا. يقرأ سريعًا ويحفظ أسرع. وله قدرة هائلة في استرجاع المعلومة من بطون المراجع وهو التلميذ. تميز أدركه أساتذته مبكرًا.

يوم كتب فيه بيت شعر

فين الزيدان، فين الزيدان؟

«لبّيك» يجيب محمد أستاذه متأهبًا.

«ادخل فُكّ العجة». هكذا وبعجالة وحماسة يقول له أُستاذه السيد محمد صقر الخارج من حلبة السجال.

«أنا في السنة الرابعة لا الثالثة» يحاول محمد استثناء نفسه من الدخول في العجة.

«ادخل يا واد... هو أنت إلّي حتفكّ العجة» ،يقول الأستاذ وهو يدفعه إلى الحلقة. ثُمّ اقترب من محمد هامسًا في أذنيه وبخفّة، لا يريد أن يعرف أحد من الحضور، ولا أن يسمعه أحد من الأساتذة الحاضرين، فقد أسرّ له بالجواب.

ودخل محمد في عين العاصفة. في قلب السجال بين أساتذة كبار في يوم الامتحانات بباحة المدرسة الراقية الهاشمية. ودار سجال بين الشيخ عبد القادر الشلبي، عميد المدرسة، والشيخ الخضر بن مايابي الجكني، المحدّث، ومن أعيان شنقيط. والد صديق محمد محمد الأمين، وسفير الأردن سابقًا.

الحكاية وما فيها أنه كان من عادة عميد المدرسة الشيخ الشلبي أن يدعو بعض كبار العلماء والأعيان أيام الامتحانات. علماء مثل الآلفا هاشم، ومحمد العلي التركي، ومحمد الطيب الأنصاري، وفالح الظاهري، وحمدان الونيس، والشيخ إبراهيم البري، والشيخ الحبيب المغربي، وغيرهم. وقد درس محمد عليهم كلهم مشافهة ودرسًا.

يدعوهم عارضا إنجازاته في المدرسة. وكان الشيخ الشلبي يتباهى بطلابه أمام الأساتذة الكبار، لعلهم يجودون على العميد والتلميذ والمدرسة. يعني حج وبيع سبح كما في المثل العام.

يومذاك كان الامتحان لتلاميذ السنة الثالثة، ومحمد ابن صف السنة الرابعة في شهر شعبان، على بعد أيام من شهر الصيام، رمضان. والامتحان كان في مصطلح الحديث، وأستاذ الدرس السيد القدير محمد صقر. صاحب الفضل الجزيل على محمد.

قدّم الشلبي عريف الفصل للإجابة، التلميذ إبراهيم عبد الرحمن من أسرة المفتي في مكة. إلّا أن أباه سكن المدينة واستعرق، وأمه كانت من بيت الطيّار، الكبار في البلد، من أهل داخل السور. ومن زملائه السيد يوسف مدني، والسيد ماجد مدني، وحسن إسماعيل، والسيد عبد الهادي البرزنجي. كلهم من البلد، ومن الأعيان.

ولعل إبراهيم لم يجب عن السؤال بالصواب. عندئذ ثارت ثائرة الشيخ الخضر، وهو المعروف بمزاجه الحاد. وإذا بالشلبي يقابله بالحدة نفسها مدافعًا عن الطالب وعن الإجابة، وهو ليس على درجة من معرفة المصطلح، كما الشيخ الخضر. وانطلق السجال بينهما. ليتّسع متحولًا إلى جدل ثم إلى عجة عاصفة. ولم يتدخل الآخرون الحاضرون.

وفي وسط هذا الصراع والجدل صاح الأستاذ السيد محمد صقر سائلًا عن الزيدان.

جلس الزيدان على الكرسي في عين العاصفة. ودخل، وهو يسلّم بصوت جهوريّ، فرد المشايخ السلام. بعد ذلك أجرى مناورة للتخفيف من وقع السجال. حاول الإشارة إلى أنه تلميذ في امتحان لا يوم الحساب. ويبدو أن الشيخ الخضر أُعجب بمناورته فطفق يسأل ويسأل. يرمي محمد بوابل من الأسئلة. وكانت هناك معرفة بين محمد وشيخه الخضر. معرفة الشيخ لتلميذه.

وقف محمد على درس الشيخ الخضر مرات متعددة. ومرة في شهر رمضان يتذكّر كيف كان يلهج الشيخ بغنّة شنقيطية. وكان الحديث عن سجود السهو، أهو قبل السلام أم بعده. فارتفع صوته برنين، وكأن عباءته قد ضاقت عليه، وهو يقول: (اللّه درّ مالك! علم أن السجود قبل السلام عن نقص، وبعده عن زيادة، فما حصره قبل السلام دائمًا ولا بعده). تعلّم من شيخه حبّ أهل المغرب العربي، وحفاظهم على مذهب أهل المدينة، وعلى قراءتهم، على مذهب مالك، وقراءة نافع مولى ابن أبي نعيم، الذي دُفن في البقيع، وقبره إلى جانب قبر مالك.

وكان الشيخ الخضر صاحب دعابة، وعندما كان يشاهد ارتفاع البناء في بيته في زقاق الطيار، وقف مرة وقال لحاشيته: (إن من علامات الساعة أن الحفاة العراة يتطاولون في البنيان) يقصد نفسه!

استطاع محمد رد وابل الأسئلة محاورًا بتميز وذكاء. وجاوب بما قد همسه أستاذه فى أذنه فى الخلاف الذى بدأ العاصفة. حتى إن الأستاذ صقر غمز

عينه لمحمد بعلامة الإعجاب الممزوج بالفخر، لأنه كان يعرف أنّ ثقافة محمد تؤهله للمناورة والاستفاضة. ليأخذ الشيخ الخضر نفسًا عميقًا مسندًا ظهره على كرسيه معلنًا نهاية السجال. وهدأت العاصفة. وارتاح الطلاب من آثار العاصفة عليهم.

بعدئذ حدث ما لم يكن في بال محمد.

بعد السجال وخروج محمد من الامتحان الصوري، ذهب ليستعدّ لصلاة المغرب. وكان في رواق الرحمة، مستعيدًا بذهنه وبفخر ما جرى. وذهب يحلم كم سيكون أبوه فخورًا بما جرى لو عرف. وكان أبوه يحب أن يسمع كيف أصبح ابنه محمد مع العلماء. لم يعد يطيق محمد الانتظار لتبليغه الأمر. يريد إتمام واجب الصلاة للحاق به في المنزل خوفًا من خروجه أو سفره. وبينما هو يهم بالوضوء وإذا برجل يقف على رأسه ينادي: «زيدان قم». إنه الشيخ الآلفا هاشم المالي الفلاتي.

وقف وبسرعة احترامًا لشيخه، محاولًا تذكّر أيّ مشكلة يكون له علاقة فيها، إلا أنّ الشيخ أخذ بيديه وراح يسير معه إلى الروضة. يصلون على الحبيب ثم يولون وجهيهما تجاه القبلة. رفع أذان الإقامة ويصلي محمد والشيخ الألفا هاشم. وبعد صلاة المغرب، وهم جلوس على الأرض أخرج الشيخ المحفظة والقلم والورق وقال لمحمد اكتب.

«يا زيدان يا من بزينة العلم يزدان... يا زيدان إن المفرد العلم زيدان له مثنى زيد لقد دانا... يا زيداني أضفتك إلى نفسي لأنك إلى محبوبي من العلم دان».

ضجّت البلد. الشيخ آلفا ومعه الزيدان يصلّيان في الروضة. أيّ تكريم هو هذا! وعرف محمد السبب في بيت الشعر لاحقًا. فحين خرج من الامتحان وقد أُعجب الحضور جميعهم به، اختلفوا مرة أخرى في عاصفة فكرية جديدة. اختلف العلماء في إعراب اسم الزيدان. فحقق الآلفا هاشم إعرابه المفرد لا المثنى.

ولن تكون تلك المرة الوحيدة التي يُكتب فيها شعر عن الزيدان. ربما بيوت الشعر ونواميس الشعراء تلاحق محمدًا. وفي كل مرحلة، أو أنّ قوافي الشعر تحب ملاحقة التميّز في شخص محمد. لكن هذه المرة لن تكون مدحًا بل ستكون في الهجاء!

يتذكر محمد حين كان تلميذًا في المرحلة النهائية في عهد حكم الأشراف للمدينة. يدرس مع أصدقائه في باحات المسجد النبوي وأروقته. يتنافس

محمد مع أصدقائه في مراجعة أمّهات الكتب والمراجع.

وفي خارج وقت الدراسة، كانوا يتبارزون في نظم الشعر، معارك نحوية، ميدانها المدينة المنوّرة. ووسائل إعلامها، أو الإعلام الحربي لهذه المعارك كان يتمثل في الأساتذة والمدرّسين، يراجعون القصائد ويمنحون النقاط.

في هذه الجولة سجل خصوم محمد في هذه المعركة الوهمية قصيدة هجاء فيه. سجلها صديقه العزيز هاشم سمان، مع أنه لم يكن صانع الأبيات، بل أحد أعضاء فريقه:

أيا زيدان عيناك أزعجتاني من الأقذار والنظر الشايمي

وانتشرت القصيدة في كل اتجاه. سهامها تضرب مع كل حديث، واتسع الانتشار إلى خارج ساحة معارك المشاركين فيها. لتصل عند حدود حديث القوم. حتى إن الشيخ محمد سعيد أبو ناصف- مدير البريد أيام الأشراف في المدينة- فرض ثمنًا لهذه القصيدة ريالًا مجيديًا لمن يأتيه بها.

اجتمعت هيئة أركان الحرب لفريق محمد وأخذ أعضاؤها يتدارسون رد الفعل المناسب. القصف بقصيدة لا يكفي. واتفق المجلس الحربي على أن قنبلة واحدة من النظم لا تسترد الحق به. وما أُخذ بالهجاء لا يُستردّ إلا بالهجاء. وصدرت الأوامر الحربية. يَنظم قصائد كل من حمزة شلبي والأستاذ الشيخ الأمين بن خضر بن مايابي الجكني، ومحمد الأمين الشنقيطي، أمّا السيد عثمان حافظ، اكتفى بدور الجندي في الخطوط الأمامية. مع أنه كان يمارس النظم، ويعرف أوزان الخليل.

فردّ كل منهما الهجاء بهجاء. بيوت شعر محملة على صواريخ باليستية عابرة لباحات الحرم النبوي تتضمّن كلامًا محمَّلًا بالسلاح الكيميائي. لتتسع المعركة أكثر.

إلا أنّه في خضمّ عمليات القصف المتبادل. حصل محمد على القصيدة التي هُجِيَ بها. وأراد أن يقدمها إلى الشيخ أبي ناصف، لعله يشارك في المعارك النحوية.

وبينما هو، أي محمد، في دار الضيافة قرب كهرباء المسجد النبوي، وكانت القصيدة في جيبه، توجّه نحو أبي ناصف متسائلًا: «أنت طلبت القصيدة صحيح؟».

«نعم صحيح، ليش؟» يجيب أبو ناصف.

«طيّب، شوف، خذ هذه القصيدة وبلاش يالل، إيش رأيك؟»، وقدم محمد القصيدة. لكسب حليف جديد في المعركة.

معارك محمد العلمية كثيرة. لكنه لم يتحرك بطلًا في سبيل الكلمة لغرض الحروب الكلامية، بل استفزته كلمة لتدخله عالم القراءة خارج المدرسة.

سلمى وإسحاق وخرمباق

«اسمع يا واد... أنا أحب الفلوس، أشغّلك تجيب لي ريالًا مجيديًا، ولكن لا أريد ذلك، أبغاك تتعلّم»، قال حسين لابنه محمد. بكل وضوح وصرامة أراد حسين من ابنه مواصلة التعلّم. أراد له أن يكون مع العلماء في باحات الحرم. وهو التاجر كان يعرف قيمة العملة، لكنه أراد لابنه قيمة المعرفة.

ساد الريال الفرنسي، الذي أحضرته معها الحملة الفرنسية، حملة نابليون، على مصر والشام، لكنّ الجزيرة العربية ظلت تتعامل بالريال النمساوي. وقد طُبعت عليه صورة الإمبراطورة النمساوية ماري تريزا. ثم في عهد السلطان العثماني عبد المجيد، أنهى التعامل بالريال الفرنسي، ساكًّا العملة المجيدية. فشاعت لتصبح العملة الرائج استخدامها في تلك الفترة.

وكلام الوالد لم يكن من فراغ. حينها أصبح محمد بلا عمل بعد تخرّجه من المدرسة الراقية، وسرعان ما التحق بالبطالة المقنّعة آنذاك. وكان من عادة أهل المدينة بعد الانتهاء من المدرسة أن يتعلّم الولد منهم مهنة أبيه. «تعلّم كار أبوك، لا يغلبوك» على قول المثل. الانضمام إلى عمل العائلة مهما كان.

إلّا أنّ محمدًا أراد أكثر، وكذلك والده حسين، فالتحق بحلقات درس المسجد النبوي على يد الأستاذ السيد محمد صقر. تعلّم عليه النحو في قطر الندى، وشذور الذهب وألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل، ومختصر سيرة ابن هشام. وفي الفقه على مذهب الإمام مالك، والرسالة لأبي زيد القيرواني، ومختصر خليل والحواشي، وغيرها ممن خالط في باحات الحرم النبوي الشريف.

فقد عاشر الكثير من العلماء وسجالاتهم في باحات المسجد، متعلّمًا الكثير من سير التاريخ، بالمشافهة والمجادلة. كان العلم يؤخذ، ولا يُعطى. وعندما مارس مهنة التعليم في المدرسة، كان محمد ينام في المكتبة. فروت تلك الغرفة الكثير من عطشه للمعرفة. وبقدر ما أعطى محمد المدرسة مدرّسًا بقدر ما أخذ من مكتبتها. يُمضي الليالي بين رفوف المكتبة، يقرأ ويقرأ. حتى إنه كان لا ينام ليقرأ. صفة تكبر معه وهو كهل ليقول: «كنت أقرأ كي أتعلّم، أما اليوم، فأقرأ كي لا أتألم». وكلام أبيه ظل حلقة في أذنيه: «أبغاك تتعلم».

ومع تفاقم حالة الإدمان على المطالعة ذهب محمد يستعير من رشيد أفندي الغزي، أحد مهندسي السكة الحديد، ثمانين جزءًا مجلدًا من مجلة المقتطف، التي كان يصدرها يعقوب صرّوف، ويكتب فيها شبلي شميل وغيره من كبار الكتّاب في التراث والشعر والتاريخ. فإذا هو يقرؤها أو يلتهمها كلها.

كلّ ذلك وأكثر غَرَف منه محمد، معبّئًا وعاءه الثقافي، من باحات المسجد وسوق الحراج وقصص الكبار وأحاديثهم. كان يفتش في الحراج ليجد بعض الكتب، التي يعرضها أصحابها للبيع نتيجة الفقر والعوز والجوع.

ولكن نقطة الانطلاق إلى عالم القراءة كانت كلمة!

كل يوم يشبه الذي سبقه. يفيق محمد ليمر على أبيه حسين في الدكان. ثم ينطلق إلى المسجد تلميذًا عند السيد أحمد صقر. في روتين يومي. حتى إنه يمشي في طرقات المدينة بتلقائية وكأن جسده الذي يقودة لا العكس.

وكل يوم يشبه الذي سبقه لشاب لم يبلغ العشرين من عمره، عازفًا عن القراءة، كان منغمسًا في أحلام اليقظة، مشغولًا بحبّ اكتشفه، حبّ عذريّ، طاهر وعفيف. هي أحبّته. وتبادلت النظرات معه. هذا أقصى ما أمكن الحصول عليه. فكان يقول: «أحبّها وتحبّني، ونتكلّم بالصمت».

عند ترحيل أهل المدينة أيام فخري باشا والي المدينة رحلت الحبيبة. رحلت إلى الشام مع أمها. أما أبوها، فقد هرب إلى ينبع. عاشوا في الشام، وبدون رعاية. وبدون أخ أو عمّ للحماية. ثم ماتت الأم في دمشق، لتضيع الفتاة. بعدئذ استطاعت الرجوع إلى المدينة بالباخرة مع أشخاص عرفوا أباها، لتصل إلى بيتها وقد ضاع معها الحب.

وفي أحد الأيام غير المنسية، جلس محمد متربعًا أمام أستاذه الجالس أمامه على مخدّة. تعطيه الوسادةُ فوقيةَ الأستاذ. ليس لأن السيد أحمد صقر يحتاج إليها، ولكن هكذا كان النظام.

«ما تقرؤه الآن سوف أمتحنك فيه باكرًا، اِسأل إذا كان عندك استفسار، طَيِّب»، يقول السيد صقر وهو يحمل لقمة من الحلاوة بالطحينية بيد، وباليد الثانية يمسك بمجلة ألف باء الشامية.

حاول السيد أن يستمر في تناول الطعام وقراءة المجلة معًا، إلا أنه وجد نفسه ملطِّخًا نفسه والمجلة بالحلاوة بالطحينية. يحاول مرة أخرى غير أن هذه المرة تناثرت الحلوى عليه مما جعله مستاءً من فعلته والوسخ الذي وقع عليه ليقول « ما في فائدة، لازم أقوم أغسل»، ونهض السيد من مكانه راميًا المجلة على الأرض.

وقعت صفحة في حضن محمد، أخذها لا ليلحس الحلاوة، بل المكتوب عليها.

بجانب لطخة من الحلاوة وقعت عيناه على هذين البيتين للشاعر العراقي:

أنت عندي بمنزل لــم ينله غـير سلمـى وابنها إسحــاق

أنا مخرمبق(11) وغير عجول ولقد طال في الهوى خرمباقي

أخذته كلمة خرمباق وسحرته. يريد معرفة معناها. ووجد كأنها أعدت نفسها لتصل إلى سلمى وابنها إسحاق. لتضغط في رأسه زر البحث والمطالعة، وبعدئذٍ سعى للقراءة وتحفّز لها، أو بعدئذٍ اخرمبق.

استمر محمد مخرمبقًا وباحثًا عن العلم والكلمة. يعيش في عالم المدرسة ويرتقى درجات الفصول بينما المدينة خارج فصول الدراسة تنتقل من عهدها الثاني الأشراف إلى العهد الجديد الذي بدأت يفيض على كامل حدود جزيرة العرب.

بدأت عاصفة الصحراء بقيادة ابن سعود تصل شواطئ البحر الأحمر. لتبدأ معها حصار المدينة الثاني الذي دار ومحمد مازال طالبًا في المدرسة.

تدور أحداث على تخوم المدينة وتصل أخبارها إلى الأهالي. ومع كل خبر يتذكر محمد ليلة حريق القلعة وما دار من حوار بين والده والعم سيف. وكل يوم من أيام المدرسة حدث جديد يقطع الدرس. والمدينة تبحث عن استقرارها.

«يلّا يا شباب، بعد الصلاة أُلاقيكم في المدرسة، الرياضيات زيّ الجغرافيا، ما أبغى تأخير وأعذار». من وسط المسجد، وبعد صلاة المغرب، ينادي الأستاذ حسين طه على المحمّدين الأربعة. محمد سالم، محمد نيازي، محمد الياس، ومحمد حسين زيدان. مجموعة من الطلاب الحالمين بالحياة والراغبين بالعيش فيها.

وهؤلاء المحمّدون هم أوّل من تخرّج في الراقية وآخرهم.

«رياضيات وحساب وما من كهرباء، لازم الحركة والدراسة، يعني أستاذ؟ آخر مرة كاد الزيدان أن يقع فيها من على السطح»، متحايلًا يسأل محمد سالم.

«معاه حق يا أستاذ، أنا لو طحت مين يجي يساعدني؟ البلد كلّه تحت الحصار»، يضيف تحايلًا على التحايل، الزيدان.

«أيوه أيوه... برأيي نلغي حصة اليوم، ولا من شاف ولا من دري»، مستطلعًا محمد نيازي يقول.

«صحيح صحيح»، يوافقه محمد الياس. وباقي الزملاء يناشدون الأستاذ إلغاء الدرس.

«اِسمعوا لا تُكثروا من الهرج والمرج. في حصّة يعني في حصّة. والحصار على البلد مش على عضلاتكم أو دماغكم. وعشان النور، معايا أربعة فوانيس جدد، وما شاء الله نور القمر كافي. فهمتوا»، رافعًا سبّابته بصيغة الأمر منهيًا النقاش.

كانت المدينة تحت الحصار الثاني في حياة محمد، وجيش ابن سعود هو المحاصر. الدويش في قباء، والفرم في العوالي، والنشمي في العيون، وما تبقّى من قوات الأتراك بقيادة عبد المجيد باشا في قلعة سلع.

شبابًا كانوا يعيشون حياة بسيطة، لا مجال للترف. إلا في ما ندر. ويمارسون الرياضة منذ الصغر، ويوميًا من دون تعليم. السير نحو المسجد ثم الركض لحاقًا بالركعة. بعدها مشي بطيء حتى الخروج من الحرم، ليبدأ الركض مرة أخرى. وأحيانًا القفز من فوق السور والصخور وبين أحضان جبل أُحد وبين الأودية.

لكنّ الرياضيات والحساب كتعليم تعرّف عليهما محمد في المدرسة. مارس بعضًا من الحساب في ترحاله أيام الطفولة. والبدوي يعرف العد لكنه لا يعرف الأرقام. الفرق أن الرقم صفر غير حقيقي بمعنى أنه لا توجد صفر جِمال أو خيول.

وعلم الرياضيات فرضهما الباب العالي مادة في عهد الدولة العثمانية. وأُتبعت المدينة إلى ولاية دمشق الشام، بعد فصلها عن مكّة المكرّمة، وعيّن علي رضا باشا الركابي محافظًا للمدينة، وقائدًا لجيشها، ليصبح الركابي لاحقًا رئيس وزراء سوريا، ثم رئيس وزراء الأردن. وفي عهده فُتحت المدارس، وانتشرت في المدينة، حتى إنه بعد فترة لم يبق أُميّ في البلد. في القراءة والرياضيات واللوغاريتمات والموسيقى.

حتى الأنغام والموسيقى عُرفت في المدينة على نطاق واسع. ودُرّست للطلاب عامة في المدارس. والسلّم الموسيقي، الذي عرف، كان يشير إلى ما ذكره الأصفهانيّ في كتابه «الأغاني» عن عدد الأصوات. وتأسس الطلاب على السلّم الموسيقيّ التركي، حتى إنّ معظم شباب المدينة كانوا يعرفون الأسس

الغنائية، نغم الرست، وبعده نغم الدوكا، يعني صوتين ثم سيكا يعني ثلاثة أصوات. وهكذا كان شباب المدينة يعرفون العد والتركيب الفارسي لها. ففي اللغة الفارسية، الأرقام يك ودو وسي جهار وبنج.

وكان من العازفين أيضًا من الشباب عبد الستار وعلي برادة، وصديق البناني، وعمر عبد السلام، الذي كان يطرق الحديد طول نهاره، فهو حدّاد. وفي مجالسه يتعلّم الشباب منه الأنغام. أصلًا ما من بيت في المدينة المنورة كما يتذكّر محمد إلا فيه آلة طرب، العود أو الكمان. أمّا خارج السور، عند البادية تحديدًا، فالربابة. وعند أولاد الحارة والشلاوية والمشاكل وأهل الأودية حول المدينة، يتقنون المزمار من البوحي، وهو يجذب الهستيريا الراقصة، حين يقيمون «سيدي على البدري» و»الوزير» و»المزمار»، حيث يعتقدون أن فيها استحضارًا للجنّ.

والمدينة بيئة تعليمية شاملة.

بعد أن فقد الطلاب الأمل في إلغاء الدرس حمل المحمّدون الأربعة الفوانيس الأربعة. يمشي كل منهم بينما يذهب الأستاذ حسين طه استعدادًا للفصل (الصف).

«أنت امسك الفوانيس وأنا الغاز»، يقول محمد نيازي أمام مدخل الدرج.

«لا، آخر مرة أنا مسكت فيها الغاز، واتوسخ ثوبي، دورك اليوم»، يجيب محمد سالم.

«أسرع، أسرع، انتو الاثنين»، يصيح الزيدان ممسكًا بيديه عصا مشتعلة كمصباح.

«وصل الأستاذ أو احنا قبله؟» يسأل محمد سالم، وهو يأخذ آخر خطوة من الدرج. يجلس الأستاذ على الأرض وظهره متكئ على حائط يمتد حول المبنى كسور للسطح. على حافة السور نور يزنّر السطح، مضاء بنور القمر. الفوانيس الأربعة القديمة موزّعة استراتيجيًا، ومعلّقة على السور. حديدة تخرج كنتوء كحرف اللام. اسمها علّاقة، يعلّق عليها الفانوس. لا إذن من البلدية ولا موافقة استشاري، الأستاذ يبغاها هكذا.

يقف الشباب أمام أستاذهم لأخذ تعليمات تركيب الفوانيس الجديدة.

«جنب كل وحدة قديمة ركّب الجديدة، فهمتوا كيف»، مؤشّرًا على أحدهم، يقول الأستاذ: «برافو برافو عليك محمد الياس» يقول الأستاذ.

وعند انتهاء أعمال الإنشاء في السطح، يجلس كل محمد في مكانه في الفصل (الصف). يكتمل النصاب ويبدأ الأستاذ في الدرس. طبعًا من دون مشاكسة بريئة من الطلاب، التي هي نوع من أنواع الوقار والاحترام للمعلّم.

«أستاذ سمعت عن مدرّس الرياضيات الجديد. الشيخ المعمم بكاتاشي، يقولون إنه لا يعرف من الحساب إلا عدّ الريالات المجيدية التي يقبضها كراتب»، يسأل الزيدان مستظرفًا.

«أيوه سمعت فيه، بس إيش دخل هذا في درس اليوم؟»، يجيب الأستاذ حسين طه.

هنا يأخذ محمد سالم المبادرة، ويكمل الحبكة المشاكسة، محاولًا تشتيت الأستاذ عن درس اليوم: «طبعًا أكيد أستاذ تعرف عن أستاذ التاريخ والأدب الجديد بشير فؤاد، هو عالم في الحساب والرياضيات».

«يعني عندنا معمّم يقبض راتب الرياضياتجي، ورياضياتجي يقبض راتب معمّم، سياسة عثمانية أصلية، الرجل المناسب في المكان الخطأ». يقول الزيدان.

كثرت الأخطاء في التعيينات في العهد العثماني. ومردّ ذلك إلى المركزية الصارمة، التي أصبحت في اسطنبول. ومن الغرابة أن يُتهم الاستعماران الإنكليزي والفرنسي بأنهما اللذان قسّما الأرض العربية. ففي العهد العثماني حاكم الإقليم لم يكن يستطيع أن يعيّن موظفًا أو يفعل شيئًا من شؤون الإدارة إلا بعد أن يستأذن السلطان، ما يُحدث لا مركزية إدارية شديدة الظلم يتمتع بها الحاكم. ومن قوة هذه المركزية، ما حدث في تعيين أستاذ الرياضيات في مدرسة المدينة، التي أسّسها السلطان عبد الحميد. كل سنة يضاف فصل أعلى، لذا احتاجت المدرسة إلى أستاذ رياضيات للمراحل العليا. فكتبوا إلى الديوان السلطاني فوصلهم الأستاذ الذي طلبوه. معمّم لا يجيد الحساب إلا أيسره وأبسطه. وفي الوقت نفسه طلبوا أستاذًا للتاريخ والأدب، فوقعت القرعة على أستاذ الرياضيات المعروف مدينيًا بشير فؤاد. وهكذا يمكن قياس معظم التعيينات في عهد عبد الحميد.

يستدرك الأستاذ حسين طه المناورة الطالبية ليعيد التركيز على الدرس. وبينما هو يقرأ عليهم تضاء فجأة سماء الليل. وميض تلو وميض تلو وميض

يخرق السواد، مغطّيًا على نور الفوانيس في السطح. ثلاث قنابل متوجّهة من الجنوب. يطير الوميض ويلحقه صوت انفجار. كلها في طريقها نحو فصل (صف) الأستاذ حسين طه.

«أستاذ هذه قنابل من قلعة سلع»، يصيح محمد نيازي.

«احتموا يا شباب، بسرعة حتّى لا تسقط علينا»، يصيح الأستاذ حسين على الجميع منتفضًا من مكانه، وهو يقف محاولًا إقامة درع حديدي وهمي بجسمه لحماية الطلاب من القنابل.

وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى سقطت القنابل الثلاث بالقرب من الفصل (الصف)، وبجانب إحدى المزارع. لينهض الجميع مسكونين بالذعر والخوف على الأهل. فينهي الأستاذ الدرس حالًا قائلًا: «روحوا على بيوتكم اطمئنوا على الأهل، الدرس خلص، ويا رب مع موسم الحج بعد كام يوم تهدأ الأمور أو يخلص الحصارً».

نزل الطلاب من فصلهم الدراسي في السطح وذهب كل منهم إلى بيته مشيًا سريعًا خوفًا من قذيفة طائشة. وبالفعل هدأت الأمور مع بدء موسم الحج. فكان للهدنة المرحلية أثرها على الأهالي والأبناء.

أصبح يقضي محمدٍ وقتًا في الدكان مساعدًا أبيه. فمن آثار الهدنة أن انتعشت التجارة قليلًا. وفي يوم جمعة ذهب محمد يستعدّ للصلاة في المسجد النبوي. وهم بإغلاق الدكّان. وكان يغلقه بإنزال باب المحل الحديدي غير المزخرف، لا داعي إلى الكماليات والشكليات، فالدكان تُباع فيه الحبوب والموادّ الأولية للبناء، وما من وسائل حماية، فقط قفل من حديد عتيق، يمكن كسره، وفتح الباب، ولكنّ صوت التكسير والاقتحام كافٍ لإنذار الجيران بعملية السرقة.

في هذه الأيام قلّ ذهاب والده حسين إلى العمل، فهو يريد قضاء وقت أكثر مع الأصدقاء في مخيّمهم. يحبّ حياة البادية وقصصها، لذا اختار مع صديقه أحمد بن جميعان بستانًا في القاضية ينصبون فيه مخيّمهم. في موقع قريب من البلد، وبعيد عنه في الوقت نفسه.

وجد محمد نفسه يتحمّل أعباء التجارة أكثر مع كل يوم، إلّا أن ذلك لم يمنعه من مواصلة حبّه للتعلّم والقراءة، وتحديدًا في حلقات المسجد النبوي، حيث يجتمع العلماء والطلّاب، وبعض الأصحاب. كان هذا في العام ألف وثلاثمئة واثنين وأربعين هجرية، في موسم الحج، والمدينة المنوّرة تحت العهد

الشريفي، وأميرها يوم ذاك هو الشريف فيصل بن الحسين. وقد رآه محمد مجتمعًا في باحات الحرم، ومصلّيًا فيه مرات متعدّدة. ويصفه بطّيب المعشر. ضاجّة هي باحات المسجد النبوي. حجّاج وباعة وطلّاب علم. ومن بين الجموع وجد محمد صديقه السيد مصطفى عطّار، ومعه مجموعة من الحجّاج الإيرانيين.

«هلا بالسيد، كيف حالك، زمان الغيبة» يحيّي محمد صديقه.

«أهلًا أهلًا، كيفك أنت، لحظة لحظة»، ثمّ يلتفت السيد مصطفى إلى يمينه صائحًا «يا حجّي يا حجّي، وقّف عندك، لحظة لحظة. لا لا لا»، ويربّت كفيه مبتسمًا السيد.

«الله يعينك على المسؤولية، أنت لسه معاك حجّاج إيران؟» يسأل محمد.

«شوف يا صاحبي والله هذا الموسم تعبت تعبًا كتيرًا، تخيل وصل الحجاج وما دفعوا كامل الدليل»

«وبعدين؟» .

«أبدًا تحمّلت أنا أجر الدليل».

«يعيني صرت متلاف. بس كم المبلغ؟»

«والله كتبت صكًا ملزمًا عليّ، المبلغ هو سبعة عشر ألف جنيه، والحجّاج معهم ثلاثة عشر ألفًا فقط».

«طيّب والشيخ الصميدي صاحب الخفارة أيش عمل؟».

«ما استلم، وطلب الدين والحجّاج صاروا يضغطوا حتّى يمشوا إلى مكة، وأنا تحمّلت المسؤولية. كتب الصميدي «وصلني الدين»، وصرت متلاف. تخيّل ثلاثة عشر ألف حاجّ إيراني سلّمهم آمنين ابن ناحل لولد عمه الصميدي ومحميّين بالفرمان السلطاني».

«وبعدين كيف وفيت الدين؟»

«شوف يا سيدي اسمع الحكاية كلها، بس لحظة معليش، يا حجي الله يرضى عليك خليك أنت والحرمة قريب لا تبعد».

«يا حجّي يا حجّي لا تبعّد ترى إذا ضعت ما ترجع»، ويضحك محمد مع السيد مصطفى الذي يحمل سبحته بيده ليكمل حديثه» : شوف يا سيدي توسّط كبار الحجّاج الإيرانيين عند الأمير فيصل بن الحسين حتى يتوسّط لهم عند فيصل الأحمدي من شيوخ الأحامدة، ويقبل ما لدى الحجاج الإيرانيين، وهو أقلّ من المقرّر».

«عند الشيخ فيصل الأحمدي، أعرفه، طويل طويل جدًا، وله قيمة».

«أيوه وصلت يا سيدي هو نفسه» .

«وبعدين؟».

«المهم فاوضوا الأمير فيصل. وطلب منه أن يأخذ ما تيسّر ليمرّ الحجّاج وبدون معارضة».

«وافق ولا إيش؟».

«لا أبدًا أبدًا ما وافق. بالعكس قال كلامًا والله ما أقدر أعيده».

«لا حول الله، ترى كلام الرواة فيه مبالغة ومزايدات يا سيد».

«صحيح صحيح، بس كل الي أقدر أقوله إن الشيخ فيصل قال: (يدفعون المقرر كاملًا وإلا فدونهم خشم المسيجيد)».

«طيب وكيف دبّرتوا المبلغ؟».

«تصدّق سلّفت بعضهم المبلغ. وغيرهم من الحجاج اقترض من السوق».

«فيك البركة سيد، فيك البركة».

«بس يا محمد يعني ما فهمت حاجة انت تقدر تفهّمني إياها، ليش ما غيّر الشريف عن طريق الحجّاج، أو غيّر المحمل؟».

«كيف يعني؟ يغيّر المسار، لا، لا، ما يعملها الشريف».

«ليش؟».

«هذه الطرق مرسومة من الحكّام والسلطان العثماني. يعني ما في لعب. كان ممكن الشريف يعدّل مسار المحمل ويكلّم ابن بنيان، ويمروا الحجاج من طريق الجسة وحرشة والفاير في خفارة عوف، وبعدين في خفارة بشر، ومعبد والبلادية، بس لا ما يسوّيها الشريف».

« فاهم فاهم بس ليش لا؟».

«يا سيد، الشريف لا يريد تغيير ما وضعه الحكّام من امتيازات. وكمان لا يريد أن تكون عوف ومن إليها ومع ابن مبيريك وهم على خصام مع الأشراف، ويسحب الامتياز من الأحامدة».

«يا سيدي، محمد هذا شغل البدو، أنا ما أعرفه».

«يا سيد، هذا مو شغل بدو، هذا نظام قديم من أيام زمان وبعيدة وهي حامية البلد». يجيب محمد.

«انت تحب الجغرافيا والتاريخ يا سيدي، طيب على كيفك». يقول السيد وهو يرمي بسبحته بين أصابعه ضاحكًا.

الأرض كروية والسبب في زواجه الثاني

نحن في دولة الأشراف، أو العهد الثاني في حياة محمد وقد أصبح الآن في المرحلة النهائية من الدراسة. سبق الكثير من أقرانه معرفة، لأنه لم يكن يلحق الطلاب ليلعب معهم، بل يستغل فرصة غياب الطلاب الأكبر منه سنًا، تاركين كتبهم ليتصفّحها ويمسحها بعقله. مثل آلة المسح الإلكترونية. وهو معروف بسرعة القراءة والاستيعاب. والأدهى هي سرعة استرجاع المعلومات في لحظة نقاش أو حتى كتابة.

لاحظ الأساتذة تفوق محمد، فطلبوا منه مساعدة زملائه في الدرس. عارضين عليه تعليم من هم أصغر منه سنًّا. ليغدو محمد أستاذًا لأصدقاء كثر في المستقبل.

وفي أحد الأيام حين قاربت شمس طيبة على الغياب، ومع بروز الشفق الأحمر في الأفق كان محمد ينتظر صديقه درويش سلامة، مستندًا على أسطوانة في المكان المحبب إليه، في رواق الرحمة في المسجد النبوي، والمصلون من حوله يدخلون ويخرجون من الحرم ومعهم طلاب المسجد النبوي.

طلب مدير المعارف الشيخ عبد القادر الشلبي من محمد تدريس زميله درويش مادة الجغرافيا، في كتاب من تأليف «شيمزد» الفرنسي، وترجمة توفيق البردعي. ومادة الجغرافيا تعتبر من المؤهلات الأساسية في ذاك الزمان. فلا نجاح في التجارة أو السياسة أو حتى المقدرة على السفر من دون علم عن التضاريس والمواقع وأسماء المدن الكبيرة.

جلس محمد ممسكًا بكتاب الجغرافيا منتظرًا. والوقت بدأ وكأنه يتباطأ. ودرويش لم يظهر في المدى القريب. ثم في لفتة مزاح ظهر درويش من خلف محمد يريد إخافته. ليقابله محمد غير متأثرٍ بل مستاءً.

«وينك اتأخرت؟». يسأل محمد صاحبه التلميذ درويش.

«معليش، بس أمي طلبت غرضًا وطال الطريق لعندك، اسمع عندي امتحان ولازم أعدّيه دخيلك هه». يجيب درويش. مستسمحًا أستاذه الصديق وهو يلهث.

«طيّب طيّب، يلا نبدأ.» يقول محمد.

«شوف يا محمد أنا خلصت من الامتحانات الخصوصي، وقدرت أطلع للسنة الرابعة، لازم أكمل وأنجح في الباقي»، يتنهّد درويش، مشاركًا أستاذه الطالب محمد بعضًا من خططه المستقبلية.

«خيرًا، إن شاء الله يتحقق كل ما تتمنّاه، خلينا ندخل في الدرس، سؤال هل الأرض كوكب؟ وهل هي كروية أم مسطّحة؟» يبدأ محمد الدرس بهذا السؤال الذي عم فضاء علماء الجغرافيا نقاشًا.

لم يكن موضوع كروية الأرض قد حُسم في الجزيرة العربية على نحو عامّ. وظلّ محل جدل بين جيلين، جيل الشباب، وجيل الشياب. حتى عُدّ من يرى بكروية الأرض تقدميًا، والعكس صحيح. في جدلية امتدت في بلاد العرب من الشرق وحتى الغرب.

وامتدّ هذا النقاش إلى داخل أسوار المدينة، وتحديدًا في باحات الحرم النبويّ، حيث لم تنقطع يومًا من علم أو عالم. وكل المواضيع كانت تُطرح للنقاش في ساحاتها. فلقد عرفت باحات المسجد النبوي الكثير من العلماء.

من المغرب العربي كان هناك حمدان بن الونيس والعزيز بن الوزير وعبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي وعمر حمدان المحرزي. معهم أيضًا الطيب العقبي والشيخ الحبيب يرادفهم الشيخ حميدة ومحمد الطيب الأنصاري المعروف بالتمبكتي والخضر بن مايابي الجكني الشنقيطي. وزعيم التكارنة الألفا هاشم الفلاتي.

ومن الهند عرفت المدينة وحرمها عبد الباقي الأنصاري، حسين أحمد، صاحب بذل المجهود في الشرح على أبي داود. ومن مصر، الشيخ العايش، الأخميمي، محمود شويل، مصطفى صقر، محمد صقر وحسن الشاعر. ومن القصيم صالح الزغيبي ومحمد العلي التركي.

ومن الشام عبد القادر الطرابلسي، عبد القادر الشلبي، وجمال الدين القاسمي.

ومن أفغانستان حبيب الرحمن. وغيرهم كثير.

برز من المدينة بعض من أهلها، منهم المفتي الداغستاني، أبو بكر الداغستاني، جعفر البرزنجي، أحمد البرزنجي، وابنه زكي البرزنجي، إبراهيم البري، وابنه عمر البري، محمد زاهد، مأمون بري، وابن أخته عمر الكردي، حفيد الشيخ إبراهيم الكردي، الذي أخذ عنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحمد كماخي أيضًا.

كلهم بروفسورات علم في أعرق الجامعات الإسلامية الحرم النبوي الشريف. ومحمد ودرويش عند باب الرحمة يستقون ما تيسر من علم يصنع في باحاتها وأروقتها.

ينهمك الاثنان في درسهما، يشرح محمد ويمثل درويش. يضحكون قليلًا لتأخذهم الجدية حينًا. لا يلتفت اليهم أحد من المارة فقد تعود الناس منظر طلاب في حلقة درس. لكن هذه الحلقة لفتت انتباه معلم كبير من الحرم.

حلقة لفتت نظر الشيخ محمد العلي التركي، وتحديدًا الموضوع. ليتوقف عندهما الشيخ سائلًا محمد: «ما هذا الكتاب الذي في يدك؟».

قام الطالبان من أرضهما منتصبين إجلالًا لهذا الشيخ العالم الكبير، كان الشيخ محمد العلي التركي في تلك الأيام يلبس الغالي، مشلح أبو شهر مقصّبًا، وثوبًا بفتة وشالًا كشميريًا.

«كتاب جغرافيا». يجيبه محمد.

«وفيه عن الكرة الأرضية؟» يتساءل الشيخ وبيده مِسواكه.

«ليست الأرض كرة، بل هي كوكب من الكواكب»، يقول محمد مؤشّرًا على الكتاب.

«جيد، جيد، والأرض كروية أيضًا مثل باقي الكواكب!» يقول الشيخ مستطردًا.

«نعم يا شيخ، الأرض كوكب من الكواكب، وكلها كروية، والأرض مثلها، لقد حقّق العلماء هذا بالدراسات والأبحاث والنقاش العلمي». يقول محمد بحماسة فيها الكثير من التواضع.

أرخى الشيخ مسواكه قليلًا وأخذ يناقش محمدًا في الأمر. سؤال من الشيخ وجواب من محمد. ودرويش بينهم يسمع. ليأخذ الحوار تدريجيًا ينحو منحى الجدل.

والمعرفة بين الشيخ التركي ومحمد، قديمة. فالشيخ اكتشف نجابة محمد مبكّرًا. واستمتع بنباهته أكثر. وأما محمد، فلا ينسى فضل هذا الرجل الجليل عليه. مواقف انتصر فيها هذا الرجل الأسمر البشرة له. في علاقة وثيقة تتخطى التعليم.

امتدت العلاقة بينهما بأن يستشيره محمد بالذهاب إلى البعثة التعليمية في مصر، مع السيد أحمد العربي، والسيد محمد شطا، والسيد ولي الدين أسعد. فكان جواب الشيخ بأنه، أي محمد، لديه ما يكفيه من العلم، والزواج أولى. أخذ بنصيحته وتزوّج واحدة من بنات العزوة، مريم بنت حسن العامري المطيعي هو عقيصي، وهي عامرية، أنجب منها ابنته الأولى فاطمة ولكن الزواج لم يستمر. منتهيًا بطلاق محمد منها.

اتّسع الجدل قليلًا، كان جدلًا بسيطًا فيه الكثير من تواضع الشيخ ومن طاعة التلميذ. وتتوسع الحلقة. لينضمّ إليهما بعض الحاضرين، وكان منهم ياسين القين، ابن عمّ الشيخ عبد اللّٰه القين.

يتابع العم ياسين الحوار مأخوذًا بطريقة محمد في النقاش. تحليل منهجي وكلام منطقي ومعلومات والأهم احترام واضح.

«ما شاء اللّٰه عليك يا زيدان، الأرض كروية طلعت. شكلك معاك حق. ولكن أنت أيضًا شاطر»، يقول ياسين القين معلنًا إعجابه بمحمد. ثم يكمل: «أكثر ما عجبني هو تواضعك مع حجم معرفتك».

فما كان من محمد وهو صاحب الكلمة المجنحة الا بأن جاوب قائلًا: « يا سيدي تعلمت من الكبار أن أقصى درجات الاحترام والوقار يكون حين يتواضع الإنسان مع غرور معرفته».

ينشرح الشيخ التركي من كلام محمد مباركًا فيه على ما أجاد في الوصف معنى وشكلًا. والعم ياسين يزداد إعجابه بالطالب النبيه محمد. حتى إنه من فرط إعجابه ذهب لإبلاغ والد محمد ما جرى، مبشّرًا ومعجَبًا.

مرت الأيام والسنوات، ومحمد أراد الزواج، هذه هي المرة الثانية. وإذا بياسين القين، صديق والد محمد، والمعجب به، يقول: «جارنا أبو داعوس له فتاة تصلح زوجة لمحمد». وهو ما حصل. بشر العم ياسين أهل فاطمة أن العريس محمدًا كاتب ومفكر. والأهم من ذلك يعرف الجغرافيا. ويستطيع إثبات كروية الأرض.

لكن دليل محمد أو شهادته التعليمية لم تكن معتمدة. ذلك عند حصوله على الثانوية العامة كانت المدينة تعيش الانتقال من العهد الثاني الى الثالث في حياة محمد.

شهادة المدرسة يوقعّها عسكري

لم يكن محمّد قد بلغ العشرين من عمره. انتهى الآن دور المدرسة. أواخر العام ألف وتسعمئة وأربعة وعشرين ميلادية. يومئذ أقامت المدرسة الراقية(الناصرية فيما بعد) احتفالًا بأوائل المتخرجين منها. أربعة «محمّدين». محمد سالم الحجيلي، محمد حسين زيدان، محمد الياس، ومحمد نيازي. اثنان من خارج السور، واثنان من داخله. هكذا هو التصنيف الاجتماعي.

استُهلّ الحفل بكامل توفيق وأسعد توفيق. الأخَوان يتلوان آيات من القرآن الكريم. بدون أجهزة صوتية من مكيروفونات وسماعات. فقط صوتهم في القاعة المدرسية. وأُقيم الحفل في صالون المدرسة، لا زينة أو تكلّف. ولا زهور أو جوائز. فقط أربعة متخرجين، والمنتسبون إلى المدرسة والمسؤولون.

جال نظر محمد في الحضور يبحث عن والده. يجلس الحضور على كراسٍ من الخشب، بعضها من مكاتب الإدارة وهي في الأمام والأخر كراسي الطلاب للأهل. هناك وعلى كرسي المدير المميز وفي صدر المجلس جلس أمير المدينة حينذاك الشريف علي بن الحسين، قبل أن يصبح ملكًا على الحجاز، بجانبه عميد المدرسة الشيخ عبد القادر الشلبي، ووكيل الأمير الشريف أحمد بن منصور. وطبعًا من استطاع الحضور من أهالي المتخرجين.

والمتخرجون الأربعة عند طرف الصالة لا لباس يميزهم ولا طاقية سوداء على رأسهم، أعينهم الفاحصة في المكان تفضح هوياتهم: شباب متحمس يحمل شهادة علم.

«محمد، يا محمّد سالم شايف أبويا؟». ينادي محمد على صديقه.

«أبوك فاضي، الله يعينهم على الوضع، لا شغل ولا حركة، وحصار قايم» . يجيب محمد سالم.

«معاك حق، معاك حق، بس يخلص الحفل نشوف كيف نأخذ الشهادات كمان». يجيب محمد صديقه.

والمدينة كانت تحت الحصار الذي تفرضه قوات الملك عبد العزيز. إنها الأيام الصعبة. أيام كان فيها الاحتفال بأي مناسبة ترفًا لا يقدر عليها أحد.

المدرسة أسّسها السلطان العثماني عبد الحميد. وهي في باب المجيدي بين المسجد والباب. كان اسم المنطقة المناصع. وراءها يقع بيت الشيخ العزيز بن الوزير، وبيت السيد حمزة رفاعي. والمدرسة في أساسها نتاج أربع مدارس. جُمعت في واحدة لشحّ الموارد. المدرسة العلوية يديرها ياسين كردي. المدرسة العبدلية يديرها أحمد صقر. والمدرسة الفيصلية يديرها السيد حسين طه. أخيرًا المدرسة الزيدية يديرها الشيخ عبد الحي خضير.

وقتذاك كانت المدرسة قسمين: الراقية والتحضيرية. وبينهما فصل اسمه التأهيل. التحضيرية ثلاث سنوات، والراقية أربع سنوات. هكذا قُسمّت السنين الدراسية.

لم يكن هناك منهج. فقط اسم الدرس. النحو والجغرافيا والتاريخ وغيرها. ولم يكن مكتوبًا وملزِمًا للمعلم. مثلًا الحساب من معرفة الأرقام، النسبة والتناسب، والربح البسيط والربح المركّب وهكذا. وكان هناك درس ليلي يقدّمه السيد حسين طه، المعروف ببراعته في الأرقام والرياضيات. ليضيف إليهما الجبر واللوغاريتمات، ولمن أحبّ من الطلاب.

للمدرسة عميد ومدير. العميد هو الشيخ الشلبي. والمدير هو السيد حسين طه، وكيله السيد أحمد صقر. وكلاهما ابنا عمومة جمازيان حسينّيان... والمعلمون هم السيد محمد صقر، السيد ماجد عشقي، العريف محمد بن سالم، الأستاذ سعيد المدرس، والشيخ محمد الكتامي، والمراقب أبو بكر جاد، وهاشم كماخي. كل هؤلاء أساتذة وأولياء أمور.

ثم في خضم الحفل يسأل محمد أستاذه مارًّا من أمامه «فين الشهادات سيد؟».

«لم تُطبع بعد» يجيب السيد أحمد صقر، وكيل المدير باقتضاب وهو يستمر في المرور أمامه.

«بس راحت علينا يعني، شهادة من دون توقيع»، يقول محمد بينما يجلس على مقعده.

حتى إذا انتهى الأخوان توفيق من تلاوة القرآن انتهى الحفل. فجأة وبدون ترتيب قام الأمير من كرسيه مودّعًا العميد وبعض الحضور. فقد وصلت الأخبار أن هناك اشتباكات عن أطراف السور وأن الوضع أصبح خطرًا على حياة الشريف علي. تاركًا الحفل وراءه ومعه الطلاب يبحثون عن شهاداتهم.

وجد الطلاب أنفسهم خريجين بدون شهادة تخرج مصدقة. ولم يجد الطلاب من يختم لهم الشهادة. وفي وسط حيرتهم في منتصف الحفل الذي لم يكتمل ظل الطلاب يتباحثون بينهم تحت صوت الرصاص. والقذائف يسمع صوتها عن بعد. اشتد النقاش أكثر مع اشتداد ضجيج صوت القذائف. حتى أوقف السيد محمد صقر الجدل السيد قائلًا:

«اذهبوا عند عبد المجيد باشا (الحاكم العسكري)» هو يوقّعها لكم.

ثم ودعهم السيد. تأمل الطلاب فيما بينهم عن الحل المقترح. فوجدوا أن لا خسارة من المحاولة. فالباشا أو القائد العسكري حاكم بأمره في المدينة وقد ذاع صيته. لربما يكون عنده التصديق. عندها ذهب الطلاب إلى قلعة سلع، وعند الثكنة العسكرية، وإلى الباشا. يحملون شهاداتهم غير الموثقة. وأمالهم الكبيرة معلقة عنده.

يومئذٍ كان يحكم المدينة أربعة حكّام. أحمد بن منصور وكيل الأمير علي بن الحسين، عبد الله عمير رئيس الديوان، الشريف شحّات بن علي، قائم مقام المدينة. وعبد المجيد باشا، القائد العسكري. الذي يسميه البدو (الهوند) لا لأنه قصير القامة بل لأنه كان مدفعيًا والمدفع يعرف بالهاون فأبدلوا بالهاون الهوند. ولم يجتمعوا يومًا للتنسيق، دلالة على حجم التنافس، وضياع القرار في تلك الأيام.

يجلس الباشا في قلعته. حارس وحيد يخدم معه. يملؤه الوجوم. لا يجرؤ على ترك الباشا، فهو لا يعرف إلا اللحاق به، إلى الموت أو النصر. على طاولته خريطة الشرق الأوسط الذي بدأ يشرح ويقسم وبجانبه ختمه المراد ومسدس أبي أصبع. الخريطة تشرح بوضوح انحسار نفوذ سلطته ولو كانت تتكلم لأبكت كل من سمعها. فهي تطعن من القريب والغريب. والختم كان أداة توقيع وتوثيق عندما كانت هناك سلطة. أما اليوم، فلا سلطة إلّا من مسدسه أبي إصبع. يحتفظ فيه برصاصة وحيدة لنفسه.

يدخل الخريجون ليقف الحارس حائرًا أمامهم. في ذهنه يتساءل إن كانوا هم الوفد لمفاوضات التسليم. يطلبون رؤية الباشا لغرض خاص. فاشتد عود الحارس ممارسًا سلطته المتلاشية تدريجيًا مع خريطة سيده. لكن الباشا صاح من الداخل إذنًا لهم بالدخول.

يدخل الطلاب وأمامهم الجنرال الهوند على مقعده والدخان يغطي الغرفة. وما إن ينقشع الدخان تقابلهم نياشين الباشا على صدره، التي حصل عليها فى معارك متعدّدة. يجلس على مقعده مِنذ مدة طويلة، فلباسه غير مكوى

وهوّ معروف عن انضباطه العسكري. مطلقًا لحيته يجول بنظره على الطلاب فاحصًا ومتفحصًا.

«آيش في، من أنتم؟». بلهجة حسرة يقول الباشا.

وقف الطلاب أمامه في صف واحد. فتأثير ما تبقى من انضباط تغلغل عندهم. «طلاب المدرسة الزاقية باشا، جئنا جنابكم لختم الشهادات» .يقول محمد نيازي ويخطو خطوتين للأمام والحارس يقترب منه.

«شهادات! أنتم العرب غريبون، تعرفون الحرب والحصار، لكنّ الشريف لا يعرف كيف يوثق؟» يقول الباشا بتهكم عاضًّا على شفتيه هازًّا رأسه.

«الشريف علي رحل إلى جدة، وقوات ابن سعود خارج السور، وما من مسؤول غيرك» يستدرك محمد سالم بتهكم مماثل.

«سيدي الباشا، أنتم معروف عنكم حبكم للمدينة، ولقد نصحنا أستاذنا السيد صقر بأن نأتي إليكم لهذا الغرض»، يكمل محمد نيازي الحديث، وهو ينظر إلى محمد سالم كأنه يقول إن هذا الرجل ما زال حاكمًا عسكريًّا ويجب احترامه.

«رجل نبيل هذا السيد» يجيب الباشا ثم ينظر إلى الخريطة أمامه متأملًا للحظات بعدها يستمر والطلاب يتابعون نظره في أنحاء الغرفة: «بعد كم يوم لن يكون هناك باشا، ولا عسكر، هات هات أصدّق».

ختمها العسكري وفرح الطلاب بشهادة عليها ختم باشا. ختم مرحلة انتهت ليبدأ بعدئذٍ عهد جديد، والمدينة ما زالت محاصرة.

خرج الطلاب كل إلى بيته. ومحمد يخرج مع صديقه محمد سالم خارج السور الذي مازال يقسم المدينة إلى عالمين. لكن لهذا السور موعدٌ مع العهد الجديد. وكأن هدم سور المدينة له رمزية. فقد هدم الحواجز النفسية لدى محمد. لهذا لقب العهد الثالث بالكيان الكبير. شاهد من أهل خارج السور على دخول المدينة عهدها الجديد.

تلك الأيام نداولها بين الناس

صوت جمال ظمآنة يكسر حاجز السكون. والرجال يستلقون على الأرض مرهقين يغطيهم الرمل تحت ظل نخلة. معهم محمد الذي أنهى دراسته بشهادة موثقة من عسكري وبدون عمل أو سوق عمل حتى.

«والله ودّي أرجع الديرة وأرتاح... كم صار لنا مخيّمين؟». سأل أحد الجنود وهو يتمدّد على الرمال.

«لنا قريب السنة، والحصار مطوّل شكله» يجيب محمد.

بين النخيل وظلاله، وفي منطقة العيون والزهرة شمال المدينة شمال الحرم خيّم جيش ابن سعود بقيادة إبراهيم النشمي الأسعديّ العتيبي. أصاب الجنود العطش وانتابهم الأرق. هم بين بئر ماء وفرشة أرض. لم يذوقوا طعم النوم لأكثر من عشرة أشهر. الفترة التي امتد فيها حصار المدينة، الثاني في ذاكرة محمد.

اشتدت المعارك في مدن الحجاز الكبرى، في الطائف ومكّة وجدة، وغيرها من القرى. وذهب كل حي في كل مدينة يبحث عن الأمن.

كانت المدينة في قلب الحدث دائمًا. لأنها قريبة من نجد كقربها من الشام. سكنها الكثير من هؤلاء. تحوّلات عسكرية تجري بسرعة في دمشق. صحيح أنّ فيصل بن الحسين أخرج الأتراك من الشام، لكنه ما لبث أن أُخرج من هناك، ومن بوابة ميسلون. فقد اقتُطعت أنطاكيا وسائر المشرق لمصلحة الفرنسيين، أحفاد شارلمان. أما نجد وملحقاتها، فقد استتب الأمر فيها لابن سعود. هو السلطان، كما لُقّب حينذاك.

استعجل فيصل الدويش الملك عبد العزيز الذهاب إلى المدينة ومحاصرتها، إلّا أنّ ابن سعود أراد تجنّب تكرار حوادث دموية جديدة. حتى إنه أرسل إليه الشيخ عمر بن سليم، شيخ نجد، ولم ينجح في ثنيه. فأرسل عبد العزيز ابن المدينة، وابن قبيلتها، وأخا حسنة عبد المحسن الفرم، شيخ بني علي، أهل العوالي والقصيم من شماريخ حرب من مسروح.

أرسله للحماية. فهو، أي ابن سعود، يعرف أنه سيكون الحامي لسكان داخل السور في المدينة من قبائل أرضها. فأهل البادية لهم فيها صديق ورفيق

وحليف. حتى إن كل عائلة حضرية تقريبًا لها حليف من البادية، نظام حماية، أو للدقة تقليد توارثه الأحفاد من الأجداد.

خشي ابن سعود على المدينة من الدويش، ولم يخشَ عليها من أهلها. وتحديدًا بعد تفرّق جيش الشريف وتمزّقه. الجيش الذي ضم أكثر من ثلاثين ألف جندي كلهم مرتزقة. رحل معظمهم ولم يبق إلا الضابط عبد المجيد باشا العسكري العراقي في ثكنة سلع. الضابط الذي منع الحرب أيضًا عن المدينة.

ثلاثة جيوش جديدة طوّقت المدينة. فيصل الدويش في قباء بعيدًا من سور المدينة، يفصله عن الحرم جيشان. جيش الفرم في العوالي وجيش النشمي في العيون. لا يستطيع الدويش اقتحام السور إلّا بعد المرور من خلالهم.

طال الحصار على الجميع. لا بل أراد ابن سعود إطالته. آمرًا النشمي أن يُجزل العطاء لمن يأتي من أهلها. فكان يجيء بعض أهل المدينة، وبعد صلاة العصر إلى العيون لأخذ ما تيسّر من حنطة أو تمر. كل ذلك رغبة وحرصًا من ابن سعود في ألّا يفتح المدينة حربًا، لكن البعض من أهل المدينة في داخل السور أرادوا التحرك. وضاق بهم الحال وهم لا يعرفون مصيرهم، يخافون من المستقبل. ويخافون من مجازر ارتُكبت في مدينة الطائف. ويتذكّرون حصار مدينتهم أيام الأتراك. ويخشون ضياع امتيازاتهم الاجتماعية.

ثمّ فطنوا إلى حيلة.

أبرق بعض أهالي المدينة إلى شاه إيران أحمد بهلوي، رسالةً يدّعون فيها أن ابن سعود يضرب القبّة الخضراء، حجرة النبي محمد، بالرصاص، متّخذين من أحداث تخريبية كانت قد جرت لبعض المقامات على يد الإخوان ذريعة، تهمة على قياس أعمالهم. جسمهم «لبّيس»، وقد كان لهم ذلك بعد طلب ملك مصر فؤاد التفاوض ودخول الإنكليز على الخط.

في اعتقادهم أنّ تهمة التعدّي على الروضة الشريفة كافية لإثارة المسلمين، وبالحدّ الأدنى قد تؤدّي إلى إنهاء الحصار، وتراجع قوات ابن سعود.

بالفعل احتجّ شاه إيران، ومعه ملك مصر وغيرهما من الزعماء المسلمين، وطالب الشاه بتفتيش الحرم النبوي، والوقوف على التعديات المزعومة، مُطالبًا بتأليف وفد للزيارة، يكون لجنة تحقيق، ومحاسبة للمعتدين.

قبِل عبد العزيز التحدي، فهو يعرف الجغرافيا، ويعرف أكثر مواقع قواته. هو يعلم أن جيش الإخوان، فيصل الدويش، يقف بعيدًا من الروضة. والوحيد

الذي يستطيع أن يستهدف المسجد هو ابن المدينة الشيخ الفرم، فهو على جدار البقيع، والروضة في متناول اليد. والفرم لن يهتك حرمة المدينة، لن يهتك عرض أهله، فما بالك بالتعرض لقبر الرسول. وافق عبد العزيز على إرسال شاه إيران سفيره للتحقيق في مزاعم التعدي.

أرسل الشاه سفيره في جدّة شمس الملك يرافقه أحمد لاري. وما هي أيام حتى وصل إلى المدينة من الطريق الشرقي، وليس الخط السلطاني الذي مازال تحت سيطرة الأشراف. من هذا الطريق الذي يصل إلى العيون حيث خيم جيش النشمي ومعهم محمد.

«يا شيخ يا شيخ» يصيح الجنود بحماس منادين أميرهم إبراهيم النشمي.

«أمسكنا هالأجنبي ومعاه واحد جداوي... أمسكناهما يبغوا يدخلو المدينة».

علا صوت الجنود وهم يتوجهون نحو خيمة النشمي، وبنادقهم مصوّبة نحو الرجلين.

يخرج النشمي من خيمته، متوسط الطول هو عاقد الحاجبين. يحمل على كتفه عباءته ولا يلبسها. يبدو أنه كان يأخذ قيلولته. لكنه فاق من كثرة الصوت. يمشي قليلًا ثم يتوقّف. ليمشي بعدما تأكد من حمل سيفه. ويقترب من جنوده سائلًا الغرباء:»من أنتم؟».

«قبضنا عليهما عند المخيم، وقال «... . فورًا يُسكت النشمي الجندي الذي تطّوع للإجابة بنظرة ليعيد السؤال.

«من أنتما؟ ومن أرسلكما؟».

«أنا اسمي أحمد لاري من جدة، جئت برفقة السيد شمس الملك، سفير شاه إيران» يجيب أحمد لاري بكل احترام.

استغرب النشمي تحدث أحد الغرباء بالعربية، غير أنه وبمهارة وذكاء بدوي أخفى استغرابه مكملًا التحقيق يسأل: «من مكّة ومن إيران! ما شاء الله، ما شاء الله، طيّب وبأمانة مين؟».

«جيناك وبأمانة ابن سعود وهذا كتابه لكم». يتقدم أحمد لاري تجاه النشمي بخطوة ويده ممتدة حاملة الكتاب. وحالما حاول أن يقرأ كتابه تأهب الجند مصوّبين بنادقهم نحوه.

«شوية شوية... هذا الكتاب اقرؤوه»، يرفع يديه بإشارة لعدم السوء ويسلّم الكتاب لأحد أعوان النشمي بجانبه. تنحى العسكر بعد اقتراب النشمي إليه يقول: «ترى لو تكذب سأقيم عليكما الحد»، وأكمل «مين فيكم يفك الحرف؟»، يسأل النشمي وهو يجول بنظره على جنوده، يبحث عن أحد يعرف القراءة.

التفت الجند بعضهم إلى بعضهم وهزّ كل منهم رأسه بالنفي. أصاب النشمي باستياء وملل بدأ يتحول إلى غضب. ثم صاح أحدهم من الجند في الخلف «الزيدان الزيدان... يعرف يقرأ».

«نادوا عليه» يقول النشمي مشيرًا بسبابته.

جاء محمد وأمامه مشهد خطير. سفير إيران مبعوثًا بصفة رسمية وبأمان من ابن سعود مكبّل اليدين وبندقية موجهة الى رأسه. يعني لو قتل الرجل لربما تنشب حرب عالمية ثانية.

«نعم هذا كتاب من عبد العزيز، يقول أدخلوهما المدينة واحرصوا على حمايتهما». يقول محمد قارئًا الكتاب. ليتنفّس السفير ومرافقه الصعداء.

ليكمل محمد «هذان الرجلان وطئا أرض ابن سعود. والرفض مني أو منك لا يفيد». يومئ برأسه النشمي موافقًا. ثم يأمر رجاله بأخذ الرجلين إلى داخل السور وليؤدّيا مهمّتهما، وسط ارتياح كبير من جانب السفير.

ودخل شمس الملك، وتبيّن زَيف الادعاء. لتفشل الخطة، ويتولّى عندئذ الشريف شحات مفاوضة ابن سعود على تسليم المدينة. ويرسل مصطفى عبد العال إليه برسالة فحواها أن تُسلّم المدينة لابن من أبناء عبد العزيز. ثم يخرج في يوم الخميس قاسم ديري وأخوه عبد القادر إلى العيون. يبيتان يومين حتى يصل محمد بن عبد العزيز، ليدخلها يوم السبت في جمادى الأولى عام ألف وثلاثمئة وأربعة وأربعين.

الملك عبد العزيز في المدينة

أذن الأمير محمد بن عبد العزيز لمن أراد السفر من المدينة والرحيل. فسافر أحمد بن منصور وكيل الشريف إلى وادي فاطمة، وعبد الله عمير رئيس الديوان إلى مكة. وكذلك رحل الكثير من رجالات المدينة. منهم أيضًا عمر كردي، حفيد إبراهيم كردي شاعر المدينة، والحسين بن علي، وقاضيها المعروف. وخال صديق محمد القريب جدًا. خال الشاعر والقاضي المدني ضياء الدين رجب. ولرحيل الكردي قصة يتذكّرها محمد بوضوح.

وعند وصوله إلى داخل المدينة قاطعًا سورها الشهير، عقد الأمير محمد بن عبد العزيز اجتماعًا في البلدية، حضره أعيان البلد. جلس الأكابر من العائلات متوجّسين، وإلى جانبهم جلست مجموعة من المنتفّعين الجدد، وغيرهم ممن لا ناقة لهم ولا جمل بما حدث أو سيحدث. يذهب عهد ويجيء آخر، وهم متابعون لا حول لهم ولا قوة، وهم الكثرة.

اِصطفّ حرس الأمير خارج مبنى البلدية، مرتدين لباسهم الحربي، ومتأبّطين سيوفهم، يكسوهم التعب، لكنّ أعينهم تراقب الداخل إلى المبنى والخارج منه. هم يخافون من أي تحرّكات أمنية، ولكنّ الأمن صنع بحماية قبائل المدينة. لا يدخل غريب ولا يخرج من دون علم القبائل. وفي داخل المبنى اجتمع مع الأمير الجديد في المجلس بقايا السيد أحمد أسعد، الزعيم المدني. وجرى حوار أداره الأمير. شارحًا كيف سعى ونجح الملك عبد العزيز في دخول المدينة ومن دون قطرة دم أو ضربة كف، وأن حلال وتجارة الأهالي في أمان. وكيف ستكون الشريعة الإسلامية هي القانون.

ثم أعلن الأمير رغبةْ الملك عبد العزيز في زيارة المدينة قريبًا، وأنه كلّفه إدارة شؤون البلد عارضًا مساعدة كل عائلة وفرد. ليتشعّب النقاش أكثر، فبدأ أحد الحاضرين يحكي عن أيام حكم الشريف الحسين بن علي، واصفًا وشارحًا لدرجة التمثيل والحركة. حتى أنهى الحديث قائلًا: «لقد كان ذلك أيام نهضة الحسين».

تسمّر الكل في مقاعدهم، خوفًا من رد فعل الأمير، إلّا أن أحد الدهاة من أهل المدينة ومن كبار المعاونين للسيد أحمد أسعد استدرك الموقف وصدح في المجلس بصوت جهوري: «قولوا نهقة الحسين لا نهضة الحسين». عندئذٍ اغتنم عمر كردي الفرصة، وقام يستأذن الأمير بالرحيل، وما كان ينويه. فرحل هو وأخوه عبد الحفيظ وصالح وابناه محمد وسامي. وصلوا العراق ومات

هناك كما مات أخوه صالح، لكنّ الملك عبد العزيز أعاد الشيخ عبد الحفيظ ليتولّى القضاء في المدينة.

ودّعت المدينة أميرها الجديد بتكريم مديني أصيل. وقد أقام الأمير نظامًا جديدًا في الإدارة بتأسيس أجهزة الحكم. ديوان الإمارة يرأسه إسماعيل حفظي. والشرطة يرأسها مهدي بك، الذي انتقل منها ليصبح مديرًا للأمن العامّ في مكة. والمحكمة الشرعية قاضيها الأول الشيخ إبراهيم عبد القادر بري، يعاونه الشيخ القاضي الخليفي. أمّا الخزينة والمالية، اللتان كانتا تجمعان الأوقاف وإدارة المسجد النبوي، فتولاهما محمد الإبراهيم القاضي، كما يتذكّر محمد. وبعد وصول هيئة التفتيش والإصلاح برئاسة حافظ وهبة، عيّن أستاذ محمد، السيد حسين طه، مديرًا للأوقاف، حيث فُصلت عن إدارة الحرم، وعيّن فيها السيد عبد الجليل مدني. والبلدية أُسندت إلى ذياب ناصر أبو حسن، وضمّت إليه المالية.

ويتذكّر محمد كيف أوصى الملك عبد العزيز ابنه الأمير محمد بأن يستعين بذياب ناصر، علمًا منه كيف كان السلطان العثماني محمد رشاد، وزعيم الاتحاديين طلعت باشا يعتمدان عليه في شؤون الإدارة. وكان قد التقى عبد العزيز بن عبد الرحمن الشريف ذياب، يوم رافق ذياب كاظم باشا، الذي أوفده الاتحاديون أيام بصري باشا لمفاوضة سلطان نجد عبد العزيز يومذاك. فاستقبلهما عبد العزيز، وكان ذياب مترجمًا لهما.

بعد إنجاز مهمته، سافر الأمير محمد بن عبد العزيز وتولّى خلفه إمرة المدينة بتكليف من الملك عبد العزيز، وكيل الإمارة حينذاك إبراهيم السالم السبهان. ويذكر الزيدان أنّ في هذا التكليف حصافة من عبد العزيز. فآل السبهان من أعيان شمّر القبيلة وحائل المدينة وبينه وبين آل الرشيد صلة رحم لا واصلة نسب. وهو بهذه المواصفات يعرف كثيرًا عن المدينة وأهلها، لأن المدينة قريبة من حائل قربها من عنيزة. سكنها الكثير من هؤلاء، ومن هؤلاء.

وصل الملك عبد العزيز المدينة المنورة عن طريق القطار، مستخدمًا سكة الحديد للمرة الأولى. وكان يتنشّق الهواء في مشوار الطريق إلى أن وصل إلى البوير. يمشي كأنّ الأرض تتحرك معه. فقد كان فارع الطول، كبير الحضور، كما وصفه محمد. يحب الاستكشاف والسؤال عن الناس والمناطق. وصل إلى المدينة ورآه محمد للمرة الأولى في مجلس إبراهيم السالم السبهان. وتعرّف على شخصية ابن سعود بعد هذه الواقعة.

كان مجلس السبهان يمتلئ بأصدقائه الذين يعرفهم من قبل، ومعظمهم من أهل داخل السور، من ذياب ناصر والسيد عمران. مجلس كان يذكّر بوضع طبقي لا يتماشى مع العهد الجديد. والمثير في ذلك أن أهل عنيزة القاضي والزغيبي والتركي والخريجي والعامر والسلومي والصهيل لم يكونوا من رواد هذا المجلس.

يعرف محمد طبقية أهل السور وخارجه. فهو ذاق طعمها مرات متعددة، وحالما دخل الملك عبد العزيز المجلس فإذا هو يعلن غضبه. يثور ثورة راحمة بحسب وصف محمد. يريد قتل الطبقية التي حرمت مَن سماهم أهل السور البدو، والقضاء على امتيازات قد خلت، وأمامهم أرسل إبراهيم بن معمر يخبر السبهان أنه لم يعد الأمير في المدينة.

وفي منتصف الحادثة يجد محمد صديقه والأب الناصر له صالح الإبراهيم القاضي يهمّ خارجًا من المجلس، فيتحرّك محمد ويلحق به. أحس محمد أو فلنقل أثار فضوله.

«خير يا شيخ لماذا خرجت؟». يسأل محمد.

«بعدين يا محمد بعدين»، يجيب القاضي، وهو يمشي باسمًا.

لم يكن محمد ليسمح لأمر مثل هذا بأن يمرّ. وذهب القاضي يمر بين الحرس الملكي ومحمد يتبعه. خيولهم تشرب من بئر إلى جانبهم، والرجال يتسامرون ويتحدثون بصوت عالٍ. عندئذ استوقف محمد القاضي وقال: «لا والله تقولي أيش صار».

اتسعت ابتسامة القاضي حتى ظهرت ثناياه ليقول:» تعرف يا محمد جاء الزمن اللي نفتك فيه بأهل السور وخارج السور والكلام الفاضي».

«أتمنى ذلك يا شيخ» يجيب محمد.

«شوف يا محمد، بعض أعيان المدينة من داخل السور سمعوا أن الملك ينوي تعيين أمير جديد للبلد، وتحديدًا آل المدني وعارف بري»، يصمت لبرهة القاضي بعدما مر اثنان من أفراد الحرس الملكي بجانبهما.

ثم أكمل حديثه: «كتب الأهالي مضبطة. وأنت تعرف حبهم للمضابط من أيام الأتراك والباب العالي. قدموا مضبطة الى الملك عبد العزيز، ظانين أن المضابط أصبح لها سعر. وما أدراهم أن الموضوع غير ذلك تمامًا».

«كيف يعني» يسآل محمد.

«شوف، أنا اللّي عملت الإشاعة. وعمّمتها بين الناس، أعرف حركاتهم الطبقية، تعودّوا عليها. وبعدين دفعتهم لكتابة المضبطة بس هم لا يعرفون أن ابن سعود ما يمشي ورا المضابط، المضابط تمشي وراه».

وقد حصل. كتم محمد السر وهو يضحك على أناس أرادوا التمسك بامتيازات ماتت. وعيّن الملك عبد العزيز الأمير مشاري بن جلوي آل سعود واليًا على المدينة. لتدخل المدينة العهد الثالث في حياة محمد تسترد بعضًا من الأمن المفقود.

يخرج الناس للتجارة والزيارة وبدأت الأمور تتدحرج نحو الاستقرار. ومحمد الشاب يحمل شهادة مدرسية وهمة معلم صبيان يجول مع أصدقائه في ربوع أرضه. يجتمعون ويسمرون بمرح عذري حول السواني في البلاد.

«أسعد أيام الضعف ما كان يصدر عن قوة الحب..

وأتعس أيام القوة ما كان يصدر عن ضعف الكراهية»

محمد حسين زيدان

يوم عيّن أُستاذًا

وجد نفسه محمد بعد انتهائه من الدراسة يدخل البطالة سريعًا. والده قد استقر في الدكان لا يريد السفر والانتقال موكلًا الجزء الأكبر من التجارة لابن أخيه محمد بن حسن بن زيدان. ولأن للتجارة ناسها ومحمدًا لم يكن من أهلها يوم ما توجه نحو التعليم.

يومها كان الشيخ عبد القادر الشلبي مسؤول المعارف في العهدين العثماني والشريفي. ومع العهد السعودي قد بدأ مشروعه الخاص. فتح الشيخ عبد القادر مدرسته الخاصة. فالتحق محمد وصديقه محمد سالم الحجيلي بالمدرسة أساتذة مع وقف التنفيذ.

لم يصمّم الشيخ الشلبي الغرف الدراسية بطريقة الصفوف (الفصول). إذ ما زال تأثير الكتّاب حاضرًا. وكأن تأثيره نقل إلى غرفة، فقط، إضافة إلى شحّ الموارد وقتذاك. فحالما تدخل الفصل (الصف) ستجد على أكبر حائط لوحًا (سبوّرة) معلقًا. يجاورها مكتب المدرّس، وعصا من الخيزران. ثم تتناثر ومن دون ترتيب كراسٍ مصنوعة من الخشب والقشّ، تحضنها ماصّة (طاولة). تتّسع لكتاب واحد فقط، لا مكان لكرّاسة إضافية، تسمح الماصّة ليد واحدة من يدي الطالب، بأن يدوّن فيها ملاحظاته. ويتكئ عليها إن غفل عنه المدرّس، وباقي مستلزمات الطالب في حضنه أو بين الرجلين. والمصحف الكريم يوضع على الرفّ عند باب الفصل (الصف).

ولكن محمد غير. يدخل محمّد فصله (صفّه) كل صباح بهمّة وحماسة، فهو يحبّ التدريس، ويحبّ مكتبة المدرسة، التي كان ينام فيها أكثر. فلقد كانت عامرة بكتب التراث. يسعد كل صباح وهو في طريقه إلى المدرسة. يحبّ التدريس، ويحبّ طلابه أكثر. يتباسط معهم، ويلهو معهم، يقف عاري الرأس (مفرّعًا). لابسًا ثوبه. «زفير» قماش وعلى طريقة أهل الأحواش، هو وصديق العمر زميله محمد سالم الحجيلي، من أهل الأحواش أيضًا.

كان الشيخ عبد القادر الشلبي ينزعج من لباس المحمّدين. وهو بفوقية أهل داخل السور، وبلهجته الطرابلسية اللبنانية، يقول» :شو هالولدنة التي أنت فيها، غيّر ثيابك، إلبس كويّس.»

في المدينة، كلّ سكانها يعرف بعضهم بعضًا، ولكل منطقة في المدينة ملبس. من هم داخل السور يلبسون الفاخر. فتجد الأفندي يتزيّن بالبّجة والعمامة

والحزام الرقيق والثمين. وأحذيتهم مصنوعة من الجلد. لم تكن الأحذية مستوردة لأنّ الكندرجية (صنّاع الأحذية) متوافرون.

أما أهل خارج السور، فلباسهم مختلف. لا فخامة فيه.

فأهل شمال غرب المدينة، أو شمالها، يتزيّنون بالعقال المقصّب والأشمغة والغتر. وأما سكّان غرب المدينة، فيحتزمون الكشميري أو الدسماك، وأحذيتهم من صنع النجديين ويُطلقون عليها اسم الشرقية. لأن نجد في الشرق، وعلى سكان المدينة منهم يطلق لقب الشروق، وفي جنوب المدينة يلبسون مشالح وعمائم من الشيلان.

لم تحن فرصة محمد لنيل لقب الأستاذ بعد. حتّى إنه صدر مرة أمر من مديرية المعارف في مكّة بشغور مهنة أستاذ على سلّم الوظائف. وقتذاك كان الصديق محمد سالم، البدوي الحجيلي المروحي السالمي الحربي، سكرتيرًا لعميد المدرسة الشيخ عبد القادر الشلبي. فقال محمد سالم للشيخ عبد القادر: «ليه ما نعيّن الزيدان في هذه الوظيفة؟.» ورد الشيخ وكعادته «أن نعيّن زيدان رسولًا يعني مراسلة، ويعني أيضًا أخذ الحضور، والغياب، وسؤال ولي الأمر عن غياب تلميذه، وهكذا».

اِنتفض محمد سالم قائلًا: «الزيدان لا يقبل ذلك».

«شو هو أحسن من ابن الكماخي؟» . جاوب الشيخ، وبتهكّم.

وهكذا ظلّ محمد أستاذًا ومن دون اللقب، أُستاذًا مع وقف التنفيذ. مرت الأيام ومحمد يتجنّب الخصام مع الشيخ عبد القادر، مالك المدرسة. حتّى جاء ذاك اليوم. وبينما محمد يلقي درسه في مادة الجغرافيا، دُقّ باب الفصل (الصف): «كلّم فوق، فيه هيئة جات... طلبوك»، يقول الحاج جميل، بوّاب المدرسة.

كانت هيئة التفتيش والإصلاح المؤلّفة بأمر من الملك عبد العزيز عام ألف وتسعمئة وثمانية وعشرين ميلادية قد وصلت إلى المدينة، وكان من أعضائها كبار رجال الملك عبد العزيز، الشيخ حافظ وهبة، والشيخ محمد العلي التركي، وإبراهيم الصنيع، ومحمد السليمان التركي، ومحمد صالح نصيف، وأحمد سبحي، ومهمتها الوقوف على أوضاع التعليم، وغير التعليم.

وقف محمد، وإذا بالشيخ محمد العلي التركي يحتفي به قائلًا : «هذا الزيدان من تلامذة الشيخ عبد القادر، لماذا لم يُعيّن أُستاذًا حتّى الآن؟.» التفت الشيخ

حافظ وهبة قائلًا لمحمد: «قف على الخريطة لنمتحنك».

فرح محمد في سرّه. لأنه كان ضليعًا في الجغرافيا. والحقيقة هي أنّ ذاكرته الصورية كانت الموهبة التي جعلته في الطليعة عند أي تحدٍّ أو اختبار.

أين يقع مضيق هُرمُز؟ وأين يقع رأس الرجاء الصالح؟ وأين هو نهر الأمازون؟ وَوَوَوَوَوَ». سأل الشيخ حافظ وهبة. يرمي محمد بكل ما في جعبته من أسئلة.

أديّ محمد الإجابة عن كل سؤال، ومستدّلًا بالخريطة، ثمّ استدار يواجه الهيئة. عندئذ نطق الشيخ حافظ وهبة ما كان يريد سماعه: «لقد أصبحت أستاذًا في هذه المدرسة.» فانطلقت في سره سعادة يظل يذكرها في كل مراحل حياته بأنه أستاذ بحق وحقيقة.

الوهابية في المدينة

دار العلوم الشرعية في المدينة، أول ما فُتحت في أواخر أيام عهد الأشراف. ولم ينتسب إليها كثيرون بل قلة لا يعرفهم محمد، لأنه كان يعمل في المدرسة الأميرية. تعرّف عليهم خارج الدار، وفي مراحل العمل. ومنهم محمد الطيب الأنصاري، ومحمد عمر توفيق، ومحمد عبد القادر الكيلاني.

ودار العلوم الشرعية أسّسها أحد كبار العلماء وهو السيد أحمد بن الفيض أبادي الديوبندي. قام السيد على إدارتها وبكفاءة، عملٍ دؤوب يتذكّره أهل المدينة جميعهم. ولم تكد تفتح الدار أبوابها حتى أُغلقت، أغلقها معتمد المعارف الشيخ عبد القادر الشلبي. وهو، أي المعتمد، كان له موقف مذهبيّ منها، على اعتبار أنها وهّابية.

فالشلبي حنفيّ المذهب. وعلماء ديبوند المدرسة الكبرى في الهند أحناف كذلك. والتباين بين النظرتين أنّ أهل ديبوند كانوا أهل حديث، إلّا أنهم ابتعدوا من الحشوية. وأصبحوا الوسط بين مدرسة أهل الحديث السلفيين والأحناف. ويتذكّر محمد من علمائهم خليل أحمد وحسين أحمد وكفاية اللّه، وحتى أبا الكلام أباد. لم يكونوا كما وصفهم «من أهل الإفراط، ولا من أهل التفريط، هم أقرب ما يكونون إلى السلفية».

وحين أقفلت الدار حزن محمد كثيرًا وكرب. وقد كان محمد لا يزال يتتلمذ على أيدي علمائها. استكبر محمد ألا يحترم شيخ الشيوخ وأستاذه خليل أحمد السهارنفوري صاحب «بذل المجهود في حل أبي داود». الشيخ الجليل الذي جاء إلى المدينة يتبرّك بالمسجد النبوي، ليكمل كتابه بذل المجهود. كيف لا وهو ينزل إلى ديار العلم، وتحديدًا الشريعة والحديث في المدينة المنورة.

فمحمد بن إسماعيل البخاري كتب كثيرًا من الأحاديث الصحيحة في المسجد النبوي. وإمام دار الهجرة مالك بن أنس ابن المدينة، كتب موطأه في المسجد النبوي، استغرب محمد كيف لم تستح أنفس أهل المدينة من صاحب بذل المجهود. وقد أقفلها من تتلمذ محمد على يده، ولكنّ الصبر كان له مفعول. فأكمل خليل أحمد مؤلّفه.

وفي أول يوم من أيام العهد السعودي الجديد، أعيد فتح دار العلوم الشرعية. يتذكّر محمد الحفل الكبير، الذي أقامته الدار، داعية إليه الأستاذ عبد الوهاب أشي من أهل مكّة. وكان ينزل في بيت الأستاذ ضياء الدين رجب، حيث لم

يكن هناك يومذاك من فنادق أو مراكز للراحة والمبيت، بل نظام توارثه الأبناء من الأهل.

فبيت الأشي من مكّة، وبيت القاضي والشاعر العريق عمر كردي، خال الأستاذ ضياء الدين رجب، من أهل المدينة، كانوا بعضهم لبعض. بمعنى أنّ البيتين عائلات وأبناء وتجارة يمثّل بعضهم بعضًا ويساند بعضهم بعضًا، في ظاهرة عمّت مدن الحجاز الكبرى آنذاك. كما بيت الحلواني في المدينة وبيت شطا في مكة، وبيت السيد علي حبشي، بيت حامد عبد المنان، وعبد الحميد قدس. علاقة الأسرة بالأسرة ورباط واحد.

ذهب محمد يومذاك إلى بيت رجب، عند عبد الوهاب أشي، فدخل عليه في المجلس بينما عبد الوهاب يتصفّح بعض الورق أمامه. سأله محمد عما يقرأ، فأجابه عبد الوهاب بأنه يطالع أمورًا متعدّدة، ثم سأل محمد عن حفل دار العلوم الشرعية، وأجابه محمد بأنه لم يتلقّ دعوة.

استغرب عبد الوهاب الأمر، إلّا أنّ محمدًا، وهو غير المبالي بالدعوة، شرح كيف أنه سيذهب طفيليًا لا محالة، وأنّ ذلك يبعث السعادة لديه. ضحك عبد الوهاب لأنه يعرف محمدًا وطباعه، وكيف كان يحبّ أن ينتصر للعلم واحتفالات العلم. وذهب محمد إلى الحفل متطفّلًا، متطفّلًا محبوبًا من الحضور، وعلى رأسهم المكرّم عبد الوهاب أشي. وصعد الزيدان المنبر كعادته يرتجل كلمة تحية للمدرسة، وتحية للضيف، وتحية ثالثة للطلاب. وأخذته الخطابة والوقت يمضي وهو يُسمع الحضور ما لذ وطاب، متأخرًا عن وظيفته في المدرسة الأميرية. وحالما فرغ من كلامه ووسط تصفيق الحضور، لملم محمد مشلحه متلحّفًا وذهب يمشي سريعًا إلى عمله.

وعند وصوله إلى مكان العمل، إذا بأستاذه ومدير المدرسة السيد أحمد صقر يجابهه منتظرًا.

«لماذا تأخرت؟».

«كنت في حفل دار العلوم الشرعية».

«طيّب، وبعدين؟».

«أبدًا بس تأخرت».

«بس تأخّرت كده، طيّب ليش ما استأذنت؟»، وذهب المدير يرمي محمد بوابل من الحجج والأسئلة بقسوة المعلم على تلميذه.

بعدها انتفض محمد مجيبًا وبكامل الاحترام: «مع احترامي لك يا سيدي، ولكن مدرسة فيها مئة تلميذ وتلميذ، أحتفل بها أكثر من مدرسة فيها مئة تلميذ. يكفي يا سيد جعنا كثيرًا. وبعدين أنت يا سيد تأتي كل يوم متأخرًا، لهذا جدولت دروسك بعد الظهر، وتتأخّر وآتي قبلك».

وإذا بالمدير يهدأ. ليقول متعجّبًا: «يا واد... هو أنت كده ههه».

«نعم يا سيد، ولك كل الاحترام طبعًا، ولا أزال كده».

حكايات دار الأيتام

وجد محمد عملًا في دار الأيتام. ويصح القول إن محمدًا قد وجد نفسه في هذه الوظيفة. هي الوظيفة التي ظل يتذكرها مدى حياته. يفتخر بعمله فيها ويضعها كأكبر وسام على صدره ملقبًا نفسه «معلم الصبيان».

كان علية القوم الآتون إلى المدينة يزورون دار الأيتام، وهو تقليد سار عليه الكثيرون لما فيه من وجاهة، بعضهم يتبرّع بالمال، وبعضهم يسجّل الزيارة كمحطة في سجلّ الرحلة، مثبّتًا الوجاهة، والبعض الآخر كان يترك أثرًا أكبر من المال على الدار، وعلى الأطفال ومحمد.

مثلًا: دمعة زائرة كان لها الأثر الأكبر في محمد. وسؤال رجل عن أبناء عمّه البدو، كان له الأثر الأكبر في طفل. وأختان زائرتان تقدّمان الطعام إلى الأيتام، وإجابة طفل تشفي الغليل. غليل محمد على الأقل.

الدمعة الأولى سالت من عين سيدة لها مكانة وجاه. تدخل الفصل (الصف) ولا تستر وجهها. يسير محمد أمامها. والأطفال يريدون القفز إلى أحضانها فرحين برؤية أمّ حنون.

تحمل باقات من الزهور بيدها وابتسامة على وجهها، وخلفها الخدم يحملون بعض الهدايا الرمزية. تجول في الفصل (الصف) ناشرة سعادة في قلوب الأطفال. تقترب منهم، تلاطفهم، تلاعبهم، وتداعبهم، تسألهم عن حالهم، وعن أحلامهم. وتحضن بعضهم بكل أمومة وحنان. تتحرك بينهم وعاطفتها تفيض في الفصل بكل انسيابية وراحة.

لربما ذاقت هذه السيدة طعم اليتم، يفكر محمد في نفسه، فكلّ حركاتها تدلّ على تجربة. حتى إذا تملّكها العطف أدارت وجهها عن محمد كي لا يرى الدمعة في عينيها.

أشاح محمد بنظره عن السيدة، لتأخذ مساحتها من التعبير.

ثم قال: «أنت سيدة كريمة، أعطيتِ الأولاد جرعة حنان تكفيهم للسنة المقبلة، أو حتّى الزيارة المقبلة؟.»

تجيب بكل لطف وبلهجة عربية تدل على أصولها التركية: «أنا أشكرك أستاذ محمد، وأشكر اهتمامك بالأطفال».

يتذكّرها محمد جيدًا. يتذكّر السيدة مظفرة أخت الأميرة عفت الثنيان، زوجة الملك فيصل بن عبد العزيز. ويسمّيها مظفرة ذات الدمعة.

والدمعة الثانية سالت من عينيْ سيدة لا تقلّ شأنًا. عُرف عنها الخير، تبرّعت بالمال، وتبرّعت بالوقت والعمل. سيدة لم تتمالك نفسها، فبكت أمام الأطفال ومحمد. رأى الدمع في عينيها، تُدلّع الأولاد، وتسايرهم بعطف ومودّة.

«هنا سكن الأولاد، وفي الجهة المقابلة ممّر يؤدّي إلى الفصول (الصفوف) الدراسية» يقول محمد، وهو الدليل.

«طيّب فين الحمّامات يا أستاذ محمد؟» تسأل بخجل، ولكن باستغراب.

«الحقيقة عندنا غرفة واحدة، غرفة الراحة، حمّامات أفندية ما عندنا بالصراحة»، يجيبها محمد.

هنا أجهشت السيدة بالبكاء. وهي لا تستر وجهها، فمحمد يعرف أباها وإخوانها، ولو كانت من جدّة. هي السيدة فاطمة بنت عبد الله علي رضا، من أخوات محمد وعلي عبد الله علي رضا.

ويوم زار الشيخ عباس قطان المدينة، أقبل يزور دار الأيتام، ومعه أحد أعيان المدينة، الذين عايروا الدار وأولادها. كان هذا الرجل رأس حربة المهاجمين على الدار. ينتقص من قيمة الأيتام. وبكل ما أُوتي من فوقية وعنصرية. كل الأسلحة الطبقية كانت تُستخدم، وتحديدًا كلمة بدو. وكأنّ نمط معيشة البعض مذمّة.

كان محمد يعرف هذا المتعنصر جيدًا. فهو، أي محمد، لم يسلم من عباراته الفوقية. والأكيد أن محمدًا لم يكن يساكن هذا الرجل أو يسالمه، بل كان يتصدّى له في كل مكان، وكل ساحة. حتّى جاء ذلك اليوم الذي جرت فيه الجولة على أرض محمد، في دار الأيتام. ومن يعرف محمدًا، يعلم أنه لم يكن ممن يترك فرصة للمواجهة.

«ها محمد أخباركم واصلة مكّة، يقولون الزيدان حريص على الدار كحرصه على بيته»، يقول الشيخ قطان، وهو العارف بالمعارك الكلامية بشأن الدار.

«أنا ما أعرف بيوت الباشوات! أنا ابن بيت الشعر، والحمد لله على كل حال» يجيب محمد. مقابلًا المكر بمكر.

«المهمّ يا أستاذ زيدان ورّينا أحد الفصول»، منهيًا الشيخ قطان الحديث بسرعة، تحسبًا لحصول مناكفة بين محمد والمتعنصر المرافق.

لم يكن محمد يريد غرضًا يكيد به المتعنصر، لكنّ قدر الحكاية كان أسرع منه. وفور دخولهم الفصل (الصف) وقف الطلاب للسلام وإلقاء التحية. هنا استدرك محمد أنّ أهل مكّة وخاصة عباس قطان، يعرفون كيف يحترمون وجودهم في المدينة. عندئذٍ أنهض محمد أحد الطلاب.

«عبد الله قم وعرّف بنفسك» . يطلب إليه محمد.

يقف الطفل اليتيم مستجيبًا للمعلم، أو معلم الصبيان كما كان يحب أن يلقب الزيدان ليقول: «أنا عبد الله بن سهلي الرحيلي الحربي، مِنْ بدو المدينة، عمري عشر سنوات.»

ليكمل محمد استعراضه لأطفال الدار وذكائهم سائلًا: «أسمعنا ما تحفظه عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم».

«هو خاتم الأنبياء محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة»، وتوقف الطالب عبد الله وسط متابعة الشيخ قطان وإنصاته.

«أكمل يا ابني، أكمل بارك الله فيك»، يقول محمد.

«كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»، ختم الطالب نسب الرسول صلى الله عليه وسلم.

هنا احترف محمد الغرض ليقول: «مَن هو عدنان يا ابني؟».

«عدنان هو جدّ الرسول وهو جدّي». مجيبًا الطالب.

«عدنان جدّك يا ولد، يعني أنت ابن هذه الأرض»، أكمل الحوار محمد، والشيخ قطان يمسح بيده رأس الطالب، مقبّلًا إياه. والمتعنصر يقف بجانب محمد، والهزيمة في نفسه.

وفي أحد الأيام وبينما كان محمد في دار الأيتام دق باب مكتبه. وككل صباح يجلس محمد في المكتب وأمامه قوضى منظّمة تحكم العمل وحركته. كوب

الشاهي المغلّي عن يمينه، ومجموعة من الصحف والمجلات عن شِماله. يجلس متفكّرًا لوهلة حتى أيقظه من لحظة التجلي صوت دق الباب.

«محمد، هذا واحد من مصر يقول جاي يزور أولاد عمّه البدو، قلت أجيبو عندك». هكذا دخل رجل ليجده أمامه محمد. جاء به البوّاب جميل. أو أقحمه جميل إلى المكتب بدون دستور.

وضع محمد كوب الشاهي على الطاولة، ووقف في مكانه خلف المكتب مرحبًا ومتسائلًا في الوقت نفسه: «يا هلا وسهلا، تفضّل يا أخ تفضّل، مين الأستاذ؟»

وقف الرجل أمام محمد، يلبس البدلة السفاري. لونها قمحي مثل لون بشرته. تغطي نظارته السميكة عينيه الفاحصتين، إلا أنها، أي النظّارة، لا تخفي أنفه العربي الشكل، البارز لا الناتئ. مدور هو لا أفطس، ورأسه صلعة تبدأ من الجبهة لتغطيها شعرات معدودات من اليمين إلى اليسار، وتنتهي في آخر الرأس، لتلتقي بقية شعره من الجوانب وبكثافة. يقترب من محمد ليمدّ يديه مبتسمًا.

«السلام عليكم أستاذ، أنا صلاح الشواربي، جئت من مصر، وحبّيت أزور أولاد عمي البدو» . يقول الزائر.

رحّب به محمد، ولم يلتفت إلى هذه العمومة قائلًا: «مسلم عربي ابن عم لكلّ مسلم عربي، أهلًا وسهلًا تفضّل ارتاح، يا جميل، لو سمحت عند حضور الطلاب إلى الفصل نادينا (نادنا)».

«حاضر، حاضر». يجيب جميل وهو قد خرج من المكتب.

يجلس الزائر أمام محمد، معرفًا بنفسه يقول بعدئذٍ: «أنا عضو في مجلس الشعب، ومن قرية القليوبية شمال مصر».

«أهلًا وسهلًا تشرّفنا، وكم يومًا أنت باقٍ في المدينة؟» يسأل محمد،

«الحقيقة جئت من مكّة وأردت السلام على الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وأيضًا أردت أن أتعرّف على أولاد عمّنا البدو في المدينة».

الآن أراد محمد التأكّد من مغزى الزيارة من الزائر.

«كل العرب إخوة وأبناء عم، لكن من تقصد بأبناء العم؟.» يسأله يريد معرفة الإشارة الى أبناء العمومة.

أسند الزائر ظهره وهو يمسح قليلًا من عرقه عن جبينه من دون المساس بشعره المصفف بعناية. ثم يرفع نظارته من أسفل أنفه الى أعلاه ويقول: «بُص حضرتك، إحنا عائلة الشواربي من شيوخ القليوبية، ويحكى أنّ جدنا الأكبر أتى من المدينة وسكن مصر، كما أنه كانت هناك علاقات وتواصل بين الأجداد»، يجيب الزائر بحماسة، مكملًا: «ونصحني الأصدقاء بزيارة دار الأيتام قائلين إنه يسكن فيها البدو.»

هنا استُفزّ محمد قليلًا. فقد علا صوت الكثيرين تلك الأيام حربًا على الدار. يقولون: «أيش دار الأيتام ما فيها إلا بدو». وكان محمد يجيب وبغضب: «احمدوا الله ألا يكون من بينكم أيتام».

هما الفوقية والعنجهية اللتان تُفرزان عند سلّم اجتماعيّ لمن أراد تسلّقه من قليلي الثقة بالنفس (يقول محمد). وهذا السلم توارثه جيل عن جيل. الحضر في القمّة. والبدو طبقيًا قبل الأخير. أدناهم من هو بدوي ويتيم. ومحمد كان بدويًا ويتيمًا. هرم اجتماعي صنعه السور، والحاكم والبيئة. لتنقلب لاحقًا. ويصبح من كان أعلاها أدناها. حتى إذا دخل حكم الأشراف جعل أعزّها أذلّها. ودورة الحياة تمشي لتصبح تاريخًا.

يتسلم محمد الكلام قائلًا: «نعم نعم، اسمح لي بأن أرحّب بك. وأنت ابن عائلة معروفة وكريمة. وكنت أعرف أنّ شيخ قليوب هو أبو الشوارب، وقد ذُكر اسمه في كتاب الجبرتي الشهير بعنوان «تاريخ مصر»، ليطلق عليه في الفصول التالية «الشواربي»، يقول محمد، وضيفه يصغي بكل حواسّه.

«نعم يا أستاذ محمد، هذا ما سمعناه من الأجداد. وهم قالوا لنا إننا من قبيلة حرب الهلالية».

«تقصد أنت من قبيلة بني هلال؟». مستفسرًا محمد من زائره.

«صحيح، فنحن نشأنا على السيرة الهلالية، أبو زيد والجازي والأمير حسن». يجيب الزائر وهو يهز برأسه موافقًا.

«يا سيدي كلّنا نشأنا على تلك الملحمة العربية الأصيلة. هي جزء من تربية البادية، لكن للدقة فإنّ ما ذكره ابن حزم في كتابه «جمهرة النسب»، لناحية أن حربًا هو ابن هلال بن عامر بن صعصعة، القبيلة الهوازنية، القيس عيلانية

النزارية العدنانية، غير صحيح. النسبة الصحيحة لحرب هي أنه ابن خولان بن سعد بن سعد بن عمرو بن الحاف القضاعي.» يسرد الجواب محمد بتلقائية.

«يا رجل!»، بذهول وعينا الزائر تكادان تقفزان من خلف نظّارته السميكة قال «يبدو أنك عالم بالأنساب؟».

«تعلّمنا في رحاب المسجد النبوي حفظ النسب واحترام الحسب أسوة بأخلاق سيد البشر.» يجيبه محمد.

يخرج الزائر ورق لف للسجائر ومعها التبغ من ظرف وضع في جيبه العلوي من سترته. يستأذن محمد في لف سيجارته. ويكمل الحوار سائلًا وهو يشعل سيجاره: «طيب يا أستاذ محمد، كيف جاء أجدادنا إلى الشمال المصري؟».

ثمّ يقتحم الحوار والغرفة كعادته جميل البوّاب صادحًا: «الفصل جاهز، هيّا تفضّلوا، الطلاب موجودون.»

من بين دخان السيجار يجيب محمد الزائر: «تفضّل أستاذ صلاح لتتعرف على طلابنا، ونكمل الحديث بعدئذٍ على الغداء».

ينهض الجميع لبدء جولتهم في الدار. ويلاحظ الزائر المصري تدنّي الخدمات مقارنة بدور الأيتام في مدينة القاهرة، مبديًا استياءه من بعض الإهمال الذي رآه. والقاهرة أو مصر كانت أم الدنيا لكل العرب وتحديدًا لأهل الحجاز. هي تضع المعايير في البناء والخدمات وحتى الأزياء. وما يراه الزائر من حال للدار بعيد كل البعد عن معايير أم الدنيا.

«هي ثقافة للأسف التي نحاربها»، يقول محمد. ملاحظًا الاستغراب على وجه الزائر «تخيّل أنك جئت زائرًا الدار لأن الصورة هي أن البدو يعيشون هنا، والحقيقة هي أن البدو في كل مكان».

«ماذا تقصد أستاذ محمد؟» يسأل الزائر وهو يمشي وسيجاره المشتعل معه. في رواق الدار.

«شوف يا عزيزي، البداوة نمط معيشة لا نسب ولا طبقية! يعني في قارة آسيا هناك أكبر صحراء في العالم، ويسكنها مواطنون صينيون اختاروا العيش في باديتهم مثلًا، هم بدو من الصين!».

«صحيح، وماذا أيضًا، بُص كان والدي شديد الافتخار ببداوة أجداده، وكان يحكي لنا قصصًا كثيرة» . يقول الزائر.

«نعم البدو أهل فخر. وهم أهل تجذّر وانفتاح. وليس صحيحًا أنهم أصحاب انعزال وتقوقع، يحبون الأرض ويحفظون صلة القربى، الصغير منهم قبل الكبير. انظر إلى المغرب العربي، هو عربي بفضل هجرة بني هلال، التي ذكرتها، حتى عندما اقترن خراب القيروان بهم جاوبهم الشاعر والزعيم الجزائري ابن باديس: لئن قيل إنهم خربوا فلنقل إنهم عربوا». يقول الزيدان وقد اقترب مع الزائر من الفصل.

«حديث مشوّق، طيب، ماذا تعرف عن عائلتي، الشواربي؟.» يسأل الزائر.

«تفضّل أولًا إلى هذا الفصل (الصف) لتتعرف على أبنائنا ولكن بعد إذنك رجاء أطفئ سيجارك قبل الدخول»، وهو ما حصل. فبسبابته أطفأ الزائر الشعلة ليضع السيجار في جيبه العلوي من سترته مع الظرف. ودخل محمد والزائر الفصل الأولّ. وقف محمد في منتصف الفصل وخلفه لوح مكتوب عليه درس اليوم. والطلاب جلوس على مقاعد خشبية أكل عليها الدهر وشرب. هناك في الجهة الغربية للفصل نافذة كبيرة مفتوحة تخلق تيار هواء. والطلاب يستمعون الي الزيدان بملابسهم الرثّة. وتكسوهم ملامح اليتم ومن أعينهم التي لو تكلمت لفاضت بالحزن.

يبادر محمد بتحية الطلاب مادًّا يده ليقترب الزائر منه في منتصف الغرفة. ثم عرّف محمد الطلّاب باسم الزائر. داعيًا إياهم للترحيب به. فإذا رئيس الفصل الطالب محمد أحمد الأحمدي يقفز من كرسيه صائحًا :»ولد عمي الشواربي منا يا أستاذ، الأمير يزور الفقرة».

هكذا وبدون ترتيب أو تمثيل، عندئذ قفز الزائر فرحًا بما سمع، وذهب يحضن عرّيف الفصل، أو ابن عمّه.

في اليوم التالي ذهب محمد إلى مكتب مدير المدرسة الأميرية يزوره، وليدعوه إلى الحفل الذي سيقام في دار الأيتام لزيارة الوزير عبد اللّه السليمان، فإذا بالمدير لا يجلس على مكتبه، بل كان جالسًا يطلّ من النافذة. على الشرشورة بجانب بيت القيّم عليها الشيخ حمزة رجب، والد صديق محمد العزيز ضياء الدين رجب، سلّم محمد على الأستاذ، ورأى دموعًا في عينيه. فقال: «إيش بك؟ خير ليش تبكي؟».

«قربت الساعة يا محمد، قربت القيامة»، يجيب المدير، والحرقة في عينيه متنّهدًا ويداه ترتجفان.

«خير يا أستاذ، كلّمني». بكل لهفة وحرص يسأل محمد.

«تخيّل يا محمد، رأيت جنازة تحملها ثلاث من النسوة، ورجل واحد. لم يجد الميّت من يحمل نعشه من الرجال، فجاءت النساء يحملن النعش، تخيّل». ومع كلمة تخيل ترتجف يدا الأستاذ بوتيرة أسرع.

«ومتى كان هذا، يمكن أن نساعدهن». يتلقف المبادرة محمد حيث كان يجيدها، وخاصة في مساعدة المحتاجين من النساء. لكن الأستاذ قد تملكه الجزع ليقول: «قبل دقائق مرت منطلقة إلى البقيع، جنازة بدوي، والنسوة بدويات، والرجل كمان بدويّ».

«ولماذا لم تصنع شيئًا؟»، بكل غضب مستتر يستفسر محمد: «عطّل الدروس وكلّف الأساتذة لينزلوا ويحملوا النعش. نعش مسلم عربي ابن الأرض».

ليطلّ مرة ثانية الأستاذ من النافذة باكيًا ومرتجفًا: «ليتني فعلت، ليتني فعلت».

«لا حول ولا قوة إلا بالله»، ويستأذن محمد من الأستاذ ويتركه باكيًا ومتحسرًا على ما جرى. لطالما وجد البدو أنفسهم من دون مساعدة. هي حياة خشنة وسط الصحراء، لكن في وسط المدينة، وهذا أمر لم يكن يطيقه محمد.

وأطفال هؤلاء الأموات اليتامى في وسط المدينة لا عشيرة ولا حمولة تحميهم أو تؤويهم. وكم من يتيم وجده محمد تحت جدار لا أب ولا أم ولا أحد يحمله إلى دار الأيتام. يجده ممزّق الثوب، جلده عليه أوضار من الوسخ. وكم مجدورًا شفي أخذه إلى الحمّام يصب عليه الماء ويغسله. يتذكّر محمد هذا الطفل وهو يمشي راجعًا إلى الدار. كان من ولد محمد من بني سالم من حرب. طلب الطفل طعامًا. فقدم إليه فتة العدس، وصحنًا وذهب يأكل بسرعة. خاف عليه محمد من التخمة، لأن معدته خاوية. فرفع عنه الصحن وصاح الطفل يبكي. فقال له محمد بعد ساعة نعطيك إياه لتأكل. يتذكر كل ذلك وهو يخرج من المدرسة.

وذهب محمد ليمشي ويسترجع أوجاع الماضي. يتذكّر الجدّة وغيابها. ويتألم لكل يتيم، فإن أكرمه الله بعشيرة تؤويه، فالدار هي المأوى لمن حظهم أقلّ.

وانطلقت شهرة محمد بهذه العزيمة والعمل في الدار. فوقف فيها المدافع عن الأيتام. وذكّر نفسه بأنه يخوض معركة الخير مع الشر، وأنه بطل يعرف كيف تصنع سير الأبطال.

وصل محمد إلى الدار والاستعدادات قائمة. استعدادات لم تكن فخمة لقلّة المال، لكنها ثرية بعزيمة الرجال، كما يصفها محمد. كان الاستقبال مقامًا نصفه في الشارع، والنصف الآخر في الحوش الخارجي للدار. من دون بوّابات، أو سور للحماية. والكراسي من تبرّعات وبقايا مفروشات منازل.

عرف الدار وصول الوزير. فأحد الأطفال دخل يركض وهو يصيح: «الوزير وصل الوزير وصل». وما هي لحظات حتى كان موكب الوزير يصف خارج الدار. موكب بمعنى أنه سيارتان وحرس، ليس كمواكب اليوم الفاخرة. وعند دخول الوزير السليمان إلى الحفل كان برفقته طلعت حرب، مؤسس بنك مصر، والصديق للملك عبد العزيز، وقد هاله المنظر، والحالة المتردّية للدار. يومها كانت هناك جفوة بين القصرين، السعودي والمصري، لكن جلس الضيفان يتحادثان، وهما مستغربَان من مستوى الاستقبال، بالرغم من سوء الأحوال المادية.

بعد الترحيب التقليدي ارتقى محمد المنبر مرتجلًا كلمته وقال: «يقولون دار الأيتام ليس فيها إلا بدو وتكارنة، إن البدوي هو الجندي، هو الفلاح، هو المساهم في كثير من الاكتفاء الذاتي، سمنًا وجبنًا وتمرًا وبطيخًا، ولا خير فينا إذا لم ننهض بهذا البدويّ».

لم يعجب الكلام بعض الحضور، بل حاول بعضهم المزايدة وإفساد تأثير خطبة محمد، إلّا أن طلعت حرب التفت إلى السليمان وقال له بصوت يسمعه الكل: «يا معالي الوزير، أهو البدوي اللي تجيبه من الجبل تعلّمه في المدرسة، يرتفع فيه بناء أمتك».

تأثر الوزير السليمان. ومدّ الدار بعد هذه الحادثة بمبلغ من المال، كان كافيًا لشراء بيت إضافي يكون ملكًا لهم. وتقام فيه احتفالات مقبلة.

قدمت الدار لمحمد الكثير، منبرًا ذاع منها صيته، وحافزًا ليتفرغ للكتابة. والأهم أنها منصة لشاب أراد العالمية في فضاء الكلمة.

العالمية

«صباح الخير يا أمة الخير». يحيّي محمد زملاءه في العمل في دار الأيتام وهو يقتحم المكاتب حاملًا بعضًا من الصحف وبعضًا من حبات التمر التي جلبها معه في طريقه. معظم الأهالي وقبل الخروج إلى العمل كانوا يتناولون وجبة الإفطار في المنزل. وجبة فخمة وفاخرة لأن النهار طويل والعمل شاق في أغلب الأحيان. وفي أحيان أخرى الرجوع إلى المنزل يكون متعثرًا!

«أهلًا بالحاج محمد، الحمد لله على السلامة». يجيب صديقه الأستاذ حسن إسماعيل.

يتقبل محمد اللقب الجديد بروح رياضية عالية فلقد رجع من حجته الثانية. وهو الذي كان يكره الألقاب مناكفًا في حالات كثيرة أصحاب الألقاب بدون همم. وأتذكر أنه في كتابه «سيرة بطل» الذي هو سير أبطال الأمة الإسلامية من الصحابة، يبدأ بكلامه عن غزوة بدر متسائلًا: «من يصنع من؟ هل المعركة تصنع البطل؟ أم البطل هو الذي يصنع المعركة؟» الآن فهمت مقصده.

ففي مناكفته للألقاب كان يسأل بمكان ما: من يصنع من؟ هل اللقب يصنع المهمة أم المهمة هي تصنع اللقب؟ وفي زمنه وكثرة تقلب العهود راقب محمد كيف أن هناك أصحاب ألقاب بدون مهام، وأصحاب مهام بدون ألقاب!

ذهب إلى مكّة عام ألف وتسعمئة وسبعة وثلاثين بنية الحج. وقد أشار عليه صديق والده المكّي حسن موسى الذي تمدين بأن يزور الشيخ عباس قطان، مذكّرًا إيّاه كيف أن القطان يذكره بالخير ويثني عليه. ولديه رغبة، أي القطان، في أن يعمل محمد معه سكرتيرًا.

أنهى محمد حجّه. لكنه لم يتصل بالشيخ القطان. وذلك لسببين:

الأول لأنه كانت تتملّكه رغبة أقوى. كان الوله قد سيطر عليه، متعّلقًا بوطن الولادة والنشأة والصبا والحب. يتذكّر كأن السيح والعقيق وحوش خميس ينادونه لا تتركنا، نحن نحبّك. يريد الرجوع إلى المدينة. ولا يريد إحراج نفسه بعمل جديد.

والثاني لأنه ذهب لزيارة صديقه الشيخ محمد سرور الصبّان. وفي مكتب شركة الصادرات في أول القشاشية، وفي اتجاه المدارس، كأنه جزء من بيت باناجه، الذي كان على المسعى. وهو يهم بالدخول عند صديقه وجده يتكلّم

بالتلفون، مع رئيس الديوان آنذاك إبراهيم السليمان العقيل، والحديث بينهما كان عن عباس قطان، واتّضح له أن الاثنين على خلاف مع القطان. لذا فضّل محمد الحياد مبتعدًا.

ورجع إلى المدينة، إلى عمله في دار الأيتام.

دار الأيتام كانت انطلاقة الشهرة، محليًا وعالميًا. فحين أصبح أستاذًا تصدّر محمد الدفاع عنها والخصام لأجلها، مثبّتًا حضورها في وعي كثير من أهل البلد. كان هناك الكثير من أهل المدينة يقولون وبعنصرية: «أيش دار الأيتام ما فيها إلّا بدو وتكارنة».

كانوا حربًا على دار أسّسها الحاج عبد الغني دادا، وهو من مسلمي الهند لمجتمعهم. كم كان مسلمو الهند من عون! كانوا العون لدار العلوم الشرعية، ودار الأيتام، وكذلك لمدرسة الفلاح في مكّة.

وأمّا عالميًا، فكان ينطلق لسان محمد في كل مجلس خطيبًا. يرتجل الكلمة. وتحديدًا في كل حفل أقامته الدار. كحفل الدار السنوي بحضور الوزير عبد اللّه بن سليمان، والشيخ عبد اللّه بن بليهد، ووكيل إمارة المدينة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم، والدكتور محمد حسين هيكل، الكاتب المصري الكبير. وألقى محمد خطابه مدافعًا فيه عن الدار، ومحاربًا كلمة البدو.

هي معركة بين الخير والشر. هكذا كانت نظرة محمد، وهو يسير كل يوم إلى عمله متأبّطًا مجلة الرسالة.

«خفّف محمد، خفّف، الناس بدت تنزعج، لازم نراعي»، يقول له زميله، محاولًا تليين موقف محمد.

«شوف أنا ما في شيء يثيرني إلا كلمة بدو! وما في شيء أنتصف له إلا كلمة تكارنة، المسألة مسألة مبدأ عندي، فهمت أيش»، يجيب محمد، وبكل حماسة مكملًا الحديث.

«خلينا من المشاكل، قرأت مقال مصطفى صادق الرافعي اليوم، مو أدب بس إلا طرب كمان».

كان يحب القراءة بالأذن، متذوقًا جرْس الكلمة الشاعرة، عاشقًا للبيان في لغته.

وكل يوم بينه وبين زميله نقاش في معركة الخير والشر، وحضّ على سماع طرب مقال الرافعي، إلا أنه اختلف شيء ما اليوم.

اليوم يفتح محمد المجلة ليجد خبر وفاة الأستاذ الرافعي. يقترب زميله معزّيًا. نعم كان محمد يُعزّى في الرافعي.

استفاق محمد من الصدمة «الحدث أكبر من معركة أو حوار». عندئذٍ طفق محمد يكتب رثاء في الرافعي، ليُنشر في جريدة المدينة.

في اليوم التالي جاء إلى محمد زميله فرحًا مزهوّاً.

«شوف يا باشا إنت صرت عالميًا».

«أشوف أشوف» ويأخذ محمد المجلة متصفّحًا. عينه تصيب اسمه من بين مئات الأحرف والكلمات ككل كاتب يقرأ مقاله.

أحمد الزيات رئيس تحرير مجلة الرسالة ينشر مقالًا باسم محمد حسين زيدان.

لم يبخل على نفسه، عانق نشر مقاله، وعلّقه وسام شرف وهو يقول: «لقد استأهلته».

منشكحًا ذهب محمد الى فصله حيث جدوله المعتاد. ليجد صوت السيد أحمد صقر يقطع طريقه وانشكاحه.

آه يا عيني على البخاري

«زيدان، اليوم أنت ستغطّي غياب أستاذ القرآن والتجويد الشيخ محمد الكتامي»، وجّه السيد أحمد صقر حديثه إلى محمد.

«سلامات عسى ما شر»، مستفسرًا عن غياب الشيخ، يسأل محمد.

«مريض بعيد عنك، يعني أيش، بسك تسأل»، يجيب السيد محاولًا قطع الطريق على مسار أسئلة محمد.

«طيّب، قلت يمكن أقدر أساعده، تعرف عندي شوية خبرة في الطب»، يقول محمد، وهو في منتهى الجدّية.

«طبّ! ههه تقصد الطّب الشعبي هذا الذي تعرفه»، شاخصًا بعينيه يكمل السيد كلامه، «اليوم روح وغطِّ درس الشيخ الكتامي».

كان التطبيب للمرضى حرفة، يتعلّمها الأبناء من آبائهم أو معلّميهم. ولم يكن في المدينة صيدلية إلّا في المستشفى الوحيد. ونادرًا ما توافر الدواء. وحتى التطعيم ضد الجدريّ لا يكاد يتوافر. أما الحصبة، فعلاج تمارسه الأم والأهل. ببساطة ثوب أحمر مصبوغ ويُغسل بماء بارد. ولم يكن هناك ثلج، بل هو من الزير أو الشراب يبرّد ماؤه حين يلفحه السموم، لأن فيه مسامًّا ينضح بعض ما فيها من الماء حتى إذا لفحته السموم أصبح ماؤه باردًا كالثلج.

أمّا الرمَدُ على أنواعه، فيُصاب به الأطفال ويعالجه المطبّب القبليّ أو الجدّات بما توافر لدى العّطار في دكّانه. وكان العطار يعالج الرمد على أنواعه)توتيا زرقاء، توتيا بيضاء، جنزاره، حجر جهنم). والحمّيات لم يعرفوا إلا أنها حمّى واحدة. الملاريا والتيفوئيد والتيفوس والراجعة وغيرها. والزكام علاجه بالبخور والسكّر يستنشقه المريض. والسعال الديكي يعالج بلبن الحمارة.

والجدريّ كانت الأمّهات يحرصن إذا انتشر في الجسم على حجز الطفل المصاب به، ومراقبة العين باستعمال الكبوس. ويعدّلن درجة حرارة الغرفة تخوفًا من تقلّب الجو. ما من جهاز تكييف أو ثرموستات للتحكم في الحرارة، بل يثبّتن الحرارة باستخدام جلة البقر، يضعنها في الكانون ويشعلنها. بذلك تجعل جو الغرفة ثابت الحرارة.

أما ما تعلّمه محمد، فكان بفضل والده والمطبّب الأول الشيخ جزا الظاهري. علامات التطبيب بادية على صدره أكثر من ثلاثين كيّة، حيث الكيّ بالنار كان علاج الحمّى وأمراض الرئة. عالج محمد كثيرين بطريقة الكيّ.

«حاضر يا سيد حاضر» . يقول محمد. ثم حالما همّ السيد أحمد صقر بالمغادرة ذكّره محمد بالشيخ الوقور العطار محمد الأضلني.

«هل تذكُر مولانا في ذاك اليوم عندما خرجت من البركة؟ هل تذكر من طبّب عيني اليسرى؟ تتذكّر العطار محمد؟».

يومذاك وبعد سباحة لأكثر من ساعات خرج محمد من البركة وعينه اليسرى، وتحديدًا كان على البؤبؤ شحمة بيضاء. فقال له العطار إنها لفحة هواء. وأعطى العطار والد محمد كمًّا من صمغة الريح. يغطي محمد رأسه بساتر ويستنشق صمغة الريح على مرزاب العين خارجها. وإذا بالشحمة قد ذابت، والعين لم تمسّ بسوء.

«اعرف يا واد، وأتذكّرو كويس. انت لازم يعني تدافع عن الطب الشعبي. روح دحين شوف شغلك، روح الفصل يا سيدي».

ابتسم محمد خجلًا من السيد الجليل، وذهب إلى عمله. دخل محمد الفصل (الصف). وكان من التلامذة من أصبح لهم شأن، وبعضهم لاحقًا من أعز الأصدقاء.

«فين الشيخ الكتامي». سأل أحد الطلّاب.

«مريض، وأنا محلّه اليوم»، يجيب محمد مكملًا: «افتحوا كرّاسة التجويد، بلا بسم الله فلنبدأ».

«تعرفون لماذا هناك علم اسمه التجويد؟» يسأل محمد، ويتابع: «العرب أمة فصحى، تعشق لغتها وتعشق البلاغة فيها، وقد أكرم الله العرب بالقرآن عربيًا، وأكرم الإسلام باتساعه وانتشاره عربيًا، وبعد انتشاره دخل في الإسلام غير العرب، واختلفت الألسنة والثقافات، وظهر الخطأ، فصار للقرآن تجويد إضافة إلى البيان».

قال تعالى، ينادي محمد التلميذ كاظم برادة: «اِقرأ يا كاظم صفحة 119 من كتاب التجويد».

وذهب يقرأ لباقي الفصل، حمد وكيع ومحمد مدني وياسين طه.

قاطع التلميذ ياسين قراءة زميله بسؤال أرض جو موجّه: «يا أستاذ في حاشية الكتاب كُتب دائمًا (ا.ه عيني على البخاري) نسب النص في المتن إلى المصدر. أيش معنى ذلك؟».

«ليش ما تعرفوها؟ طيّب طيّب»، يتلقّف السؤال محمد برادار موسوعيته ويجاوب» ا. ه. اختصار لكلمة انتهى، عيني، لقب الإمام العيني. أُخته زوجة ابن حجر العسقلاني، صاحب كتاب «فتح الباري في شرح صحيح البخاري».

ثم يستدرك محمد مضيفًا «البخاري يعني الإمام»، فقد عُرف عن أهل بخارى أنهم من سكان المدينة.

«أيش عرّفك؟» يستفسر أحد التلاميذ وبتهكّم.

«الإمام العينيّ شرح صحيح البخاري، وكان معاصرًا لصهره ابن حجر، ثم هذا الكلام موجود في الكتب» يقول محمد.

«الأستاذ الكتامي كان يقول لنا معناه (آه يا عيني على البخاري)»، يجيب التلميذ ياسين.

«أستاذنا حافظ القرآن بكل القراءات فقط، ولم يهتم بغيره وأحكام التجويد»، مدافعًا عن زميله.

«عجيب كل سؤال له عندك جواب!» يستطرد ياسين.

«اسألوني عن أي شيء تجدوا الجواب. وإذا لم يحضرني الجواب، أراجع المكتبة فأجده. العلم فهم وكتاب ومكتبة» . يرد محمد.

«لا تسألوا شخصًا، اسألوا مكتبة، الزيدان مكتبة». مستنتجًا يقول السيد ياسين طه، لتُبنى صداقة العمر بين محمد وياسين، وتمتد عبر الأيام. في المدينة ومكّة وجدّة وخارج السعودية.

احتفال دار الأيتام بالأزهر والجامعة

مرت الأيام والليالي على الدار ومحمد يقوم بواجباته بكل ما أوتي من حب وعزيمة. يفخر بعمله أيما فخر يذكر نفسه أنه يتيم، وأن اليتم شعور أبدي لا يمحوه دار ولا عزوة ولا حتى مال فقط فراغ غير قابل للامتلاء.

وفي أحد الأيام قرّر مدير دار الأيتام حسني العلي السفر إلى مكّة، وذلك لأداء شعيرة العمرة وزيارة بعض الأصدقاء. وله فيها كثيرون. فحسني العلي ممّن عاصر العهود الثلاثة كلها. وكان ضابطًا في جيش فخري باشا، والي المدينة. ليصبح في عهد الأشراف مديرًا لشرطة المدينة ولينتقل بعدئذٍ في العهد السعودي مديرًا لشرطة جدّة.

ويتذكّر محمد علاقة حسني العلي القوية بمفتي القدس أمين الحسيني. وحين زار الحسيني المدينة، لم يغب حسني العلي يومًا عنه، وهما الزميلان في مقاعد الدراسة.

عيّن محمد نائبًا للدار. وقد أوكل إليه المدير الكثير من المهمّات. واستقبل محمد كل ذلك بهمّة ورحابة. حتى إن الثقة بلغت أقصى الدرجات، بين محمد والمدير. وقبل سفره إلى مكة أودع المدير عند المراقب عثمان قاري خمسة مجلّدات لجمع التبرعات، وقد ختمها بتوقيعه كل ورقة، ووضعها تحت تصرف محمد.

سأل محمد المدير قائلًا: «وين يا حسني بك مسافر، عندنا احتفال الأزهر والجامعة!»

«أعرف والله أعرف، بس عندي مهمّات أريد أن أقضيها»، يجيب المدير.

«يا بك، أنت أخبر الناس. احنا نحتاج إلى المال، وهذه فرصة لجمع التبرعات، الحفل سيحضره كثيرون، وكمان لا تنسَ أن الدار عليها دين باثني عشر ألف ليرة لمؤسسها عبد الغني دادا» يقول محمد لمديره شارحًا الوضع المالي المزري للدار.

«يا عمّي أعرف كل هذا وأكثر، بس عندي ظرف لازم أسافر، شوف أنت والشباب دبروا أموركم» يجيبه المدير.

لم يكن محمد قليل الحيلة، والتدبير هو ما تعلّمه وشربه كل يوم صغيرًا. فلا ميزة عند البدوي أهمّ من التدبير. إنجاز المهمّات والحفاظ على التماسك يمثلان قوة البدوي في الصحراء. والحاجة لا تختفي، بل تكبر كل يوم مع كل مهمة جديدة. ومحمد، الذي كان يتقاضى راتبًا قدره خمسة وثلاثون ريالًا يعرف حجم المهمّات الخاصة. فلقد خرج للتوّ من تجربة زواج لم تستمر، وخسارة ابنة وزواج جديد وأطفال جدد مع الاهتمام بشؤون العائلة. والراتب لا يكفي. كما يقال اليوم، وكسرة خبز من دار الأيتام لم تدخل بيته. يعرف محمد اليتم. وتعلّم أن التدبير له الكلمة الأخيرة.

في مكّة، وبينما كان حسني العلي يقوم بالطواف تصل إليه أخبار الدار في المدينة، وفيها أن الحفل الذي أقامه الزيدان لبعثة الجامعة والأزهر لاقى نجاحًا وصدى كبيرين. ورأس وفد الجامعة الدكتور أحمد أمين، وبعثة الأزهر رأسها الشيخ علي محفوظ. وكان الحفل أشبه بدعاية للدار، فانهالت التبرّعات وانتهت المجلّدات الخمسة التي أودعها حسني العلي. وتعامل محمد مع المجلّدات الأخرى بالتوكيل نفسه. فجمع للدار ثمانية وعشرين ألف ريال. وقد عُدّ المبلغ ثروة تلك الأيام.

وصلت هذه الأخبار، وقيمة التبرعات لحسني العلي، وهو يدعو ربّه. فشكر سعيه ورتّب أغراضه يريد الرجوع إلى المدينة. وجاء حسني العلي إلى محمد. فإذا هو لا يصدّق ما جمع من مال. وسأل الرقيب عما جرى، وعن المال وجمعه، فإذا بالرقيب يصدّق محمد قائلًا «الأستاذ الزيدان جمع المال، ولم يأخذ منه شيئًا».

لكنّ خادم عبد الغني دادا فهمي، الحلّاق الهندي، ابن المدينة يقول لحسني بك بصمت وريبة «خذ المفتاح. مفتاح الصندوق من الزيدان».

فقال حسني بك شهادة حق «اسكُت، الصندوق فيه ثمانية وعشرون ألف ريال. ومفتاح الصندوق سيبقى مع الزيدان»، ومع انتهاء جملة حسني بك دخل محمد إلى المكتب سامعًا الشهادة منه.

فانتفض محمد شامخًا وهو يقول: «خذ حسني بك المفتاح. لا يعرف الحرامي إلا الحرامي». وناوله المفتاح.

«البخل شحك بما تملك..والحسد شحك بما لا تملك»

محمد حسين زيدان

السواني

للإنكليز ريفهم. ولأهل الشام ضِيعهم. وللمصريين نيلهم، كما للعراقيين دجلة والفرات. كل فرد منهم، وبعد يوم عمل شاق وطويل، يتنحّى عن ضغوط الحياة ليأخذ قيلولته في آخر النهار، «يفصل» بالمعنى الحديث و»يقيل». أما أهل المدينة، فلهم بلادهم.

البستان يسمّونه البلاد في المدينة، وفي أيام الصحابة كانوا يسمّونه حائطًا. وجمعة المقيل في البلاد لم يكن يفوّتها محمد. فلقد تعوّد أن يخرج مع الأصدقاء إلى بستان ما. يتجنّبون العيون، ويفضّلون المقيل في العوالي، والدوّار، والعقيلية، والفقير. والفقير هو الحائط، الذي غرس فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه الصنوان، الذي فُرض على الصحابي الجليل سلمان الفارسي، ليُعتق من مالكه، الذي اشترط هذا الصنوان.

وزراعة النخيل ليست جديدة في المدينة، ولا شيء يشمخ به صاحب الأرض كأرضه ومنتجها، حتى عرف الناس ببلادها.

ذياب ناصر في العقيلية، وسعود دشيشة في الدوّار. الخواجة في الغرس، الشريف شحات بن علي في سوالة، والشريف ناصر في البدرية. الشيخ صالح القاضي في الحسنية، وعبد الله بن مسلم المحمادي الحربي في بستانه، بجانب مسجد قباء. الخاشقجي في الربعي، والرفاعي في الجذع، والعباسية للعباسيين، وحتى الشريف عون كان له بستان في قباء، ثمّ انتقل بالشراء للسيد طه محمد حسين عثمان (بيت طه الشريف). وبساتين أخرى معروفة يتذكّرها محمد.

الأنصاري في الناعمة، وزين العابدين مدني في المصرع، شمال المدينة، يوسف خشيرم في الخشيرمية، بجانب المصرع. ابن جوعان وعبد الله بن دخيل وأخوه محماس في الجوعانية. المفتي الداغستاني في المفتية، والوسيدي في أم البيض. ومعتوق خاشقجي، جدّ بهاء الدين خاشقجي، وجّد أبناء أحفاد محمد، في الشنيبلية.

المدينة كلّها حيطان، أو بساتين، تُزرع. لم تستورد التمر والفاكهة، وتحديدًا الرمّان والعنب والتين، أو هي لم تستورد حتى وصول سكة الحديد من الشام إليها. فلقد عرفت حسنات الاكتفاء الذاتي، مثلًا الحنطة بكل أنواعها الثلاثة، اللقيم للشوربة، والجريش وحنطة الخمير، والمعيا للفطير، أما الخضروات، فموسمية. لذا يتعامل أهل المدينة مع البامية والملوخية والطماطم

والباذنجان الأسود بالتجفيف. كما كانوا يخزّنون الثوم والبصل والجبن والسمن. اكتفاء ذاتي طبيعي.

يومذاك، وبعد يوم مديني طويل استقرّ مقيل محمد وأصدقائه في النشير. اجتمع بين النخيل وتحت السماء الصافية اللون مصطفى عطار، عبد العزيز بدوي، أسعد طرابزوني، منتظر طرابزوني، عثمان حافظ، موسى أبو عيفة، محمد المغيربي.

«هذه البلاد ملك بيت حمودة، صحيح يا جماعة؟» يسأل أحد الحضور.

«لا لا لا، اشتراها منهم وبرخص التراب صالح العبد العزيز الميمان»، يجيب مصطفى عطار.

«لا وأنت الصادق، سمعت انو باعوها بيت حمودة بخمسة وأربعين جنيهًا فقط»!، مضيفًا يقول عثمان حافظ.

«معقول بس هذا المبلغ، رخيص مرة، فيها نخيل وسواني، مرة رخيص»، متفاجئًا يقول أسعد طرابزوني.

«هذه قسوة الأيام يا جماعة، حتى زوج أختي بدرية، خضر عصر الأحمدي، اشترى الصفيا بسبعين جنيهًا بس»، يجيب محمد أصدقاءه.

ثم يقطع محمد حديثه قائلًا «أهلا أهلا بأبو عيفة، كيف حالك يا صديقي؟».

يحيّي محمد صديقه موسى أبو عيفة، ابن المدينة الأصيل، والعضو في البشكة (الشلة)، من نخاولة العوالي، وأشياخ قبيلة. هو فلاح من صميم الفلاحين، يعرف أرضه، ويعرف أكثر تربتها.

«هلا وسهلا بالشباب، كيف حال الجميع؟»، يردّ التحية أبو عيفة.

«جئت بوقتك» يقول محمد المغيربي.

«خير، مشتاقين مرة، البارحة كنا سوى» يجيب أبو عيفة.

«الناس يشكرونك لأنك أعدت للعنب مجده»، يقول محمد المغيربي، ليكمل «العنب مات في العوالي، كما ماتت أيام فخري باشا، وأنت أحييت العنب مرة أخرى»

«صحيح صحيح، لك الفضل يا موسى، من زمان والعنب ما ذقناه بهذه الجودة»، معقّبًا يقول منتظر طرابزوني.

«بس أريد أن أسألك، لماذا لم تركّب ماكينة على البئر، وبقيت على السواني(12)؟».

«يا أخ محمد، شوف، الماكينة تنزع البئر» يقول أبو عيفة.

«عجيب مرة وحدة يا رجل، يعني من يوم ما جابها المدينة السيد محمود أحمد، والناس شغالة عليها». يقول منتظر طرابزوني متحديًا.

«اصبر اصبر يا سيد، أنت تعرف مين أبو عيفة، هذا فلاح ابن الأرض، يعني أنه خبير ومجرّب» . يجيب محمد، طالباً من أبي عيفة الشرح.

«يا منتظر اسمع دقيقة، لما تتكسّر أو يخرب في الماكينة شيء، متى تصلح؟ متى يطلع شريف أفندي يصلحها؟» يجيب أبو عيفة.

يومذاك، جلب السيد محمود أحمد الماكينات العاملة بالكاز بديلًا عن السواني. وكانت مستوردة من ماركة سوكوني فاكوم شل. وفضلًا عن شحّ الكاز، وسعره الغالي الثمن، كانت الماكينات تتعطّل أحيانًا، ففطن السيد محمود لحيلة أن يستعين بشريف أفندي مدير كهرباء الحرم، فإذا به يستبدل المحرّكات بالكاز بصنع أفران يشتعل فيها الفحم عوضًا عن الكاز.

يكمل أبو عيفة شرحه: «ثمّ بناتي وأبنائي يصبحون عاطلين من العمل عند حدوث عطل في الماكينة، ولد واحد يشغّل الماكينة، أما السواني، فإذا طاح جمل أو حمار، فإنه يجب أن أنزل السوق، وبعد ساعة أشدّ عليها القرب، فلا يموت شجري ولا تفرغ بئري ويشتغل الأولاد، يفتلون الزمام والرشا، يدبّغون القروب، ينفون النجيل علفًا للسانية».

«الآن عرفت، كلّه طبيعيّ في طبيعي»، يقول محمد المغيربي.

«بس الجميل في الموضوع يا جماعة كيف تدفعنا السواني لمساعدة بعضنا بعضًا، بعض أولادي باسم الفزعة للجيران ينظّفون أحواض الجار من النجيل، أكسبه علفًا وأسقي الزرع بماء السانية».

«هذا من طيب أصلك، بس أخذتنا في الكلام، وين العنب خلّينا نجرب» . يقول محمد.

يخرج أبو عيفة صندوقًا فيه العنب والرمّان والتين. يتسامرون ما بقي من حديث، وعلى آخر ضوء النهار. بعدها يلملم ما تبقى من أحاديث السهرة ليستقيل الى بيته.

وفي اليوم التالي في ضحى يوم مديني جميل، جلس محمد عند صديقه، صلاح الدين عبد الجواد، في دكان أبيه في سويقة. الشمس ساطعة بنورها من خلف جبل أحد، والسماء صافية بلونها الأزرق، بينما الهواء يسرح ويمرح برخاء وهدوء. فالأيام بدت كأنها مقبلة على السكينة. بعد طول الحصار على المدينة وأهلها، وبعد تسليمها لابن سعود، تاق الناس إلى السكينة والهدوء.

الحركة في السوق «ماشية». وهدير الناس يجري بين الدكاكين، والبيع والشراء قائمان، لكن كل بحساب، إذ ما زال هاجس الخوف واللااستقرار يسيطران على الجميع. يغطّي السوق تكدّس الموادّ. لا من قلة في المعروض، فقد بدأت البضائع المحمّلة من الهند وإيران ومصر تتوالى. وأما بضاعة الشام، فاقتصرت على لوازم البدو من مشالح ومنسوجات اشتُهرت في مدينة حلب. فلقد تعرضت الشام وأهلها في تلك الفترة لأقصى الهزات في صراع القوى العظمى. أراد المحتل الفرنسي أو سلطة الانتداب، كما سُمّيت، تقسيم الأرض والناس، ولكنّ الرفض الشاميّ كان صادحًا، يصل مداه إلى أسوار المدينة.

«كيف السهرة البارحة عند أبو عيفة»، يسأل صلاح الدين محمد.

«والله طيبة، فاتتك». يجيب محمد.

«تخيّل، أراد الفرنسيون تقسيم الشام أكثر، ما يكفي انو جبل لبنان انفصل» ، يقول صلاح الدين مغيرًا مجرى الحديث، وهو يجلس على كرسيّه في خارج الدكّان عند المدخل.

«يا صديقي لبنان قصّته مختلفة، علاقة الجبل اللبناني مع الانتداب قديمة، وقبل الحرب العالمية الأولى»، يجيب محمد.

«كيف لبنان ليس جزءًا من الشام؟»، يتساءل صلاح الدين، بمزيج من الاستغراب والاهتمام.

«شوف يا سيدي. سكّان لبنان وفلسطين ودمشق وحلب وحمص وبيروت وطرابلس وَوَوَوَ كلّهم أهل حوض البحر الأبيض المتوسط، عرب، أبناء عرب، وأرض عربية. وإذا نظرنا نظرة عامة إلى شؤون الدولة العثمانية، فإننا نجد أنه حتى الأناضول جزء من هذا النسيج الذي نختصره بكلمة الشام». يسكت

محمد ثانيتين، ثم يدخل أعمق في الحديث: «ما حدث عند سقوط الدولة العثمانية أن الإنكليز والفرنسيين قسّموا الأرض إلى جزء فرنسي، وجزء بريطاني، ولكنّ الجغرافيا والتاريخ لا يُجَزَّآن. اليوم مثلًا الشيخ صالح العلي، شيخ العلويين، وقف مع ابن جبل العرب الدرزي الحوراني سلطان باشا الأطرش، رفضًا للتقسيم. وكذلك ابن دمشق مع ابن حلب وغيرهم».

«طيب ولبنان يا أستاذ، أو كاتب، تحبّ نناديك؟» يقطع الحوار صلاح الدين.

«أستاذ طيّب»، ويضحك محمد ضحكة واضحة لم يستطع إخفاءها.

«يا سيدي لبنان أراد الاستقلال ونالهُ، وكان ذلك لظروف لها علاقة بالجغرافيا مرة ثانية، والزعماء فيه. نسيت الخلاف والصراع اللذين دارا في شوارع بيروت بين من هم مع الاستقلال، ومن هم مع العثمانيين ومع السلطة في الشام؟ أما في برّ الشام، فقواعد اللعبة مختلفة، ولطالما كانت كذلك منذ أيام بيزنطية والأمويين والعباسيين والعثمانيين وحتى اليوم».

يقول محمد ثم يكمل متسائلًا: «في ضيافة اليوم، ولا الأمور زي السوق ناشفة؟»

ممازحًا يجيبه صلاح الدين: «زيّ السوق مافي، دحين يجيك الشاهي، بس على فكرة السوق يوم عن يوم أفضل، يعني في تحسّن، بس كمل الله يرضى عليك أستاذ، ليش الشام غير؟».

«يا سيدي الشام غير، ولكن ليست مختلفة. ارتباط دمشق وحلب مع القاهرة ومكة والمدينة عضويّ. ولن يختلف، لكنّ الشام الآن بموجب اتفاقية التقسيم سايكس بيكو أصبحت فرنسية. يعني تحت سلطة جديدة، مرجعها سياسيًا باريس. وأما القاهرة، ومعها بغداد، فمع لندن. نحن في عصر جديد، نظام دولي جديد، وعهد جديد بزعماء جدد».

«يعني هذا ما يقصدونه بالأيام دول»، يقطع صلاح الدين سيل الكلام من محمد.

في تلك الأيام كانت التحوّلات سريعة، وغير معلنة، لم يكن هناك قنوات فضائيّة لنقل الخبر أو تكنولوجيا وسائل التواصل الاجتماعي لعرض الأخبار في هاتفك المحمول. فقط الأخبار والأحداث تصل بالتواتر وبعد مدّة. سقوط دول وولادة أخرى، ومعها زعماء لطالما ملؤوا الناس وشغلوا العالم.

والمدينة لم تكن الاستثناء.

أخذ الحديث يتّسع أكثر بين الصديقين. ومع دخول كل زبون إلى الدكّان يُقطع الحديث ليكمل بعد خروجه منه، لا اعتراض على الرزق، وإن كان سؤال من دون إتمام الشراء، فالحركة بركة.

ثم من بين الجموع ظهر أحد وجهاء المدينة، ظهر آتيًا من جهة المسجد. يمشي ليصل ويقف أمام محمد وصديقه. يحمل في مشيته علامات الوجاهة. الوجاهة التي أخذت تتغّير مع تداول الأيام وتغيير الدول. فنحن في العهد السعودي، وهذا الرجل هو عين ابن عين من عوائل المدينة. هو السيد أبو السعود أسعد.

ابن السيد أحمد أسعد، الذي ذاع صيته في العهد العثماني، وتحديدًا أيام السلطان عبد الحميد، حيث كان مكلفًا من السلطان فعل ما ينبغي للحجاز، أو ما يريده السلطان نفسه. كفاءة أحمد أسعد وعلاقته القوية مع السلطان أهّلتاه أيضًا لأداء دور في إيصال مكة وشريفها بالسلطان. وصل، نفوذ، وسلطة. ففي مكة كان عون الرفيق العبدلي من أبي نمي الشريف. وقد نصّب شريفًا من العبادلة من ذوي عون بتكليف من والي مصر محمد علي باشا بدلًا من ذوي زيد. لتنشأ علاقة بين فرع عون الرفيق العبدلي، ومحمد علي باشا، الوالي المصري، أقل ما توصف به بأنها قوية ومتينة. بتلك الواقعة نُسجت علاقة مميزة بين القاهرة ومكة، لا تمر من اسطنبول.

ولكن الشريف عون الرفيق لم يكن يريد الجفوة مع الباب العالي، ولا يريد خسارة الإمارة استفزازًا للقاهرة. فإذا هو يخطب لابنه عبد العزيز بن عون الرفيق ابنة السيد أحمد أسعد واسمها فاطمة. في مصاهرة أعطت الشريف عون الثبات على إمارته ربطًا بعلاقة السيد أحمد أسعد بالسلطان العثماني عبد الحميد.

في المقابل ثبّت أحمد أسعد وجاهته في المدينة طيلة عهد السلطان عبد الحميد، ومعه في جدة الأفندي عمر نصيف يناصره على موسى بغدادي، حليف العبادلة. أما في مصر، فقد وجد السيد أحمد أسعد نفسه يعلو أكثر فأكثر في السلطة، حتى إنّ الخديوي إسماعيل لجأ إليه ليصدر فرمانه الشهير بحصر وراثة الخديوية في إسماعيل وبنيه. لدرجة أنه عندما تلقّى الخديوي إسماعيل الفرمان وهب السيد أحمد أسعد خمسة عشر ألف فدان من الأرض الجديدة. فرفض أحمد قبولها قائلًا إنه لا يأخذ أجرًا أو رشوة على عمل كان الوسيط فيه لدى السلطان.

وحالما اقترب السيد أبو السعود وريث المكانة والوجاهة الأسعديتين من أبيه مرّ من أمامه وجيه آخر من المدينة، هو أبو أحمد سعود دشيشة. وآل دشيشة لهم باع طويل في ممارسة السلطة وألاعيبها المحلية، ولهم أحد الوجاقات أيضًا أو السبهية وتعني الخيّالة، ولهم كذلك خصومة التنافس مع آل أسعد. إنها خصومة محمد ظافر وأحمد أسعد. فسعود دشيشة كان خليفة لمحمد ظافر أيام السلطان عبد الحميد.

فقد رأس سعود دشيشة الوجاق السباهي بعد محمد ظافر، بعدما تنحّى عنه له. يومذاك كان أحمد أسعد الرجل الأول عند السلطان عبد الحميد وظافر الثاني. وآل ظافر لهم الباع في الشأن العامّ. وأبو محمد هو الشيخ حمزة ظافر المديني، الذي أنهض الليبيين إلى العمل السياسيّ.

اقترب أبو أحمد سعود دشيشة آتيًا من جهة باب المصري إلى المسجد، يمشي وجيه في مقابل وجيه. والشارع يضيق أكثر فأكثر. لدرجة أن تحاذى كتفا الرجلين. وسط مراقبة ومتابعة الصديقين صلاح الدين ومحمد. وحالما جمعهما الشارع الضيّق لم تستطع خصومة الأهل منع سعود دشيشة من إلقاء السلام. حتى إذا مر خطوة التفت أبو السعود أسعد ينظر إلى سعود دشيشة نظرة محترمة شكلًا، حارقة مضمونًا. «لا حول الله، كل هذا الغل» ، يصيح صلاح الدين مستاءً. فهو يعرف قيمة أبي السعود أسعد، ويحزن على ما حدث من تبدّل للحال.

{وتلك الأيام نداولها بين الناس}(13)، فلنتذكّر صديقي ونعتبر» ، يجيب محمد. ففي المدينة ارتفع قدر بعض الأسر، التي كان أفرادها أصهارًا لأحمد أسعد أو أصدقاءه. لم يضغط أحمد أسعد على الأسر القديمة، بل إن الأسر الجديدة ارتفعت بتبدّل الحال. عهد جديد ومعه نظام اجتماعيّ جديد. أو كما قال الشاعر أبو البقاء الرندي، صاحب القصيدة الباكية على الأندلس:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصـان فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساءته أزمـان

الزيارة الثانية لعبد العزيز إلى المدينة

أتى الملك عبد العزيز إلى المدينة للمرة الثانية بعد انتصاره في معركة السبلة. ومعركة السبلة كانت نقطة تحوّل كبيرة في مسار العهد الثالث الجديد لمحمد. في هذه المعركة وعلى أرض روضة السبلة بين الأرطاوية والزلفي، انتصرت قوات آل سعود عبد العزيز على الإخوان بقيادة سلطان بن بجاد، وفيصل الدويش. وتعدّ هذه آخر المعارك الرئيسية التي خاضها عبد العزيز.

وعند وصول الملك عبد العزيز كان في معيّته محمد الطويل ومحمد سرور الصبّان. نزل الملك في قصر الضيافة، أو بيت الخريجي، الذي أمر عبد العزيز بجعله منزلًا لكبار ضيوف الدولة. فمعرفة آل الخريجي بآل سعود قديمة وعميقة. ولهذه الصلة نشأة يمكن تتبّعها حين ضُمّ الحجاز إلى نجد، وتكليف ابن سعود لعبد العزيز ومحمد الخريجي ليكونا هما وعبد الله بن محمد الفضل برفقة الأمير محمد بن عبد العزيز عند دخوله المدينة.

وكان لآل الخريجي في بيتهم مجلس معروف. يجتمع ليلتي الاثنين والجمعة من كل أسبوع للتشاور بين أعيان البلد. والمنزل يقع في غرب مسجد الغمامة، وسوق الفحم، وهو مزيّن بالحجارة المنحوتة وبمعمارية هندسية فريدة في الشكل، إضافةً إلى ذلك يجري لقاء ضيوف الدولة فيه، وتكريمهم في الحفلات الرسمية في بستان الخريجية في العوالي، وبه نُزُلان للرجال والنساء.

تصدّر الملك عبد العزيز المجلس في بيت الخريجي، وإلى جانبه جلس ابنه الأمير فيصل بن عبد العزيز، الذي وصل إلى المدينة بعد أبيه حاملًا إليه تقريرًا عن المفاوضات التي أجراها. وبينما كان يتحدّث إلى والده الملك اقتحم المجلس شاب من أهل المدينة. دخل حسن حسين وهو البقّال اللطيف الذي يلجأ كل أهل البلد لقضاء مشترياتهم وحاجياتهم منه، دخل ممسكًا بعريضة في يده طالبًا من الملك أن يسمح له بإدخال الدخان المجمرك، الذي صادرته هيئة الأمر بالمعروف، واقترب أكثر من الملك لدرجة أن ابنه فيصل تأهّب متحسبًا لغير ذلك.

يتابع محمد ما يجري وكلّه خوف على صديقه البقّال حسن، خائفًا عليه، فهو يعرف قلة خبرته في المجالس مع الكبار، وشخصيته المرحة المتباسطة. تردّد محمد في التدخّل أو عدمه، حتّى محمد سالم، صديق محمد، الجالس قربه أراد إنقاذ الموقف، ولكن بلا جدوى، واقترب البقال أكثر راغبًا في مخاطبة الملك. هنا تدخّل الحرس وأقام دائرة حول الملك.

على الفور أدرك عبد العزيز ما يحدث، رجل بسيط يريد حلّ مشاكله. فقام الملك من مقعده، ونهر البقّال حسن لفعلته، وأمر حرسه بحبس المتطفّل على المجلس. فإذا بالفتى حسن يرتعد خوفًا. ويصيح مخاطبًا الملك: «يا هو أنت جاي ضيف ولا جاي تحبسها».

بلغ الاستفزاز مداه. والصمت يطبق على المجلس. والخريجيان حريصان على تجنب أيّ مشكل. ومحمد يقف مراقبًا ومترقبًا، فهو يعرف أن الملك لا يحبّذ الإثارة، فما بالك مع صاحب حاجة وقضاء.

وحالما استدار الملك نصف استدارة عدّل من وقفته شامخًا وقال: «والله إنني ضيف ردّوا له حقّه».

فإذا بالناس يهتفون داخل صدورهم، لا يريدون ضغينة ولا صراعات. جلس عبد العزيز أيامًا في المدينة يتفقّد الأحوال، فهو كما يصفه محمد، كان يريد أن يعرف كلّ شيء، فكان ينام ولا ينيم. أسّس ملكه ووحّد العرب في جزيرته، وصنع القليل، الكثير.

ليزور الملك عبد العزيز بعد هذه الزيارة حسب ذاكرة محمد ملك مصر. حين وصل الملك فاروق إلى المدينة من مصر، مصر التي هي الحاضن لجزيرة العرب، والأخت التوأم للحجاز.

حين ألقى كلمة الشعب

كعادته بعد صلاة المغرب يهمّ محمد بالخروج للقاء أصدقائه. أصبح محمد شابًا يحمل لقب الأستاذ، ويحمل معه كل أنواع الفخر والاعتزاز بهذا اللقب، ولكنّ لقب معلّم الصبيان كان الأقرب إلى قلبه. اللقب الذي أطلقه عليه تلاميذه في دار الأيتام.

ذهب يستعد. يلبس مشلحه أبو شهر الذي يبلغ سعره ستة جنيهات أو أقل. يسأل أهل البيت إن كانوا يحتاجون إلى شيء ما. البيت في النورية. على العدوة اليمنى من سيل أبو جيدة. سيل بطحان وعلى مدخل البرابيخ.

«فاطمة، أنا خارج... تبغوا حاجة؟»

«لا، سلامتك»، تجيب زوجته الثانية فاطمة.

لم يكن هناك نصيب في زواجه الأول. أراد محمد قبل أن يصبح معلّمًا وأن يكمل علمه في مصر، لكنّ شيخه وأستاذه محمد العلي التركي رفض ذلك. وأشار عليه بالزواج. أكمِل نصف دينك أولًا قال له. وهكذا تزوّج إحدى بنات الحمولة. مريم بنت حسن أبو الذهب العامرية. لم يدم الزواج أكثر من سنة. مثمرًا ابنته فاطمة.

عند خروجه من الباب ركضت ابنته الثانية، الطفلة خديجة وهي تنادي: «أبوية أبوية». الابنة الأولى من الزواج الأول فاطمة توفيت أيام الوباء. وباء الحصبة، الذي حصد في عام واحد أربعين طفلًا وطفلة.

آآآآخخخخخ تنهّد أبو خديجة. وأخذ يخمخمها مستنشقًا الهواء في ثنية رقبتها. يحبّ الأطفال. ويحب أكثر شعور الطفل عند مناداته أمه وأباه، فهو لم يذق طعم كلمة أمي في حياته.

استجمع قواه وخرج، وبدأ يخطّط يومه، فإذا بصديقين له أمامه. عبد العزيز بري، وحلمي دقاق. يناديان عليه: «تعال بسرعة، عباس قطان يبغاك». فقد وصل إلى المدينة رئيس بلدية العاصمة المقدّسة مكّة المكرمة، الشيخ عباس قطان، مبعوثًا من الملك عبد العزيز، وممثلًا لإمارة المدينة، وقد استقبله وكيلها الجديد الأمير عبد الله السعد السديري.

«خير أيش يبغى؟» سأل محمد صديقيه.

«روح بس، وتعرف القصة»، جاءه الجواب.

اكتسب محمد صيتًا في المدينة كخطيب. فلقد ألقى كلمة مرتجلة أمام بعثة جامعة الأزهر. وكلمة في حفل تكريم الدكتور محمد حسين هيكل، المقامة في بستان العمرانية. كما أنه ألقى خطابًا في حفل تكريم طلعت حرب باشا. وكذلك عند تكريم الدكتور محمد خاشقجي مرتين.

موهبة صقلها منذ الصغر، كقارئ في حلقات درس المسجد النبوي، وتحت إشراف أستاذه السيد محمد صقر. استقام أداؤه جهوريًا لا يلحن صرفًا أو نحوًا، بل إن كل حرف له إيقاع. لتكتمل الجملة في صيغة نوتة. ثم يجمع هو بمهارة قائد الأوركسترا كل الجمل في لحن واحد، ليعيش المستمع الخطاب.

وصل محمد الى الشيخ عباس قطان. وبعد السلام بادر القطان قائلًا: «الطلّاب توفيق، وعبد العزيز بري، وحسن موسى، قالوا لي إنّ أحسن من يلقي خطاب الملك عبد العزيز هو الزيدان، وقد أرسلت البرنامج إلى مطبعة عثمان حافظ، لكنني لا أدري كيف عرف بعض الأعيان في المدينة، واعترضوا عليك».

«وانت أيش رأيك؟» بكل ما أوتي من كظم للغيظ سأل محمد.

«شوف، أشار عليّ أصحابك بأن يلقي الخطاب عميد المعارف السيد أحمد صقر، فهو موظف كبير، وأستاذ الإلقاء والأداء في المدارس. والزيدان يلقي كلمة باسم أهل المدينة. إيش رأيك، يلا قم واكتب الخطاب».

وافق محمد علي مضض. ولم يكن يريد إهداء نصر مجاني لبعض المتعنصرين في المدينة فينسحب بدون معركة. وفي صباح اليوم التالي، وهو في طريقه إلى دار الأيتام حيث يعمل، اشترى محمد نصف شريكة (سحيرة) وطعميّة مقلية بأربعة هللات. كوب الشاهي إلى جانبه وقلمه بيده. راح يكتب الخطاب. ثم طوى الورقة ووضعها في جيبه. وذهب إلى القطان.

قرأ الخطاب عليه فأعجبه. وقال له: «طيّب أنت ما شفت البرنامج، وخطاب الملك، كيف كتبت هذا؟».

«الملك عبد العزيز ألقى كلمة في جدّة، وكلمة في عشيرة أمام المودّعين، والكلمتان نشرتا في جريدة أم القرى. فتأكد لي أن خطابه مثل كلمته في جدّة والعشيرة»، جاوب محمد، وبمطلق الثقة.

«برافو، يلّا نشوفك في الحفل إذن «، قال الشيخ قطان منشرحًا مبسوطًا.

في الحفل....

صعد محمد إلى المنبر. والحضور اكتمل. الملك عبد العزيز في صدر المجلس وإلى جانبه يجلس الشيخ قطان، وكل من عارض إلقاء كلمته من الأهالي يراقب ويجلس بين الجمهور. وانطلق صادحًا في ما يفعله بالفطرة.

«أيها الناس سمعتم كلمة الملك، فاسمعوا كلمة الشعب ولا يتحركنّ منكم أحد»

ولم يتحرّك أحد.

«البعض يرسخون مكانتهم بما تفيض به القلوب..

والآخرون يزرعون مكانتهم بما تمتلئ به الجيوب»

محمد حسين زيدان

السيد صافي

والشريف كلقب لمن هم من آل البيت، تقليديًا وتاريخيًا فكلّ من كان هاشميًا، نسبةً إلى هاشم بن عبد مناف جدّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحمل لقب الشريف. سواء أكان علويًا (نسبة لعلي بن أبي طالب) أم جعفريًا (جعفر بن أبي طالب) أم عباسيًا (العباس بن عبد المطلب). ثم بعد حروب وصراعات سياسية متعددة في العالم الإسلامي اقتصر اللقب على العلويين فقط، أحفاد الإمام علي بن أبي طالب. وتحديدًا فترة العهد الفاطمي في مصر، اقتصر أكثر على العلويين من أبناء السبطين الحسن والحسين، ابنَي فاطمة الزهراء، بنت رسول الله. وأما محمد بن علي بن أبي طالب، أخوهم الذي لُقّب بابن الحنفية، لأن أمه من قبيلة بني حنيفة، فأصبحوا أبناء قبيلته هم السادة. ليطلَق اللقب بعد سقوط الدولة الفاطمية، وانتقال الحكم إلى العهد العثماني على أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب. ثم على أبناء قتادة بن إدريس، وأبناء أبي نمي الأول، ومن بعده أبي نمي الثاني (أشراف مكة في العصر الحديث). ويكون السادة هم أحفاد الحسين، من عقبه الوحيد عليّ زين العابدين.

وكذا أصبح اللقب نسبًا. فإذا أُشير إلى أحد في الحجاز بالسيد، فهو حسينيّ، وإذا قيل الشريف فلان أو فلانة، فاعرف أنه حسنيّ.

في المدينة بقي من الأشراف ممّن عُرفوا بآل المسيب، وهم يلتقون أشراف مكة. فكلاهما من أحفاد موسى الجون بن عبد الله المحض، بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب. ومنهم من عُرف في التاريخ المديني الحديث، وهو الشريف شحّات بن علي، قائم مقام المدينة.

أما السادة في المدينة، فأغلبهم ينتسبون إلى آل السيد باعلوي الحسيني الهاشمي. ولهم المقام الأول في حضرموت. وانتشر منهم في ماليزيا وإندونيسيا كعائلات الكاف والسقاف وجمال الليل (ينطقها أهل المدينة بجمل الليل). وانتشر أيضًا منهم في مكة ولهم كل المكانة فيها. منهم الحبشي والعطاس والسقاف والبيتي والمحضار والبار وباروم وباجنيد والجفري وبافقيه وغيرهم، وكانت لهم امتيازات من ضمنها مشيخة السادة. فالحسينيون كانوا أشراف المدينة الأوّلين. وآل باعلوي والبطاطخة والمخادمة في قنا، وآل بدر الدين في بخارى، والكتانيون في المغرب، كل هؤلاء حسينيون.

برز منهم رجال كثيرون، لهم الزعامة إضافةً إلى المكانة. ويتذكّر الزيدان شيخ السادة فى مكّة وفى المدينة. عُرف منهم السيد علوى سقّاف، جدّ السيد عمر

السقاف، الوزير في العهد السعوديّ، ثمّ السيد عبد اللّه جمل الليل، ثم السيد بافقيه، وهكذا.

إلّا أن الذكرى التي علقت في ذاكرة محمد كانت عن أحد كبار رجال المدينة، وأحد رجال السلطان عبد المجيد، السيد صافي الجفري، الذي عاش كثيرًا في اسطنبول. وفي عصر عبد الحميد صار شيخًا في المدينة، وذاع صيته ليصبح من رجالات العهد، ومن أثراهم، علاقات ومال وسلطة، لدرجة أن شاع مثلًا في المدينة يومذاك أن ثلاث عرايس في المدينة يمكن أن يتحلوا بمصاغ جارية من بيت الصافي. في إشارة إلى اقتنائه أغلى المجوهرات.

كان له ابنان، زين صافي، وأحمد صافي. وكانا يُعدّان من الطلائع في المدينة.

واستمر في سلطانه ووجاهته. حتّى في عهد السلطان عبد الحميد، وزاد الثراء على الثراء. ويتذكّر محمد كيف ضجت المدينة بحفل الغداء، الذي أعدّه السيد صافي لاستقبال السيد أحمد أسعد عند رجوعه إلى المدينة من السفر. أعدّ السيد صافي المائدة في المجلس الأعلى ليكثر عدد الدرج، في بيته الكبير في الساحة، ذلك أنّه أراد أن يُظهر ما يملكه من أغلى أنواع الأقمشة، الحرير السليمي، من باب البيت وعتبته، ففرش السيد صافي بيته حتّى المجلس الفوقي بهذا القماش السليمي. وفي ذاك الزمان اشتهر لباس الرجل بارتداء الحزام السليمي، دلالة على الوجاهة والفخامة. الحزام الذي كان يكلف أكثر من مئة جنيه ذهبًا. فكم قيمة الحرير السليمي الذي فرشه السيد صافي تحية للسيد أسعد؟

قيمته المادية كانت كبيرة في تلك الأيام، إلّا أن القيمة المعنوية التي أرادها السيد صافي كانت أغلى وأكبر. أراد السيد صافي إبراز ثرائه للسيد أحمد أسعد، كنوع من المبارزة البرجوازية المدينية، وعندما زار السيد صافي السيد أحمد أسعد في بيته، فإذا به يرى على السيد أحمد (صاقو) أي الجاكيت الذي يرتديه من السليمي، فلما انتهى السيد صافي من الزيارة ومن كرامة التزاور، دعا السيد أحمد أسعد إلى الغداء في بيته.

وفي عصر يوم مديني اجتمع محمد مع أصدقائه عند الشيخ عبد القادر الطرابلسي. وكان المجتمعون من خيرة أهل المدينة. ماجد عشقي وحسين طه وأحمد صقر وعثمان حافظ، وجرى الحديث بين الحاضرين، وأكواب الشاهي تمرَّر بينهم، في إيحاء بالتباسط والتسلية الممزوجة بجدية المضمون، الحديث طبعًا.

بدأ محمد الحديث كعادته، مفتتحًا ومختتمًا. مهمّة أوكلها إليه أصدقاؤه وأساتذته. فقد اعتاد محمد أن يذكّر الحضور بأن للكلمة جرْسًا ونشوة. يجعلهم يعيشون الحوار. إذا كان عن غزوة من غزوات الرسول صلّى اللّه عليه وسلم، فإنهم يعيشون الحرب. وإذا كان عن نسب قبيلة أو عائلة يرسم شجرة النسب بالكلام حافظًا ومحافظًا على التسلسل. وإذا تحدّث في السياسة أو الاقتصاد، كان يُسقط الماضي على الحاضر. يستجلب قصصًا من التاريخ ويصفّها ليرسمها ويُسقطها على الواقع من حدث أو قضية. لينتشي السامع طربًا راشفًا من كأس وعائها الشاهي المخمّر والمخدّر.

بساطة الطريقة الزيدانية.

يبدأ الزيدان قائلًا: «تعرفون يا جماعة أن السيد صافي والشيخ جمال الدين الأفغاني تربطهما علاقة صداقة قوية»

تتفتح عينا الشيخ عبد القادر الطرابلسي، فيعرف الزيدان أن مفعول الأوّل قد نجح. ثم يكمل قائلًا: «الشيخ جمال الدين يا مولانا»، موجّهًا حديثه إلى الشيخ الطرابلسي، «تعرف أنه بعد أداء فريضة الحج كان سلفيًا بالمعنى العامّ مناضلًا عن الإسلام ومناصرًا للعقيدة؟» هنا انتفض الشيخ الطرابلسي معدِّلًا من مقعده، احمرّ وجهه الشديد البياض، وارتفعت يده ترتجف من العصبية والجدية، واليد الثانية تمسك بعصاه بدرجة الضغط نفسها ويقول: «وهابيّ جمال الدين ما يحب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم».

نهض السيد أحمد صقر يقول: «لا يا مولانا لا، رأيت كتابًا مرسَلًا من جمال الدين إلى السيد الصافي جاء فيه (لقد أديت فريضة الحج وحبسني حابس الفيل عن المسجد النبوي، لذا أرجوك أن تقف أمام قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وتُقرئه سلامي وتقول: تابعك خادمك جمال الدين يُقرئك السلام)».

كان الزيدان يعرف علاقة الشيخ الطرابلسي بيوسف النبهاني، ويعرف أيضًا رأي كل منهما في الشيخ جمال الدين الأفغاني، ولكنه كان يعرف أكثر علاقة السيد صافي بالأفغاني، وشديد الثقة بإنصاف السيد أحمد صقر.

ثم بعدها بدقائق توالت أخبار حزينة على قلوب الحاضرين. وتحديدًا محمد. فقد وصل خبر وفاة أمير الشعراء الشاعر المصري الكبير أحمد شوقي. ليستقيل بعدها محمد من الجميع مودعهم ويمضي إلى بيته.

في الأسبوع التالي خرج محمد يريد متابعة أخبار نعي الشاعر أحمد شوقي في الصحف والمجلات. حيث لم يكن هناك تلفاز أو أنترنت. يقصد السوق والحراج ويستخرج كل قصاصة ومقالة عن الحدث. فيجمعهم وينطلق إلى بيته للقراءة.

ابن خلدون ومحمد يقرآن قصيدة

إنه يوم الجمعة. يستيقظ متأخّرًا، ولكنْ متوثّبًا. فلقد أمضى محمد الليلة السابقة سهران. أمضى الليل كله يقرأ ما كُتب عن الشاعر المصري أحمد شوقي. فلقد توفّي وانهالت المقالات والقصائد في مديح الشاعر الكبير ووداعهِ. من مجلة إلى أخرى، ومن صحيفة إلى غيرها.

ليلة طرب وسهر، ومحمد يقرأ بأذنيه كل أنواع الكلام. الشعر والنثر. كل الإيقاعات متوافرة، وسلّم المعاني بديع موسيقيًا. كانت حفلة أدبية تسجَّل في الذاكرة. ذاكرة محمد على الأقل.

كان يحبّ القراءة، ومن كان يعرفه يدرك أنّ المطالعة بالنسبة إلى محمد حاسّة سادسة. بمعنى أن القراءة تمنع الشعور بالألم، كما كان يقول: «كنت أقرأ لأتعلّم، والآن أقرأ كي لا أتألّم».

لكن في الليلة الماضية غرس في ذهنه قصيدة الرثاء في شوقي لصاحبها أمير البيان الأمير شكيب إرسلان، الدرزيّ اللبنانيّ والسّنيّ. عنوان القصيدة: في رثاء أمير الشعراء، ومطلعها:

قد أعجز الشعراء طول حياته واليوم يُعجزهم بندب مماته

هيهات يوجد في البرّية منهم كفــو ليرثيـــه بمثــل لغاته

ليلتها تذكّر محمد أستاذه المفكّر محمد عبد القادر الكيلاني، التونسيّ المصريّ التركيّ اليونانيّ والمديني، أو ابن خلدون، لأنه قرأ عليه مقدّمة ابن خلدون. فسمّي بذلك. وهو الأستاذ الكبير، كان يعرف محمد أنه قومي عربي بصورة شديدة، وكان يعرف من أجل ذلك أنه يحبّ حافظ إبراهيم وعبد الرحمن هزّاع ومحمد محمود باشا. ومن أجل كل ذلك، يكره شكيب إرسلان.

فأراد محمد قراءة القصيدة لأستاذه ابن خلدون.

استيقظ متأهّبًا إذًا، يستعدّ للذهاب إلى الصلاة في الحرم النبوي. هنا يتذكّر جيدًا. فخلال إقامته في المدينة، في العهد العثماني والشريفي، لا يعرف من ارتقى المنبر على الدوام غير أربعة: حمزة أركوبي، وجلال إلياس، وأبو الفرج إلياس، وزين بري. وكان هؤلاء يؤدّون واجبهم بحرص شديد. وكان زين بري،

من حرصه يأتي بخطبة الجمعة إلى أستاذ الكل السيد محمد صقر يقرؤها عليه، ويستمع إليه في مقابل تصويبه نحوًا وصرفًا لا فكرة.

وإن إمامين ذاع لهما الصيت وأحبّ الناس الصلاة خلفهما لإتقانهما التجويد، هما كامل توفيق، وأخوه أسعد توفيق، جمّلهما الله بالوقار، والصوت الحسن.

انتظر محمد أستاذه ابن خلدون بعد صلاة الجمعة، وهو يتأبّط مجلة الفتح، المجلة التي كان يُصدرها محبّ الدين الخطيب، خال الشيخ علي الطنطاوي، صديق محمد لاحقًا.

وجده واقفًا قرب كومة حشيفة، وأمام دكّان حسن حشيفي. وقف محمد بجانبه يسلم عليه، يتحيّن الفرصة لعرض القصيدة. وإذا بالعلّامة شيخ الأزهر، عضو مجمع اللغة، ورئيس تحرير مجلة الأزهر، الخضر حسين، يُقبل عليهما، خارجًا من المسجد. وقف قليلًا وليس بعيدًا يريد السلام على ابن خلدون.

فقال محمد لافتًا انتباه ابن خلدون: «الخضر حسين وقف لعلّه يريدك».

«دعني، إنه من الدجاجلة»، مستعيرًا كلمة مالك بن أنس عن محمد بن إسحاق، يجيب ابن خلدون.

يعرف محمد أن بين الخضر حسين وأستاذه ابن خلدون علاقة قربى، فهو ابن خالته. لعلّه شأن عائلي، يقول محمد في نفسه. وهكذا كان، ومضى الخضر حسين وما صافحه ابن خلدون. وبعد دقائق، مرّ الشيخ صالح بن الفضيل التونسي، يسرع وكأنه يريد اللحاق بالخضر حسين. ووقف الشيخ صالح لحظة كأنه يريد أن يكلّم ابن خلدون. هنا تدخّل محمد مرة ثانية، وبالرغم من معرفته بصلة القرابة بين الاثنين، قال:

«هذا يا أستاذ الشيخ صالح بن الفضيل، وهو واقف هناك، أتراه؟» يقول محمد بصيغة السؤال.

«دعه، دعه يلحق بالأول»، يجيب ابن خلدون، ثم يلتفت إلى محمد قائلًا: «إياك والفقه أن تكون من هؤلاء».

ثمّ ذهب ابن خلدون في طريقه، ومحمد يقف في مكانه من دون قضاء غرضه، عرض القصيدة، إلا أنه فطن إلى مكان يلتقي فيه ابن خلدون، ومن دون مفاجآت.

انقضى النهار وقاربت الشمس على الغروب، فتوجّه محمد إلى الساحة، ساحة المناخة أو السوق العامّ. في أول الساحة، وفي رباط مظهر، كان يجلس ابن خلدون كعادته، فأقبل محمد عليه مسلّمًا. وقابله ابن خلدون بترحاب كبير.

«ما جاء بك؟ لم يكن ذلك عادةً»، يسأل ابن خلدون وهو جالس على كرسيّ من القش.

«قصيدة لمن تكره في من تكره» ، يجيب محمد، وهو يقف أمام أستاذه.

«أكره وأحبّ أناسًا كثيرين»، يقول ابن خلدون.

«صحيح أستاذي، لكنّ الشعر في اللغة الشاعرة يكون نعم»، وحين سمع ابن خلدون كلمة اللغة الشاعرة اهتزّ. لقد أكل الطعم، طعم محمد.

يعرف محمد حب أستاذه ابن خلدون للنقد، فهو، أي محمد، قرأ عليه إضافةً إلى مقدّمة ابن خلدون، قرأ عليه الكتابين للأستاذ محمد عبد الله عنان، ديوان التحقيق ديوان التفتيش، عمّا جرى للعرب في إسبانيا، والآخر الجمعيات السرية والحركات الهدّامة.

«هاتها يا محمد، هاتها»، يقول ابن خلدون، مادًّا يديه: «بعدين اِسحب كرسيًا ودعنا نقرأ ما تقدّم»، ويأخذ المجلة من محمد.

ذهب محمد يراقب ابن خلدون وهو يقرأ. الانجذاب واضح، واللغة أخذت مداها في التأثير، وعينا ابن خلدون أصبحتا تدمعان، ليجد ابن خلدون يغوص أكثر فأكثر في القصيدة، وبحورها.

وحين انتهى من القراءة نظر إلى الساحة متأمّلًا وقال: «أحسنت يا محمد».

استغرب محمد وأراد أن يجيب، إلا أنّ استدراك ابن خلدون كان أسرع.

«أحسنت يا بنيّ، أحسنت. أنت نزعت من صدري غلًا، رحم الله شوقي، وحفظ الله لنا شكيب إرسلان».

ثم أمسك ابن خلدون معصم محمد ونظر إليه مُسديًا نصيحة لن ينساها طوال عمره: «اكتُب رأيك صوابًا أو خطأً وإيّاك أن تكون الكاتب النذل».

لم ينسَ محمد نصيحة أستاذه ابن خلدون، بل استمر عليها في مشواره الصحفي. يؤمن بكل ما يكتبِ، ولا يكتب كل ما يؤمن به. في مهارة أدبية

وصحافية لم تنله بسوء ولم ينل أحدًا بسوء كذلك. فهو كان يقول: «لا شيء يدخل القلوب إلا الحق».

بدأ مشواره الصحافي في المدينة ومن جريدتها. من أحب المدن إليه راح يكتب المقالات، أراد الكلام ففتحت له الصحافة منبرًا واسعًا. أعطاها بقدر ما أخذت منه ولربما أقل.

الصحافة في المدينة

عرف العرب الصحافة مع الاستعمار. أو هكذا سجّل التاريخ ظهور الطباعة الورقية للأخبار في العالم العربي. ويسجّل تحديدًا لنابليون بونابرت، الحاكم العسكري لفرنسا، نشأة أول صحيفة عربية. وكان ذلك عام ألف وثمانمئة ميلادية. عام ولادة صحيفة «التنبيه» من مصر. توالت بعدها الصحف، في الشام صحيفة «سوريا»، وفي العراق صدرت «الزوراء»، وجزيرة العرب، لحقت بهما صحيفة «صنعاء» من اليمن السعيد.

أما في الحجاز، فيمكن تتبّع ظهور الصحافة الورقية مع وصول الطباعة إليها. فقد كان لوالي الحجاز آنذاك عثمان نوري باشا دور كبير في تأسيس مطبعة «الولاية»، أو «الميرية» في أجياد بمكة. ثم بعدئذ مطبعة «الترقّي» الماجدية لصاحبها محمد ماجد كردي. ومطبعة «شمس الحقيقة». تصدرّت «المطبعة الميرية» باعتماد الدولة العثمانية إيّاها في ولاية الحجاز. وقد بدأت بطباعة السالنامة الحجازية، أو الكتاب السنوي الخاص بالولاية في خمسة إصدارات.

وظهرت بعد ذلك مطابع متعدّدة في مدن الحجاز الأخرى. كمطبعة «الإصلاح» في جدّة، ومطبعتي «العلمية» و»الحجاز» في المدينة المنوّرة. وفتح الباب أمام مهنة الصحافة. تشابهت الصحف من حيث الشكل واللغة والأسلوب. فقد ظهرت صحف أُولاها صحيفة الحجاز، في فترة العهد العثماني.

وأسّس والي المدينة فخري باشا صحيفة الحجاز. وقد اشتملت على الكثير من الأخبار الرسمية، حيث كانت تعد صحيفة رسمية. مع اهتمامها بالجانب الأدبي. وكان رئيس تحريرها السيد حمزة غوث، وهو من أعيان أهل المدينة. وكان الدور الفعّال فيها لبدر الدين النعساني، من أهل الشام، ولعله لبناني. يعاونهم فيها مسؤول المعارف في المدينة عبد القادر الشلبي الطرابلسي، ومعه العمري. منها ينشران المعارضة والهجاء ضد شريف مكّة الحسين بن علي. وممّا يُذكر أنّ عبد القادر الشلبي، والشيخ العمري، لم ينلهما سوء، ولم يعاقبهما الأشراف لموقفهما من صحيفة الحجاز. ولربما وجدا الحماية من الضباط الشاميين، الذين ظلّوا من بعد خروج العهد العثماني. ولربما وجد الشيخ العمري الحماية من أصدقائه من قبيلة بني عمرو مقبول، ومقبل السراني.

مع دخول العهد الشريفي المدينة المنوّرة انحسر دور الصحافة في المدينة لمصلحة مكّة، العاصمة الجديدة. وأصدرت صحيفة الحجاز آخر عدد لها في العهد العثمانى. وأطلت من مكّة صحيفة «القبلة» بمرسوم من الحكومة

الهاشمية. تنوّعت أخبارها، وبرزت بنقل الأخبار عن الثورة العربية، وأخبار الثورة في الشام والعراق، مطعّمة بأخبار دولية. ليصدر بعد ذلك عمر شاكر وهو من أهل مكّة صحيفة منافسة سماها «الفلاح»، بعدما كانت تصدر في دمشق. ومع دخول قوات ابن سعود مكّة المكّرمة انتقلت صناعة الصحف مع الحكومة الهاشمية إلى مدينة جدة، حيث أصدر الحزب الوطني الحجازي صحيفة «بريد الحجاز»، التي كانت تُطبع في مطبعة الشرقية.

وعند دخول الملك عبد العزيز مكة أمر على الفور بإصدار صحيفة «أم القرى»، من المطبعة الميرية، ليرأس تحريرها يوسف ياسين، وهو من أبرز مستشاري الملك. وتغدو «أم القرى» في تلك الفترة، مركز متابعة للمهتمين بالشأن السعودي. حيث تفرّدت بأخبار الحكومة السعودية، وبرزت كناطق باسم ملك الحجاز قبلة المسلمين.

مقالة كادت أن تنفيه من المدينة

«النظام عند الطبيب، وأجر الطبيب، فيهما حصانة وصيانة».

هكذا خط محمد عنوان مقالته في جريدة المدينة، وذهب يودعها المطبعة قبل خروجه مسرعًا من الصحيفة متوجهًا إلى البيت. اليوم جلسة الأصدقاء البشكة عنده، وهو يريد التأكد من الترتيبات، ويريد متابعة تجهيزات ست البيت. كان لديه رأي في المطبخ والأكل، وطبعًا كان يستمتع بمناكفة أم حسين زوجته، مبديًا ملاحظاته على عملية إعداد الطعام.

يدخل المطبخ، والزوجة منهمكة في عملها، يريد ملاطفتها على طريقته بالاستجواب «العشاء كم يبغى له؟» ثم يقوم بتفقد التحضيرات من فواكه أو غيرها. مقلبًا بين أرجاء المطبخ صانعًا إعصارًا زيدانيًّا. يذوق من صحن ويبدل الأكل من طبق وإلى آخر. وثيابه تشاركه الأكل.

تبادله أم حسين باستياء فائض: «وسخت كمك يا محمد، خلاص خلاص اطلع بره خليني أعرف أشتغل».

«كمي أنا ألبسه وهو لا يلبسني، يعني إذا اتوسخ ألبس غيره» ، يجيب محمد وهو يتذوق بإصبعه من صحن اللبنة.

«العشاء لبنة وجبنة ورطب، زي ما طلبت» ، تقول أم حسين بشيء من الامتعاض. فكانت أم حسين وكأي امرأة مدينية تحب العمل على أكمل وجه.

يقطع الحوار صوت دق الباب. بينما أم حسين تعيد ترتيب ما خلفته الإعصار الزيداني من أضرار. الجماعة وصلوا». ويذهب محمد لاستقبال أصدقائه. يدخل الأصدقاء سويًا، هي كذا العادة. يتقابلون في مكان محدد وينطلقون منه لبيت المضيف. عرف سار عليه الأهالي في رمزية لعدم إزعاج أهل المضيف. يدخل الجميع ويلتفون حول بعض في المجلس. ثم تبدأ السهرة مباشرة.

سهر الجميع. غوصًا في التاريخ وسباحةً في الشعر وحكُ ذهن في السياسة. مع أكل ما أعدّته أم حسين. حتى انتصف الليل ليغادر الأصدقاء إلى بيوتهم سويًا، ويخلد محمد إلى فراشه.

صباح اليوم التالي، كانت الشمس تشق طريقها في السماء بخجل، الغيوم ملبّدة معلنة الانتقال من موسم إلى آخر، إنه جوّ مدينيّ أصيل. بارد من دون صقيع.

تبدأ أم حسين يومها كأيّ امرأة مدينية، بممارسة الواجبات المنزلية، من ترتيب للصالون وتنظيف للحوش وإعداد لكل الوجبات. الإفطار والغداء والعشاء. لا برادات لحفظ الطعام. والخبز يُصنع في تنّور داخل البيت، يساعدها على ذلك بناتها، و»كناينها» إن وجدن. فزوجة الابن لها نصيب من مسؤوليات البيت، وإذا نقص غرض أو مؤونة فإنه يكفي أن تصفّق سيدة البيت بيديها، لتطلّ الجارة سائلة عن الحاجة.

طريقة تواصل ابتكرها الأجداد. شبكة اتصال بدون هاتف. ورنّة التصفيق بدلًا من رنّته. والرنّة لها نظام. تصفّق المرأة مرتين، ثم تتوقّف لأقل من خمس ثوان، ثم مرتين جديدتين. وهكذا. وعلى مر الأيام تطورّت الشبكة إلى برنامج تواصل اجتماعيّ. تتبادل الجارات من خلاله همومهنّ وأخبارهنّ.

توجّهت أم حسين إلى النافذة بعد سماع تصفيق الجارة سائلةً: «خير، يا صباح الخير، ناقصك شيء؟»

«ما سمعتِ أيش صار؟»، والجارة تنفي حاجتها إلى أيّ غرض ولكن بصوت يوحي أن في الأمر شيئًا مريبًا. مستدرجة اهتمام أم حسين.

«لا ما سمعت، خير»، تجيب أم حسين مدعية عدم الاهتمام. غير أنها تغلي من الداخل تريد معرفة ما الذي حصل على حدّ قول الجارة.

تتأهب الجارة لتسريب الخبر وتنطلق وهي تضع يدها اليمنى على اليسرى لتقول:»الدكتور عادل محيش دفع ستة آلاف ريال وكلّف الأفندي محمد داغستاني، المحامي رفع شكوى ضد زوجك، يتهمه فيها بأنه يسبّ أهل المدينة، ويطالب بنفيه، زي ما صار مع محمود شويل». وهكذا تسقط الجارة هذه الأخبار كقنبلة في وسط منزل أم حسين محدثة دويًا كبيرًا في داخلها.

«معقولة، لا لا، أكيد في شيء خطأ»، تجيب أم حسين، والقلق قد تسرّب في عروقها. تترك الجارة عند النافذة وتركض مسرعة وهي ترمي بمنشفة المطبخ على الأرض متجهة الى غرفة النوم تريد إخبار زوجها بما سمعته. «قوم قوم بيسألوا عنك، سمعت من الجارة أنك سوف تُنفى من البلد»! توقظ أم حسين محمدًا بانفعال.

جلس محمد في سريره يحاول شبك النقاط. الجارة أخبرت زوجته بأن هناك من يريد طرده ونفيه من المدينة. استدرك محمد قليلًا ثم أدرك وبحسّه الصحافي أن المصيبة لها علاقة بالصحيفة. ليفيق من الخبر مهدئًا زوجته. يلبس ثوبه ويتجه مهرولًا إلى الصحيفة.

وصل إلى مبنى الصحيفة وفورًا التأم أعضاء هيئة التحرير: الأستاذ عبد الحميد عنبر، والأستاذ ضياء الدين رجب، ومحمد. وأخذ الأستاذ ضياء الدين رجب يشرح المصيبة: «بعدما سلمت مقالك راجعه السيد مصطفى عطّار وحذف فقرة من النص».

«أي فقرة؟» يسأل محمد مستغربًا مما جرى من حذف فقرة. يتلقف الحوار ضياء الدين رجب ثانية: «أنت كنت قد كتبت في المقال جملة تعني بها الدكتور سعيد مصطفى المصري، أخا الضابط يوسف بك المصري، قائد الجيش وأيضًا صديق عبد الرحمن باشا عزام، وفيها أنّ (الدكتور سعيد يعالج الفقراء، ويحفل بالأغنياء، عمل لا غبار عليه، لكنّ بعض الفقراء قد لا يجدونه إذا ما احتاجوا إليه، لأنه في زيارة من يُعنى بهم)».

«أيوه وبعدين؟» يجيب محمد بملل باحثًا عن المشكلة.

«خذ اقرأ بنفسك أحسن»، وناوله زميله الصحيفة.

أخذ محمد يقرأ مقاله حتّى وصل إلى فقرة (أن الطبيب الذي لا يأخذ أجرًا، بل يأخذ ما هو أغلى منه) ونقطة انتهت الجملة. صاح عندئذٍ محمد هائجًا «وين باقي الكلام؟ أنا كتبت)ما هو أغلى منه وفي الهدايا والمآدب أكبر دليل) من دونها يفهم منه أنني أنال من أعراض الناس، وهذا لا أرضاه».

لم يجادله زميلاه. فمعروف عن محمد ذاكرته القوية، فما بالك في ما كتب. فعلًا هذه كانت التهمة. صحافي يسبّ أهل المدينة في أعراضهم. وهكذا ثار البعض محرّضًا الدكتور عادل محيش في جدة على رفع الدعوى.

لم يكن المقال إلّا تتمة لخبر نُشر على صفحات الصحيفة قبلها بأيام. مقال يندّد بتصرف طبيب المدينة المعروف والمحبوب السوري فؤاد محروس، الذي خلف الدكتور عادل محيش. والخبر كان أن القاضي الكبير أبا بكر الداغستاني، دخل المستشفى يراجع الدكتور، الذي تأخّر علية بسبب معاينة مريضة. عندئذٍ خاف القاضي وأخبر السيد عثمان حافظ ناشر الصحيفة ما حدث فنشر الخبر. هذا كان حجم الموضوع، لا أكثر ولا أقل.

بعد ذلك تدخّل الأهالي عند أمير المدينة عبد الله السعد السديري. وكان ذا معرفة بمحمد، فأشار الأمير على محمد بأن يذهب ويقبّل رأس الشيخ أبي الحسن سمان والسيد حمزة غوث، وهما من كبار أهل البلد، ليكون العفو منهما عفوًا من الجميع. وعلى طريقة حبّ خشوم، إلا أن محمدًا لم يستجبْ، مع إجلاله للشيخ والسيد، لكنّ ذلك سيعني اعترافًا منه بخطأ لم يرتكبه.

ثم تفاقمت وتيرة الغضب إلى التهديد بكتابة مضبطة، ورفعها إلى الملك عبد العزيز. فلقد تجمعت الجماهير أمام الصحيفة مطالبة بالاعتذار، لكنّ محمدًا ظلّ صامدًا صلبًا على موقفه.

خرج محمد بعد صلاة العصر من الصحيفة قاصدًا مقهى عبيد الله خارج باب العنبرية، على السمط، ليناقش الموضوع مع بعض أقرب أصدقائه. وصل قبل حضور الأصدقاء. بعدئذ سرح محمد يتذكّر نشأة هذه الصحيفة. يتذكّر يوم صدر أمر الملك عبد العزيز بالسماح للأخوين علي وعثمان حافظ بإصدار صحيفة المدينة. مع أن محمدًا لم يكن يفترق عن السيد عثمان، إلا أنه لم يعرف عن إذن السماح بالإصدار. يومئذٍ برر محمد فعل صديقه على قاعدة قضاء الحاجة بالكتمان.

يتوقّف لحظة عن الذكريات مع وصول كأس الشاي المديني الذي طلبه، لينطلق مبحرًا أكثر في سرحانه وذكرياته.

يتذكر كيف أعان الأخوين على امتلاكهما المطبعة، وعاونهما الشيخ محمود شويل، وتحديدًا السيد عثمان حافظ. ويحفظ للشيخ محمود جميله بأنه أقرض الأخوين مبلغًا من المال لشراء المطبعة. أقرضهما تسعين جنيهًا ذهبًا لعله بعض ما يملك، أو كل ما يملكه الشيخ محمود. وضع هذا المبلغ أمانة عند الأفندي محمد نصيف، حتى إذا أراد السيد عثمان العون سحب المبلغ من عند الأمين. وتأسست المطبعة في العينية.

يجول في ذكرياته أكثر فأكثر، وكيف أنه تعرّف على مشروع الصحيفة يوم وصوله إلى المدينة من مكّة، بعد حجّته الثانية. يومئذٍ كان محمد معلمًا للصبيان في دار الأيتام. وصل عصرًا إلى المدينة فدخل بيته الواقع في النورية، ولم يكد يأخذ قسطًا من الراحة حتى طرق باب البيت، السيد عبيد بدر والأخوان حافظ. رحّب بهم متعجبًا كيف عرفوا عن وصوله، لعلّهم رصدوا مجيئه من باب العنبرية، مستدركًا بأن أحمد جاد، أو حسن دقاق قد رآه. المهم، فاتح محمد الزوار بأمر الإصدار، وفي نصه الموافقة على أن يكون السيد أمين مدني رئيسًا للتحرير. وفي الأمر أيضًا الموافقة على أن يكون

الأستاذ عبد الحميد عنبر، والأستاذ ضياء الدين رجب، ومحمد، هيئة التحرير. وطلبوا منه الموافقة فوافق. يتذكر الحادثة ويزداد حيرة مما يجري. فقد توقع على الأقل دعم الناشر وإدارة الصحيفة له. حضر الربع والتأم النصاب يتدارسون طريقة حل المشكلة.

مرّ الوقت سريعًا في النقاش وتهدئة الخواطر، خواطر محمد تحديدًا وصديقه محمد سالم الحجيلي الذي ثارت ثورته على تقصير الصحيفة في تبرئة صديقه. مصنفًا المشكل مؤامرة تحاك ضد محمد لأسباب طبقية. وحين حان موعد أذان صلاة المغرب. انفض اللقاء وذهب الكل إلى المسجد.

بعد الصلاة، والناس يهمّون بالخروج من باب الرحمة، يسمع محمد أحدًا ينادي عليه «أهلًا أهلًا، زيدان باشا». التفت محمد وراءه فإذا بالشيخ صالح الإبراهيم القاضي ينادي عليه بيديه ومعه السيد أحمد صقر.

«ماني باشا»، يجيب محمد بكل خجل واستياء.

«هؤلاء أهل المدينة كتبوا عنك مضبطة، كما كانوا يكتبون عن الباشوات، فأنت باشا الآن»، يقول الشيخ القاضي مازحًا. ثم أردف قائلًا وبحسرة: «هل يُعفى عن كرامة الأعراض بقبلة رأس؟ واللّٰه إن لم يمزّقوا المضبطة لأركب إلى الرياض ليعرف عبد العزيز من بعث بالمضابط».

«معك حق، بس أنا كيف أحل الموضوع؟» يسأل محمد.

عندئذٍ تسلّم الأستاذ أحمد صقر أطراف الحديث قائلًا: «يلا يا واد... اكتب الاعتذار، الأمير عبد اللّٰه كلفني ذلك، وبعدين انت ابن قبل ما تكون صحافيًا، واعتذار الابن لأهله مفخرة، لا مذلّة».

أدرك محمد دقّة ما يقوله الأستاذ صقر، فهو كصحافي لم يجد من يحميه من الناشرين، أو رئيس التحرير. فقرّر الاستقالة ليتحرر من التزامه المهني. ويكون بذلك المشكل بين طرفين من الأهالي. بين صحافي سابق ومدني غاضب.

بعدها بأيام كتب محمد كتاب الاعتذار إلى أهل المدينة كواحد منهم لا يقبل الإساءة إلى نفسه. وكأنه يعتذر لذاته. فهو والمدينة وأهلها واحد كما كان يقول. على الأثر انتهت الزوبعة. وانقطع محمد عن الصحيفة وهي انقطعت عنه. سنين لا يكتب فيها. وبالرغم من العلاقة الحميمة بين الأخوين حافظ وبينه، لم يجد منهما حماية الناشر محررًا في الصحيفة، وهي من أصول

المهنة في اعتقاده. فقبِل التضحية. خسارة علاقة المحرّر بالناشر في مقابل مكسب الحفاظ على علاقة صداقة.

ابتعد محمد عن الكتابة في الصحافة فترة. وتقصّد الغياب عنها لمتابعة شؤون أسرته. فقد كبرت العائلة مع عدد الأبناء. وقرر ابتعاث أولاده للدراسة في مصر في مدارسها الداخلية العريقة. دخل أبناؤه حسين وفيصل وفريد وسامي. لا يتعدى أعمارهم مجتمعين الربع قرن (خمسة وعشرون سنة). لكن محمد أراد لهم التعلم كما دفعه لذلك أبوه حسين.

انتقلت العائلة إلى القاهرة. التي كانت تعيش تغيرات كبيرة. في السياسة كان الرئيس عبد الناصر. وفي الصحافة برزت الأهرام كجريدة عابرة للحدود برئاسة محمد حسنين هيكل. وإذاعة أحمد سعيد، صوت العرب، تبث أخبارها على الأثير. هي حقبة اختلطت فيها الأمور. لكن محمدًا ظل ثابتًا على نصيحة ابن خلدون. مبتعدًا عن الكذب وغليظًا في الحق.

يوم ألقى ميثاقًا لجمال عبد الناصر

كُلّف محمد وهو في مصر إلقاء خطاب في حفل تكريم للرئيس المصري جمال عبد الناصر. والحفل يقيمه السعوديون المقيمون في القاهرة. وبحضور الملك سعود بن عبد العزيز حين يصل القاهرة آتيًا من سويسرا. وقد جاء التكليف بإصرار من محمد سرور الصبّان، وإبراهيم السليمان، وعبد اللّه محمد الفضل. وحاول محمد الاعتذار والتملّص من التكليف، إلّا أنهم لم يقبلوا منه ذلك وزادوا على الإصرار إصرارًا. ثم اقترح عليهم محمد أشخاصًا سعوديين أكفاء يؤدّون المهمة على أكمل وجه، منهم فؤاد شاكر، وحمزة شحاتة، وأحمد قنديل، وضياء الدين رجب.

فما كان من صديقه الشيخ محمد سرور الصبّان إلّا الإصرار، وبحزم قال: «تكليف لك وبموافقة الملك، يعني أنه يجب أن تلقي أنت الخطاب».

ذهب محمد في تلك الليلة إلى البيت، كانت العائلة معه. الأولاد يلعبون في كل مكان، والزوجة منهمكة في متابعة مستلزمات البيت والأطفال. يريد محمد خلوّ الجو ليرتّب أفكاره ويكتب خطابه. لذا قرر النزول إلى المقهى في ناصية الشارع، طلب كوبًا من الشاهي وأوراقًا وأقلامًا، قدمها النادل الذي يحمل منقل النار، متأبّطًا دفترًا للحساب طلبه مدير المقهى منه. قميصه عفا عليه الدهر. وروحه مصرية أصيلة. يمازح الزبائن، وهو يسجّل الطلب. ويسير كأنه يطفو

مغنيًا ومنشدًا. يسجّل النادل طلب محمد. ويقول له محمد ومن دون النظر إليه «اتركني وحدي، عندي شغل».

ذهب النادل غير آبه وهو يردّد: «وأنا مالي، شغل ولا ما فيش شغل».

اعتزل محمد الحاضرين وجلس في ركن من المقهى. وبدأ يعدّ خطابه، لأنه يرى أنّ الكتابة في أجمل حالاتها فن، وعناصر نجاح الخطاب مثل عناصر نجاح الأغنية. الكلمات أول العناصر. وهذه لعبة محمد. ما هي إلّا لحظات تكون منتهية. الخطاب جاهز. فالتفت محمد إلى النادل وهو يحمل الطلبات وأراد ممازحته.

فنظر إليه النادل مستغربًا وقال: «مش أنت طلبت أتركك وحدك من كام دقيقة؟ بتهزّر».

«يا سيدي آنت ليش زعلان، خلصت المهمّة، والشكر لك».

«المهمّة، تفضّل اِدفع المقسوم بقى».

«خلاص لا تزعل، أنا آسف يا سيدي».

«وأنا آسف برضُه يا بيه»، يقول النادل، وهو يبتسم نصف ابتسامة إلى اليمين، ومعها يميل رأسه في الاتجاه نفسه.

في اليوم التالي استعدّ محمد وذهب إلى مكان الحفل. زينة وشعارات وحرس وضيافة. كلّ مظاهر الاستقبال الرسميّ حاضرة. وقف بعض الأصدقاء عند المدخل وجدهم محمد عند وصوله، منهم محمد خليل عناني، ورشدي ملانياز. وبعد السلام، قرأ محمد من يدي محمد خليل عناني، سكرتير محمد سرور الصبّان، بطاقة الدعوة وفيها «الجالية السعودية تدعوكم... إلخ».

رفض محمد الصياغة. وقال لهم: «العربي في أي أرض عربية ليس جالية، وإنما هو مقيم في أرضه، وإن اختلفت الزعامات».

دار نقاش بين الثلاثة. فيه الكثير من الهدوء والحماسة. ثمّ تقرّر أن يستشيروا رشيد ملانياز، ليقف عند رأي وزارة الخارجية المصرية. وهو ما حدث بعدئذٍ. جرى إقرار التعديل.

بدأت القاعة تمتلئ بالحضور. توافد الرسمّيون واحدًا تلو الآخر. وقد دُعي كل أعضاء مجلس الثورة، والكثير من العلماء والمؤرخين والأدباء والإذاعيين. وكان في الاستقبال شباب السعودية من الطلائع، أوّلهم السيد عبيد مدني، وليس آخرهم عبد الله محمد الفضل.

بعدما استقر الجميع في أماكنهم، وحضر الملك سعود، والرئيس عبد الناصر، عندها بدأ الحفل.

توّكأ محمد على صديقين، وهو يعتلي المنبر. عبد المجيد شبكشي، ومحمد سعيد باعشن، في محاولة منه لخفض مستوى التوتر، وعند صعوده المنبر وقعت عينه في عين الشيخ يوسف ياسين، فابتسم الثاني مشجّعًا إياه.

لم يكن ذاك، الخطاب الأول الذي يلقيه محمد، وتحديدًا مضمون الحدث والكلام كان مشابهًا. فقد ألقى خطابًا في المدينة المنوّرة، وفي صالون المدرسة، في حفل تكريم أقامه الطلّاب لأمين الحسيني مفتي القدس،

ورياض الصلح، وعزت دروزة، وبشير السعداوي، وهم في زيارتهم الملك عبد العزيز، كما ألقى خطابًا مشابهًا لما سيقوله في حفل تكريم شكري القوتلي أيضًا.

اكتمل صعود محمد المنبر. وحان الوقت لعرض العنصرين الثاني والثالث من نجاح أيّ خطاب. الصوت والحضور الشخصي. وصدح يقول:

«يا صاحب الجلالة... يا صاحب الفخامة... أيُّها الحاضرون....

إقبال سعود واستقبال جمال يعنيان أننا الأمة الواحدة. {إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون}(14)

يا صاحب الجلالة...

من بلدك، دار الهجرة، المدينة المنوّرة، تفرعت لمسيرة الفتح قاعدتان، بعد عهد الخلفاء، قاعدة في دمشق شرق منها الفتح، ولأسباب لم يعرب. وقاعدة الفسطاط (القاهرة) غرب منها الفتح فعرب.

يا صاحب الجلالة... ويا صاحب الفخامة...

لئن قدّس الدين إسلامنا مكّة والمدينة، فقد قدّس العرف والدم والتاريخ والمصير. دمشق وبغداد والقاهرة والرياض، وكل شبر من أيّ أرض عربية».

وحالما انتهى الخطاب صفّق الحضور بحماسة عالية. وابن محمد، سعود، ما زال طفلًا يجري وراء زكريا محي الدين ينادي :»زكريا زكريا زكريا هذا أبويا». وأحمد لاري صديق محمد يجلس في الصدارة من الحفل، وبجانبه أحد الكبار من سياسيي مصر يقول له: «ليس هذا خطابًا بل هو ميثاق». كان هذا مراد غالب، السفير المصري في الاتحاد السوفياتي.

فرح الملك سعود كثيرًا بهذا الخطاب، لدرجة أنه خلع ساعته «فيشرون» من معصمه مهديًا إياها إلى محمد. ثم نادى الملك على عبد اللّٰه عبد الرحمن لنجاوي، ليناول محمد ثلاثمئة جنيه مصري.

ومجلس قيادة الثورة سعيد بما سمع، وفرح على سعادة من حضر، الملك ووزراؤه. ثم التفت الرئيس عبد الناصر إلى السفير السعودي في القاهرة يسأله «من هذا الذي ألقى الخطاب؟» قسمّاه له.

ليجيب عبد الناصر: «ما كنا نحسب عندكم مثله!».

طُبعت من الخطاب نسخ عند مدخل الحفل، تناولها الصحافيون ونفدت الكمية. وجاء مندوب الأخبار يطلب نسخة من محمد، فقال له: «تعال إلى البيت كي أعطيك واحدة».

وركب معه الصديق أحمد لاري، ومراسل الأخبار. وصعد محمد إلى الشقة لينزل وهو يحمل نسخًا يسلّمها للمراسل.

فالتفت المراسل إلى محمد يسأله: «هو أنت اللي كتبت الخطاب؟»

فيجيب محمد ساخرًا: «لا رحت لدرويش من دراويش السيدة زينب بريالين، فكتب هو هذا الخطاب».

«الإيمان يزيد بالحب وينتقص بالبغضاء»

محمد حسين زيدان

الحجّ والحجّاج

ما زلت أتذكّر كلمة جدّي محمد في وصفه لجغرافيا المدينة. كان يقول: إنّ مسجد الغمامة هو الفاصل بين شمالها وجنوبها. بين جماعتين كبيرتين من قبيلة المدينة حرب، شمال الغمامة سالميّ، وجنوبها مسروحيّ. وكل قبيلة غرب المدينة حربية سالمية. وفي الأكثر من ميمون. أمّا الحوازم، وهم من حرب ومن بني سالم، فإنهم من المراوحة. وبعض هذه القبائل حجالة ــ حملة حجّاج، وبعضها المقوم والمخرج وصاحب الخفارة وصاحب الامتياز.

وقد التصق بهما الكثير من الخراب والضياع في الأمن. التصقت بهما إن شئنا السمعة السيئة. فوضع الرأي العام آنذاك كل أسباب غياب الأمن والاستقرار على عاتق قبائل غرب المدينة. في حين أن دورهم كان في سياق المسؤولية التي أُنيطت بهم من الحاكم. وبالتالي تكون التبعة على من تولّى الحكم في الحجاز من أيام ملوك الطوائف والمماليك، وفي العهد العثماني حتّى محمد علي باشا، حيث فرضوا على القبائل بما يمنحون من مسؤوليات.

كان حكّام الحجاز يمنحون الامتيازات للقبائل. ومنها تنبثق الحركة والدورة ومنظومة الأمن. ومن العجيب أن المحمل المصري يُحجز عليه حتى يدفع كامل الرسم المقرّر على المحمل لسعد بن جزاء، أمير الفقرة، وشيخ الأحامدة. في حين يمر الحجيج من المغرب العربي، ومن كل أفريقيا، وحتى من صعيد مصر، من دون حجز أو رسوم. وهذا الأمر من صنع الحاكم في مصر. وفرض الرسم للأحمدي يدفعه قائد المحمل الباشا.

وحين تغيّر الحاكم في مصر من خديوي إلى آخر، كان يعدّل من مسار المحمل، متجنّبًا هذا الرسم. فيغيّر طريقة سيرهم. ويتوجّه المحمل والمدفعية التي معه إلى ميناء الوجه بدلًا من ميناء ينبع البحر مثلًا. ويدفع ثمن الخفارة إلى سليمان بن رفادة الشيخ في قبيلة جهينة، الذي مُنح لقب الباشا. ليكمل المحمل طريقه فينزل من الوجه ويمرّ في ديار قبيلة بلي وجهينة عن طريق بواط، ليصل إلى مواطن حرب، لولد محمد إلى جبل رحقان، بالقرب من الفقرة، وأميرها صاحب الامتياز الأول.

ولم ينل من المحمل أحد. وكان في استطاعتهم إغراء ابن عم ولد محمد الحويفي ومن إليه، إلّا أن التدبير من صنع الحاكم، وإلّا فالمحمل معه مدفعية وجيش يمكّنانه من المرور وبالقوة. مع ذلك، فإن حسابات اسطنبول ومصر ومكة تظل في الحفاظ على جميع الخيوط مفتوحة، وأيضًا لأن الأحامدة شوكة وعضد للحاكم.

فالأمن الذي صُنع بأمر من الحاكم لم يمنع أي حاجّ، ولو أغمض بعض أهل الحجاز أعينهم عن الخراب، الذي كان يحدث.

يفيض محمد عن تاريخ مدينة أحبها وأحبته. ويسترجع سلطات حكمت طيبة. أعيد سردها وبعنوان سيوف حكمت المدينة. وقليل من التاريخ لا يضر وعلى طريقة الزيدان.

سيوف حكمت المدينة

السيف يرمز إلى السلطة. وكثيرًا ما كانت السلطة مرادفة للدم، الذي يتقطّر من سيف الحكم. والمدينة وأهلها لم يكونوا بعيدين من كل ذلك في الصراع على حكم مدينة رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وسلم.

تقليديًا وفي عهود الطوائف والمماليك وحتى العثمانية، كان أمير المدينة من الأشراف الحسينيين. أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وابنة رسول اللّٰه فاطمة. أما مكة، فكانت في إمارة أبناء عمومتهم، من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب.

لكلّ منهم سلطانه. وكان الجو يصفو بينهم أو يسوء. ما من قوة رادعة لدى أحدهم، بل صيغة توافقية لممارسة الشؤون العامة والسياسة تحت الوصاية، وصاية استمرت فترة طويلة، ليسود الأشراف الحسينيون المدينة لردح من الزمن. ليسودوا أيام وصاية الفاطميين والأيوبيين والمماليك. حتى إنه عند وصول الظاهر بيبرس، وهو أحد قادة المماليك، استقبله حاكم المدينة الشريف فليتة. وهو ومن جاؤوا بعده يُعرفون بآل جماز الحسينيّ، ثم عُرفوا بالشقادمة.

وفي ظاهرة عمّت بادية الجزيرة العربية أن العلويين نسبة إلى الإمام عليّ بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه، سادوا قبائل العرب على صورة الإمارة، أو أنّ الصورة هي أنّ الشريف شيخ القبيلة. والأكثرية كانت من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب في نجد والحجاز، حتى يوم كان بنو الأخيضر يحكمونها. فقبائل جهينة وعتيبة وهذيل وبالحارث ساد لديهم من ولد الحسن بن علي. أما ولد الحسين، فكان لهم سلطان المدينة.

وقد حكم بنو حسين المدينة زهاء ستة قرون، بدءًا من العام أربعمئة وثلاثة وستين هجرية (ألفٍ وواحد وسبعين ميلادية) في ما عرف بإمارة آل مهنا. وآل مهنا هم نسبة إلى مهنا الأصغر، بن حسين بن مهنا الأكبرا بن داود بن القاسم بن عبيد اللّٰه بن طاهر بن يحيى بن الحسن، بن جعفر بن عبيد اللّٰه بن الحسين الأصغر، بن علي زين العابدين، بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ولنشأة إمارة بني حسين في المدينة سيرة يمكن تتبّعها قبل تولّي مهنا الأصغر. فقد استقرت السلطة في ذرّية زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، في عهد يزيد بن معاوية. وزين العابدين هو العقب الوحيد للحسين بن علي بإجماع العلماء. يومها كان الصراع بين بني الحسين وأبناء

عمّهم أبناء جعفر بن أبي طالب. ثم غلب الحسينيون على الجعافرة، وأخرجوهم من المدينة ليسكنوا بين مكّة والمدينة، حتى أجلتهم قبيلة حرب خارج الحجاز.

بعدما استقرت الإمارة في بني حسين تحت سيف آل مهنا، دبّ الصراع مرة أخرى. الآن في داخل البيت الواحد، وأصبح بين الهواشم أبناء هاشم بن القاسم بن مهنا الأصغر، وأبناء جماز بن القاسم بن مهنا الأصغر. ليُحسم الصراع على السلطة وبالسيف لمصلحة آل جماز. فانحصرت الإمارة في الجمامزة، جيلًا تلو آخر.

وكما هو معروف فإن سلطان السيف تلزمه سياسة. فالسلطان من دون سياسة يكون سلطة. ومع السياسة يصبح عهدًا. فقد نسج أمراء بني حسين علاقات وثيقة مع مصر والشام. في سياسة اتّبعوها باعتبار أن حكّام مصر والشام هم الفضاء الاستراتيجي للمدينة. لتتوثّق العلاقة طيلة فترة حكمهم، وتصبح جغرافيا واحدة متصلة بالتجارة والقتال والعائلة، لتصل إلى أقصى حدود الثقافة الواحدة. فلكل عائلة في مصر أقرباء في الشام أو المدينة، والعكس صحيح. نسيج اجتماعيّ متّصل، ودورة اقتصادية متكاملة.

إضافةً إلى الرؤية السياسية لآل مهنا، استمر سيف حكمهم في المدينة، لاهتمامهم بالشؤون العلمية. فلقد ازدهرت المدينة باستثناء بداية فترة حكمهم، ازدهرت بإنتاج علمي كبير. كالعالِم الفيروز آبادي، والمؤرّخ السمهودي، والقاضي ابن فرحون.

إلاّ أن الأوضاع السياسية بدأت بالتغيّر عند دخول العهد العثماني إلى الحجاز، ومبايعة شريف مكة أبو نمي السلطان سليم العثماني خليفة للمسلمين، ليلقّب الشريف أبو نمي السلطان سليم بخادم الحرمين الشريفين. فيتصاعد الصراع والتنافس بين حكام مكة الحسنيين، وحكّام المدينة الحسينيين مرة ثانية، بين آل قتادة، وآل جماز، حتّى أُخضعت المدينة المنوّرة لحكّام مكة. أُخضعت لسيف الشريف أبي نمي القتاديّ الجونيّ الحسنيّ الهاشميّ، نسبة إلى موسى الجون بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، بن علي بن أبي طالب. ليغدو سيف السلطة في المدينة شرفيًا، والحكم الفعليّ لأقرباء يعيّنهم شريف مكة.

إلاّ أن العلاقات الوثيقة التي نسجها آل جماز مع البادية، وتحديدًا قبائل الحجاز ونجد، ساهمت في بقائهم في ظل السلطة. علاقات مصاهرة ساعدت على استمرار النفوذ السياسيّ لديهم. كالأمير ميزان بن علي النعيري

الحسيني. فسيف السلطة في الظل لا يجيد المواجهة، بل المراوغة. حروب بالوكالة.

علاقة مدّ وجزر سياسية واجتماعية نسجها آل جماز، وحاول العثمانيون حسمها. ليُقصوا آل جماز وبني حسين عامةً من السلطة، ويخرجوهم بالسيف من المدينة في القرن الثاني عشر ميلادية. ومنهم من بقي في المدينة والعوالي. والأكثر منهم هاجر إلى قِنا في صعيد مصر، حيث أقطعهم سلطانها الأرض، وعُرفوا فيها بأشراف قنا البطاطخة والمخادمة، ومنهم كذلك في قريتي الحفنة والسوارجية. وانضمّ إليهم حسينيون من أشراف وادي فاطمة، والأقل شرّق وهاجر إلى نجد في القصيم، ليتصل بعض من ذهب إلى نجد مع قبيلة الظفير والمنتفق. ومنهم شيخ قبيلة المنتفق عائلة السعدون.

في تلك الفترة أصبح شيخ الحرم الذي عيّنه العثمانيون أميرًا للمدينة، بعد خروج بني حسين. ليدبّ الخلاف وتنتشر الصدامات بين الأهالي، بسبب تذمّرهم من سوء إدارة ممثّل الباب العالي. كما حدث لشاهين أحمد آغا، أمير المدينة، عام ألف ومئة وأربعة عشر هجرية، إذ استعان العثماني بآل جماز، أو الشقادمة، كما باتوا يُعرفون في تلك المرحلة، لتغرق المدينة في فترة من عدم الاستقرار، إذْ لا يُكاد يعيَّن أمير حتّى يعزله شريف مكّة، وهكذا. مرحلة سادتها تقلّبات في الإدارة والحكم.

انتهت حقُبة سلطة بني حسين في المدينة إلى الأبد، ويُغمد سيف حكمهم مع دخول المدينة تحت حكم الإمام النجدي سعود بن عبد العزيز آل سعود، ويعيّن الإمام ابن المدينة، وشيخًا من شيوخ حرب ابن مضيان أميرًا عليها، هو مسعود بن بدوي بن مضيان الظاهري، من مروح من بني سالم الحربي، الذي استمرّ عهده لأكثر من سبع سنوات، في قصره في العوالي، في قلعة ابن مضيان.

استمر عهد ابن مضيان طيلة فترة الإمارة السعودية الأولى، ليؤسر على يد الحملة العلوية المصرية، ويُنفى إلى اسطنبول ويُعدم. والحملة العلوية نسبة إلى والي مصر محمد علي باشا، وكانت بتكليف من الباب العالي لاسترجاع المدينة إلى سلطة العثمانيين. لتدخل المدينة تحت سلطة جديدة قديمة، وسيف حاكم جديد.

بعدئذ دخلت المدينة العهد العثماني مرة ثانية، أو العهد الأول من حياة محمد، فهو يتذكّر أربعة عهود عثمانية عايشها في المدينة، عهد السلطان عبد المجيد، وعهد السلطان عبد الحميد، وعهد السلطان محمد رشاد، وعهد

الاتحاديين. يتذكّر تعدّد سيوف السلطة حينذاك، والحرم النبوي واحد.
وإسطوانات المسجد الشريف شامخة شاهدة.

أسطوانات المدينة

حالما يدخل محمد البيت يملأ حضوره الأرجاء، طاقة زيدانية متواصلة، يحيّي الأطفال، ويسلّم على أم العيال. يفعل كل ذلك وهو يهمّ بخلع غترته وعقاله. ومعلّقًا مشلحه على باب البيت، لتصيح زوجته فاطمة أم حسين: «محمد يا محمد، لسّه مرتّبة البيت».

لا يلتفت محمد إلى مناشدات الزوجة، المتكّررة، فلقد تعوّد استغلال أقصى درجات الراحة التي يقدّمها المنزل. فهو يعشق التباسط في المكان، والارتياح مع الأحباب. لعلها ميزة يتمسّك بها لتذكيره بأيام حوش خميس والجدّة.

وما تنفكّ أم حسين تتساءل.

تتساءل عن مقدرة محمد على إبراز الاهتمام بالملبس والحضور إذا أراد، وصرف النظر عن الشكل متى أحب. فكان يجيبها: «الثقافة نظافة ونزاهة، ولو اتسخت ملابس حاملها».

وبعد هدوء العاصفة الزيدانية يُسقط محمد أعاصير جديدة على أمّ حسين. «اليوم في عشاء في البيت، جاي صديقي المهندس راشد رستم، واصل من مصر، ومعه الأستاذ الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني».

«الليلة الليلة، يعني اليوم؟» تسأل أم حسين وهي تعرف الجواب. لا تسأل من باب الاستياء بقدر ما هو من باب الاستدراج لكلمة مديح لها. ولعل وعسى يمتنع في المستقبل عن مباغتتها في «العزايم»، أو على الأقل ظنت هي ذلك.

يجتمع الليلة محمد مع صديقه المهندس، الذي ذاع صيته خارج حدود بلده مصر. وأصبح من المراجع في العمارة والبنيان. وأحبّ محمد جمع المهندس مع المعلم. وهنا المعلم بمعنى الأستاذ. وهو شيخ محمد ومن أعلام المدينة الأستاذ محمد عبد القادر الكيلاني. أراد أن يثير حوارًا عن فن العمارة في المسجد النبوي.

الموعد بعد صلاة العشاء، وحالما قضى الفرض في الحرم بسماع صوت الإمام يجهر بالسلام دقّ جرس العمل لأم حسين. في المجلس أعادت ترتيب المقاعد في الغرفة، وأعدّت العصير والقهوة. والأكلة، وما أدراك ما الأكلة. فاليوم العشاء هو الأكلة الحجازية الشهيرة المعرق، أو معرق اللحم. الأكلة التي كانت تجيدها أم حسين بامتياز لا نظير له. وبشهادة الحارة أجمعها.

حيث لون الطبق الأحمر، وقطع اللحم التي تطفو على سطحه، ورائحة المستكة والهيل تُسيل لعاب سابع جار. لتغدو الأكلة علامة فارقة في مطبخ آل زيدان،لا تنافسها إلّا أكلة السليق، التي كان يدعي محمد تفوّق طبقه فيها على معرق أم حسين.

يلتئم نصاب الجلسة بحضور الشيخ الكيلاني. فله المكان في الصدر، وأما المكانة، فتجسّدها آداب الضيافة، حيث قُدمت إليه القهوة قبل الكل، ومن بعدها العصير. وتعاد الكَرّة مرةً ثانية. يبدأ الشيخ ثم المهندس ومن بعدهما صاحب البيت.

يبدأ محمد الحوار بمقدّمة يدغدغ بها عقل الشيخ. يجلس إلى جانب المهندس ويؤشر خارج المنزل باتجاه الحرم بيديه الاثنتين. ليقول «يشمل الكلام عن المسجد النبوي الكثير ممّا ينبغي ذكره، إلا أن من أهم صفاته، فضلًا عن الصلاة فيه، أنه مدرسة وجامعة».

يهزّ الشيخ برأسه موافقًا وهو يرتشف القهوة، ومردّدًا: «{الذين يسمعون القول فيتّبعون أحسنه}(15)».

ليأخذ محمد الحديث حيث يريد. تبرق عيناه، ثمّ يرفع من نبرة الصوت ومعها يرفع يدًا واحدة. سبّابته أعلى من باقي الأصابع، ولكنها لا تؤشر، احترامًا للضيوف، ولكنّ براعة الفكرة تتطلّب الإثارة البصرية. يتخفّز محمد للكلام فيقول «في الإسلام أربع مدارس أساسية، الأولى وهي النبوّة على حرّاء يوم نزل جبريل على نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم، (فاقرأ) كانت الأولى».

«طيّب والثانية» مستعجلًا يسأل المهندس.

«الرسالة على الصفا، هي المدرسة الثانية. كما الثالثة أيضًا كانت على الصفا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، حتى إنه كان يقال لو أن أحدًا مدّ يده من الطاقة في دار الأرقم لانتزع قلنسوة المنصور وهو على الصفا»، يتوقف محمد عن الشرح لحظة حتى انتهاء الشيخ من أخذ رشفة جديدة من القهوة. ثم يهجم مرة أخرى.

«وأما المدرسة الرابعة، فقد كبرت واتّسع العلم فيها، فكانت الجامعة الأولى في الإسلام، وأعني المسجد النبوي».

«يا سلام يا أستاذ يا سلام عليك، طيّب مدرسة وفهمنا، الآن كيف جامعة؟»، يقول المهندس، والشيخ تحوّل من الاستماع إلى الإنصات.

«كانت كل جامعة من الجامعات الأربع في المسجدين، المسجد الحرام والمسجد النبوي... والمربدين، مربد البصرة والكوفة، قد طبعت بصمة على كل متخرج في مدرسة أو جامعة»، يتابع محمد. «فعلى الأزهر بصمة المسجدين والمربدين، وعلى الجوامع في تونس والجزائر والمغرب وحتى قرطبة في الأندلس. والإمام الأول لهؤلاء هو الإمام في المسجدين، والإمام في المربدين وحتى كل الجوامع والجامعات شرق السويس وشرق بحر العرب لم تكن إلّا كان المسجدان والمربدان لها، وتكون علم عالمها حين كانت».

وسكت محمد يستطلع الضيوف وردّات الفعل. يكسر الشيخ الكيلاني الصمت ليقول: «مقدّمة لا بد منها، ليست كل التاريخ، بل هي ملامح من التاريخ. المسجد النبوي هو مدرسة وجامعة تعلّمنا فيهما. فلا حاجة لي تدعوني إلى أن أذكر من هم علماؤهما، أنتم تعرفون سِير الأئمة».

هنا يأخذ محمد أطراف الحديث لنقله إلى العمارة والهندسة، فيُجري لمحة من ذكرياته عن العهود الأربعة التي عايشها من سلاطين عثمان. يعدّد بعضًا ممّا يُحسب لكل منهما: «أسجّل عن نفسي ذكريات أربعة عهود عثمانية. عهد عبد الحميد، وعهد عبد المجيد، وعهد محمد رشاد، وعهد الاتحاديين، وآن كان، يُحسب من عهد محمد رشاد. فمثلًا ليس للسلطان محمود في ما عرفت أثر إلا المكتبة المحمودية، ويمكن التجاوز عن تركة محمد علي باشا، لنعدّها من آثار السلطان محمود أيضًا».

«مثل ماذا؟» يسأل المهندس.

«كالباب المصري وباب الكومة ومدرج العنبرية، كبرزخ يصل داخل المدينة بخارجها»، يجيب محمد صديقه المهندس، والشيخ الكيلاني يتابع بإنصات فاضح الآن.

ليكمل محمد قائلًا: «أما السلطان عبد المجيد، فله الأثر المحمود، والآخر غير المجحود. فأثره المحمود هو بناء المسجد النبوي، بناء أصبح تحفة وزينة قام على تنظيمه وتنسيقه مهندس عظيم لا أدري أهو سنان باشا. فبنوا المسجد على طراز آيا صوفيا، الكنيسة الكبرى في اسطنبول، التي حوّلها محمد الفاتح إلى مسجد».

بلغت الإثارة مداها الأقصى مع المهندس، هو الآن سيدلو بدلوه منشكحًا. ومحمد يراقب المهندس عارفًا أن الحوار سيحلّق أعلى. «عزيزي وأستاذي محمد، صحيح السلطان عبد المجيد له الفضل في البناء. وهو للأمانة لم

يبخل على المهندسين المشرفين على البناء بشيء. وحاجة أخرى هي أن المشرفين على البناء حرصوا على نصب الأسطوانة الجديدة، التي تقوم عليها القباب».

«حسنًا يا باش مهندس»، يقطع محمد الحديث متسائلًا: «كيف لم يبعدها المشرفون عن الأسطوانة القديمة؟».

يبتسم الخبير المهندس ليحلّق أعلى» :كل الأسطوانات القديمة أُزيح شكلها وبناؤها وبقي وضعها وموضوعها. فمثلًا أبقوا أسطوانة أبي لبابة وغيرها. لم يتعاجز المشرفون بل أخذهم الفن والذوق. فالمسجد النبوي على طراز بيزنطي كآيا صوفيا».

توقّف المهندس عن الكلام. فما كان من الشيخ إلا أن عقّب قائلًا: «نعم في ما وصفت وقلت يا مهندس، فالمسجد النبوي على طراز رومي بيزنطي، إلّا أن الميزة هي أنه تجنّب أي شبهة تجعل البناء كأنه آيا صوفيا».

«يعني أنه رسم الفن، وصبّ الفن على الفن»، يقول محمد.

«أحسنت أحسنت، هذه زيدانية مجنّحة يا ابن زيدان»، يجيب الشيخ وعلامات الإعجاب تكسو محيّاه.

«أَصبت محمد، والشيخ كذلك أكد لي معلوماتي»، يقول المهندس.

يقطع الحديث صوت دقّ الباب، كدليل على جاهزية العشاء، فيمازح الشيخ تلميذه محمد قائلًا :»عامل سليق أم معرق؟»

«اليوم نحن ضيوف عند أم حسين»، يجيب محمد وأم حسين تسمعه من خلف تأخذ نصيبها من المديح المتأخر المطلوب.

«لئن كنت مدينيًا مالكي المذهب، فانني أعترف بأن مكة بيت الله.. لها الفضل كما للمدينة الفضل، هما المكتان أبعد عن نفسي أن أفاضل بينهما، حرم الله ومسجد رسول الله، فالجلال لله عز علاه والصلاة على رسول الله».

محمد حسين زيدان

الانتقال من المدينة

«ما التقى مكّاوي يصير سكرتير له جايب لنا هذا من المدينة؟!»

سمع كل هذا وأكثر حين انتقل محمد من أحبّ الديار إليه، المدينة، إلى أحبّ الديار إلى رسول اللّٰه محمد صلى اللّٰه عليه وسلم، مكّة. فنبي اللّٰه محمّد صلى اللّٰه عليه وسلّم حين أُمر بالهجرة دعا ربه: «اللهمّ إنك أخرجتني من أحبّ البقاع إليّ، فأسكنّي بأحبّ البلاد إليك».

وانتقل محمد إلى مكّة عندما عُيّن معاونًا لشيخ مشايخ الجاوة الشيخ حامد عبد المنان. نحن في العهد السعودي، حيث أصبح العمل الحكومي في مكّة، وهو، أي محمد، لم يرحل عن المدينة لعوز، أو لغيره، بل لأنّ فرص العمل في هذا الكيان الجديد، كما كان يصفه، كانت في العاصمة.

تمسّك بالصبر كثيرًا. وهو البدويّ الذي صبر على أكثر من ذلك في المدينة. وكان يقول في نفسه حين يسمع هذا الأمر: «في المدينة أصبح عبد الرحمن مفتيًا من أعيانها، وصهرًا لعين من أعيانها أسعد مفتي. وحسن موسى كذلك، وغيرهم كثيرون ما قلنا إيش جابكم؟».

لم يتذمّر. ولم تتذمّر كذلك زوجة محمد فاطمة. وهي «ستي زيدان» كما يناديها الأحفاد، المدينية الأصيلة التي لا يغيب عني كيف كانت تقول وصيتها وهي على فراش المرض: «أنا بنت المدينة، اِدفنوني في المدينة». ولكنها المرأة الصالحة والوفية والصبورة والأمّ لاثني عشر ولدًا (خديجة وهند وأسماء وحسين وفيصل وعائشة وفريد وسامي وعفاف وسميرة وسعود وأحمد)، عرفت أن الدنيا أرزاق، وأن هذا الرزق لزوجي أراده اللّٰه في مكة.

عند الانتقال من المدينة كان قد رزق محمد أولاده الأربعة الكبار، خديجة وهند وأسماء وحسين. الصبي حسين كان طفلًا، أما الأخت الكبرى خديجة، فكانت كبيرة بما يكفي لتتذكّر. تتذكّر دخول قوات ابن سعود. فكانت تقول لي عند سؤالي عن عمرها: «يا ابني أنا وُلدت يوم كنا نخبز في البيوت»، ثم تُكمل «وأتذكّر يوم دخلت قوات ابن سعود المدينة، وكنت أنا الطفلة مع الجيران نجمع بقايا الرصاص من الأرض». وكانت عمّة خديجة تتصرّف بحرية وتلقائية مع والدها محمد، حتى إنها جسدت معنى «البنت أمّ أبيها»، حين كانت تمازحه دلعًا منادية إيّاه بمحمد، حاف.

الرحيل. تتذكّر عمّة خديجة كيف رتّب والدها محمد الناقة الحديثة، سيارة رباعية الدفع، وفي خلفها حوض كبير اتسع لكل الأغراض المشحونة معهم. ملابس وقطع أثاث وأقمشة وغيرها، ومستلزمات السفر من أكل ومشروبات كالشاي والقهوة والماء، تحملها أم حسين في حضنها.

والطريق إلى مكة لم يكن معبَّدا أوْ ميسّرًا. بل استغرق سفر عائلة محمد سبع عشرة ساعة، إلّا أنّ السفر لساعات كان أسهل وأقلّ إرهاقًا من سفر الأيام. وللدقة لم تكن الرحلة انتقالًا، بل أقرب للهجرة. على الصعيدين المعنوي والجغرافي. جغرافيًا المدينة منبسطة، أما مكّة، ففي وادٍ. جبال مكة سوداء اللون غامقة، وفي المدينة حمراء اللون فاقعة. يطغى على مكة عند دخولها الشعور بالرهبة. وفي المدينة يكسو الزائر الشعور بالاطمئنان. حتى صحّ المثل «مكة جلال، والمدينة جمال». وفي الشق المعنوي يكفي ترك الأهل والأصدقاء والجيران وأرض الطفولة لتعزيز الشعور بالهجرة.

اتفق محمد مع الشيخ حامد عبد المنان على راتب قدره خمسة جنيهات ذهبًا. لم يَتسلّم منها أي شيء إلّا بعد أشهر قليلة. ذلك أن الحرب العالمية الثانية، قد اندلعت بعد وصوله إلى مكّة بشهر. وعلى أثرها لم تأتِ إلّا باخرة واحدة تحمل الحجاج الجاويين. وأصبح العمل صعبًا، والمناخ الاقتصادي في ضِيق.

لم يكن بوسع الشيخ حامد عبد المنان تحمّل راتب محمد. فأصبح جنيهين بدلًا من خمسة جنيهات، وهما لا يكفيان لأسرة من أربعة أطفال. وقبِل محمد متمسكًا بكلمته «الشكوى لله». وقبِل أكثر لأنه رَحّل عائلته إلى مكة من المدينة، مدركًا حجم المخاطرة. وهو البَدوي الذي يعرف أن الحياة مجموعة تحديات.

تعرّض محمد لضغوط متعدّدة، معظمها في العمل. وقد أجاد في عمله. مع رعاية من الشيخ حامد نفسه، حيث نجح محمد في حل الكثير من المشاكل. ولعلّ الظروف القاسية هي التي حفّزته وساعدته. وفي أحد الأيام ومع اشتداد الحرب العالمية الثانية وتأثيرها، توسّط الشيخ حامد لدى وزير المالية آنذاك عبد الله بن سليمان، طالبًا قرضًا لمشايخ الجاوة، على أن يوزّع عليهم بنسب مختلفة معلومة، وأوكل الشيخ حامد مهمة التوزيع إلى محمد، بحسب تعليماته في الصرف.

وجاء أحد المشايخ من الجاوة ومن بيت كبير معترضًا ومتهجّمًا. جاء إلى محمد يقول: «هذا المبلغ ليس لي، أنا لي أكثر من ذلك».

جاوبه محمد بهدوء: «هذا القرض ليس لك خاصًا، وبحسب تعليمات الشيخ حامد ابن عمّك طلب أن يُقسم بينك وبينه».

انتفض عندئذٍ الشيخ وتغيّر لون وجهه، رافعًا سبّابته قائلًا: «أهو أنت اللي جبت المصيبة هذه، تسبّبت في إشعال الحرب».

ضحك محمد مستوعبًا غضب الشيخ وقال «يعني أنا أوحيت لهتلر وموسوليني وتشمبرلين ولافال وستالين بأن يشعلوا الحرب؟».

«إيوه أنت»، يجيب الشيخ، وكلّه ضيق على ضيق من الوضع المالي.

«طيب أنا إذن طاغية الزمان أعظم من جنكيز خان»، ثم ذهب محمد لينادي الشيخ حامد ليصرفه بلطف وأدب.

ولم تنته الصعوبات عند هذا الحدّ، بل وصلت المضايقات إلى الذروة عندما جاء ابن الشيخ حامد صدقة عبد المنان في اليوم التالي إلى محمد ضاحكًا وقال «تعال يا زيدان، تعال اسمع».

«خير إيش القصة اليوم؟».

«صديقك عبد الله عريف، وقد شكوتك عنده، وعند أحمد قنديل، فقالا خليه، أي محمد يرجع المدينة. وعين أحمد قنديل بدالك شخص، أو عبد الله عريف».

«نصحوك لأنك طلبت ذلك منهم، صحيح؟».

«لا أبدًا أبدًا»، يجيب صدقة.

«على العموم أبشرك سيصدر قرار بعد أيام بانتقالي إلى وزارة المالية، وأنت حرّ تعين إلي تبغاه».

«ما شاء الله مزبّط أمورك، طيب اسمع لا يصلح ولا واحد منهم مكانك، بعدك ما رح نعيّن أحد. إذا وصل الحجاج حين تنتهي الحرب يفرجها ربك، ولا حاجة لنا إلى سكرتير، أنا سأكون ذلك».

وصدر بعدئذٍ قرار تعيين محمد مساعدًا لرئيس قسم الأوراق خلفًا للسيد حسن كتبي، ومع السيد محمد حسن فقي. وبذلك أحس محمد وعائلته، التي أضافت مولودها الخامس، فيصل، ببعض من الاستقرار فى مكّة المكرمة.

لم يفترق محمد عن المدينة الوطن، ولكن كما كان يقول: «إنني أجد نفسي في مكة المكرمة مكيًا من أهل المدينة، مدينيًا من أهل مكة».

حجّاج جاوة وسداد الدين

جاء قرار الانتقال من المدينة إلى مكة حاملًا معه مسؤوليات كبيرة. أمّ حسين عليها ترتيب أمور العائلة وأمورها، وأمور الأولاد. إعداد للحقائب والتخلّص من بعض الأغراض في البيت. مهمة قد تبدو صعبة إلّا أن نظام التكافل الاجتماعي حينذاك كان كافيًا لتبديد الصعوبات.

أما محمد، فتوجّه لإعداد مستلزماته، ومنها الشكلية. سيصبح في منصب جديد يحتّم عليه لباسًا أفخم. فذهب يفصّل ثيابًا جديدة. ومعها يزيد شراء مشلح فاخر، لا يملك قيمته. مشلح أبو شهر قيمته أربعة جنيهات. أربعة جنيهات عزيزة على أم حسين في تخطيطها للرحلة، والمسكن الجديد. ولم يكن محمد يريد تعكير الأجواء، وإضافة ضغوط جديدة على الزوجة. وهو الأمر الذي كانت تشتكي منه أمّ حسين طوال حياتها مع محمد، بأنه يصرف ما في الجيب من دون حساب.

عرف محمد رد فعل زوجته مسبّقًا. فلم يستشرها بل ذهب إلى صديقه رئيس هيئة الأمر بالمعروف في المدينة الشيخ عبد اللّه بن عمرو ليقرضه المبلغ. وبذلك يكون قد أعفى زوجته من همّ المصاريف، وليس هو أفخر العباءات. وجد في هذه الحيلة أفضل طريقة ليتمتّع بغرض أراد أن يهديه إلى نفسه في وظيفته وحياته الجديدة.

أقرض الشيخ الصديق محمد المبلغ، متمنيًا له كل النجاح والتوفيق في مسيرته العملية، وممازحًا إياه: «بكرة إذا صرت من الكبّارية لا تنسَ قيمة المشلح الذي زيّنك».

ولم يكن محمد من النوع الذي لا يحفظ الجميل، فما بالك بالدّين.

وذهبت الأيام ومحمد في عمله في مكّة. الراتب لم يصل بعد، والدّين يُثقل همّه ويقضّ مضجعه كل ليل. ثم حانت فرصة له فسدّد دينه.

وصلت الباخرة الأولى والأخيرة لحجّاج جاوة الأربعة. وتبعًا للنظام سئل الحجاج عن شيخهم. فأجابوا «أحمد مقلان». وعند إبرازهم بطاقاتهم التعريفية وجدوا اسم «محمد مقلان». واحتار المسؤول، هل يسلّم الحجاج للشيخة ميمونة مقلان، أمّ أحمد، أم لمحمد مقلان، أخيها.

اتّصل نقيب الوكلاء لمشايخ الجاوة الشيخ محمد جوخدار بالشيخ حامد عبد المنان ليشرح له ما جرى، ويسأله عن الحل. وبالمصادفة كانت هيئة الأمناء مجتمعة. فأخبرهم الشيخ حامد عبد المنان بذلك، وأجمعت الهيئة على تطبيق النظام، على نحو يكون معه سؤال الابن لأمّه والصبيّ لعمّه.

إلّا أن الشيخ حامد وبخبرته العتيقة أشار إلى الجوخدار قبلها بأن يضعهم أمانة عنده إلى حين. وفي الوقت نفسه صدر قرار الأمناء، وبحسب النظام هم حجّاج يسلّمون للشيخة ميمونة مقلان، لا للشيخ محمد مقلان. ووصل الحجاج ليبقوا أمانة حتى يصدر أمر النيابة*(16) لتنفيذ القرار بحسب النظام، ما يعني عملية بيروقراطية طويلة. وعلى قاعدة أن لا عبرة بالبطاقة قبل النطق أو بعد النطق. العبرة بالنطق فقط.

أحالت النيابة القرار إلى هيئة التنفيذ التي يرأسها الشيخ محمد لنبي، فوافقت عليه، وبدأ يسلك مجراه البيروقراطي، رُفع بعد ذلك إلى النيابة ليحال إلى مجلس الشورى، ويُصدر قراره خلافًا للقرار. والحجة أنّ الحجاج الجاويين لا يفرّقون بين اسمي أحمد ومحمد، وأنهم أرادوا النطق، والبطاقة أيّدت ذلك. وجاء قرار مجلس الشورى من النيابة للعلم به، لأنه في نطاق التنفيذ.

انزعج الشيخ حامد كثيرًا. ووجد محمد يزمجر غضبًا ويقول: «فين السوّاق خلّيني أوصل لعبد الحميد خطيب، وعلي كتبي، ليكتبا الرد على القرار».

هنا خطرت في ذهن محمد فكرة، يصنع منها الحل، للحجاج والشيخ حامد ولدينه.

فأجاب الشيخ حامد «دقيقة دقيقة تمهّل. هما عضوان في مجلس الشورى، وافقا على هذا القرار صحيح».

«إيوه صحيح، وبعدين»

«شوف يا سيدي، أنا أكتب قرارًا يرجع به مجلس الشورى إلى النظام. بس يدك على الكيس تعطيني أربعة جنيهات أجرة هذا القرار، أسدد بها دينًا على رقبتي في المدينة. قيمة مشلحي الذي أرتديه».

«عليك ديون يا محمد، وما تقول لّي».

«واللّه يا شيخ آنت آدرى بالحال، والراتب ما استلمت ولا قرش منه وخليها على اللّٰه».

«طيّب طيّب، اللّٰه يفرجها يا ابني، عليك وعلينا، بس إذا ما نجحت؟».

«لك عليّ يا شيخ إذا أخفقت وأصر مجلس الشورى على رأيه، أن تحسم من راتبي كل شهر جنيهًا».

«اتفقنا اتفقنا، على بركة اللّٰه»، وأسرع الشيخ يناول محمد الأربعة جنيهات.

اشتد عزم محمد على إنجاز المهمّة، وذهب يطلب من الشيخ حامد أن يجمع له الهيئة. وهو يعدّ القرار الذي سيعرضه، ومسوّغاته وشرحه.

اجتمعت الهيئة وقرأ محمد مسوّدته. شرح كيف أنّ الحجاج الجاويين لا يقبل منهم الإسلام إلا اسم محمد. وأن قرارهم فيه اتهام صريح لملايين المسلمين من الجاويين بأنهم لا يعرفون اسم محمد، وأنهم لا يعرفون الأذان والإقامة، وهم دخلوا في الإسلام بالشهادتين اللتين يعرفهما كل الجاويين، لأنهم محمديون لا يُقبل إسلامهم إذا لم ينطقوا بالشهادتين. وهذا الافتراض فيه تجريح لملايين المسلمين.

وافقت الهيئة بعد نقاش قصير، وأجمع أعضاؤها على أنّ تلافي التجريح من صلب مشورتهم، فلم يأخذهم العنت ولا العناد. ورُفع بعدئذ القرار إلى النيابة ثم أُحيل مرة ثانية، إلى مجلس الشورى، ليُصدر قرارًا فيه شيء من العدول عن القرار الأول، والقناعة بقرار مشايخ الجاوة، ليسلم الحجاج للشيخة ميمونة مقلان.

طارت الأربعة جنيهات إلى المدينة واصلة إلى صاحبها الشيخ عبد اللّٰه بن عمرو. ليقول لمحمد: «شكرًا يا واد، أهو كده وإلّا فلا».

الجرارين

اعتُمدت وظائف كثيرة في مدينة مكّة لخدمة حجّاج البيت الحرام، منها المطوّفون ومشايخ الجاليات وغيرهم. واختلف النظام وتسمية المهمّات عمّا كان سائدًا في المدينة المنوّرة. وقد أخذ محمد يتابع وباهتمام شديد الاختلاف في العمل والمسمّى الوظيفيّ. وأكثر ما لفت انتباهه لا بل استثار غضبه هو لقب الجرّارين على الصبيان المطوّفين حول الكعبة. فكلمة «الجرارين» وفي اللهجة المحلية لها معنى سلبي وتُستخدم كشتيمة. وتُقال عند وصف شخص بالديوث أو القواد.

وهناك سبب آخر أشعل الغضب في صدر محمد. عاش طفولة يعرف فيها تأثير اللقب في معنويات الأطفال. هو كان يلقّب بالمجاور البدوي في المدينة، وحين عمل في دار الأيتام وقف سدًا منيعًا دفاعًا عن الدار، وكذلك محاربًا ضد ما كان يلقّب به الأطفال اليتامى، وهو الذي ظل فخورًا طوال حياته بلقب أطلقه على نفسه في تحدٍّ واضح للماضي، لقب «معلّم الصبيان».

استفظع محمد لقب الجرّارين. واقترح على الفور اعتماد مشروع نظام باسم نظام الصبيان بديلًا. لم يلقَ الدعم المطلوب في بداية الأمر، لكنه ثابر وحاور المعنيين بشأنه، من النقابة والمطوّفين والمشايخ، وبعد محاولات متعدّدة وجد محمد يد العون، ومن رجل يعرف أحوال المطوّفين والصبيان جيدًا.

لملم أغراضه من مكتبه وتوجّه على عجل قاصدًا نقيب مشايخ الجاوة محمد معاجيني. وفي رحلته مشيًا على الأقدام مرّ من داخل الحرم متوجّهًا نحو أفراد عائلته، ليسألهم إن كانوا يحتاجون إلى شيء ما، فوجد أبناءه الثلاثة حسين وفيصل وفريد يلعبون في الشارع، أو الزقاق مع جيرانهم، حسين أكبرهم له سلطة العمر في توزيع الأدوار والمواقع، وحتى إنه يقرّر مَن المنتصر ومَن الخاسر. لم يكن يروق ذلك لفريد، فيجد نفسه مستاءً. وفي مرات متعدّدة يأخذ الكرة ويركض بها غاضبًا إلى المنزل، بغرض معاقبة أخويه والجيران، إلّا أنّ المنزل لم يكن المكان المناسب للّعب. ليس لصغر حجمه بل كان واسعًا فسيحًا، لكن لأن معظم النساء في المنزل حبالى. الأم والأخوات والخالات وحتى لربما الخادمات.

أكمل محمد مشواره محمّلًا بمشروعه وبطلبات من ست البيت. ومرّ من السعي يريد شراء الحاجيات. فالصفا والمروة كانا يُطلّان من ناحية على الحرم، ومن الناحية الأخرى على سوق أشبه بالبازار. وللمصادفة الجميلة

والمريحة وجد محمد الشخص الذي ينشده. وجد محمد معاجيني بنفسه يختار فاكهته من تفّاح ورمان طايفي.

«واللّٰه إنك ابن حلال كنت ذاهبًا صوبك»، يقول محمد.

«أهلًا بالأستاذ محمد، كيف حالك؟».

«بخير وعافية، على فكرة أنت تحب الرمان، عندي لك الرمان من أرض الهدى والطائف».

«تسلم لي يا حبيبي، اللّٰه يخليك. بس قل لي خير ليش كنت تبغاني؟»

«شوف يا سيدي، ما رح طوّل عليك لأن الموضوع يحتاج قعدة، أنا حابب أقترح تغيير اسم الجرارين إلى نظام الصبيان، وما في غيرك يساعدني».

«واللّٰه معاك حق، معاك حق»، ويضحك محمد معاجيني ضحكة عالية مطوّلة.

«أنا مستعد أصوغ النظام، والمعرفة عليك، ينفع؟»، يسأل محمد.

« ماشي ماشي اتفقنا، بس نخلّص نروح للمكتب، أنت تأمر أمر يا أستاذ».

«أنت الأستاذ، تسلم أيها النبيل».

صاغ المحمدان النظام ورُفع للنيابة، ثمّ أُحيل إلى لجنة التمييز فوافقت عليه لترفعه مرة أخرى للنيابة. ثم أُحيل إلى مجلس الشورى. بعد ذلك هاتف مجلس الشورى الشيخ حامد عبد المنان، شيخ مشايخ الجاوة، ليحضر هو ورئيس المطوّفين الشيخ محمد هرساني، ورئيس مطوّفي الهنود الشيخ عبد الرحمن مظهر، حيث أُلفّت لجنة من عبد الحميد خطيب، ومحمد مغيربي، وعبد الرؤوف صبّان، وذلك لتدارس النظام معهم.

وكان الشيخ حامد مريضًا ومعتل الصحة، لا يحب الخروج والاختلاط، وهو الذي كُفّ بصره. يتستّر حذرًا من الشتّامين، لذا كلف نائبه الشيخ عبد الرحمن عبد الشكور ومحمد حضور اجتماع اللجنة، وانعقدت اللجنة فإذا بالشيخ محمد هرساني يسأل عن غياب الشيخ حامد، فأجاب محمد بأنه مريض، وأناب عنه نائبه ومحمد.

غضب الهرساني وقال في قمة ثورته: «هو الشيخ حامد ما يعرف إن المطوّفين أكبر من مشايخ الجاوة؟».

تسمر الحضور وهم يعرفرن الحساسية المفرطة عند الهرساني فّي ما يخص الصلاحيات.

أخذ محمد المبادرة كعادته ليجاوب، فجوابه مخبوء تحت لسانه بحسب المثل: «الشيخ حامد يعرف مشايخ الجاوة أكثر، ويقدّر المطوّفين، والبيوت في مكّة من مشايخ الجاوة لها المقام الكبير، فليس من المطوّفين الآن من عائلة كوشك أو القونق أو أحمد بخاري، لأن حجّاجهم قليلون من العرب أو غير ذلك، لكنّ مشايخ الجاوة منهم البتاوي وعباس قطان والفطاني والأشي وعبد الشكور وحمزة شيت، وكلهم من أكابر مكة، وأنت تعرف الفرق بينك وبينهم».

ثار الشيخ حامد غاضبًا وهمّ بالخروج من اللجنة، ولم ينطق أعضاء مجلس الشورى بكلمة واحدة. ومحمد يقول في نفسه: «جئنا نغيّر كلمة جرّارين، فأصبحنا في شيء آخر».

وغضبُ محمد لم يكن من فراغ أو عصبية. فقد هاله عدم احترام الشيخ محمد هرساني لعبد الرحمن عبد الشكور. فأخو عبد الشكور حسن، هو أول من رشّح الهرساني للرئاسة، ولكن كان على محمد إرضاء الهرساني.

تكفّل الشيخ حامد بإرضاء الهرساني في اليوم التالي. وأقام حفل غداء فاخرًا في منزله في جرول، وتصافى الجميع. وصار للصبيان المطوّفين نظام جديد واسم جديد.

انتقل بعدها محمد إلى عمل جديد في وزارة المالية المنشأة حديثًا. جلس في وظيفته الجديدة محرّرًا في قسم الأوراق وبرئاسة صديقه الشاعر الكبير محمد حسن فقي. يناوله الأوراق مشروحة بالتوجيهات اللازمة من المدير العام المساعد لوزارة المالية الشيخ عباس صيرفي.

وعلاقة الصيرفي بمحمد لم تكن علاقة يسودها الود، بل غلب عليها الكثير من عدم الارتياح من جانب الصيرفي. ومحمد لم يكن ليتأثر بسوء معاملة أو ضغط عمل. طفولته ويتمه منحاه مضادات نفسية جعلته يرتاح مع نفسه أيّما راحة.

في مكتبه يفنّد محمد العمل بحسب التوجيهات. يساير الموظفين والمراجعين وكل من له غرض. وحركة العمل تدور عجلاتها كأي بيروقراطية. قوة تسير مغفلة في أحيان كثيرة تبعات قراراتها. القوة التي تعتمد على سير

النظام أكثر من سلامة الانتظام في المجتمع، تاركة ذلك الخيط الرفيع في تفعيل القرار على المسؤول. ليقرر متحديًا البيروقراطية وموظّفيها.

وجد محمد نفسه صبيحة أحد الأيام في موقف كهذا. وصلت للتو الى مكتبه أوراق اعتماد مشروحة من المدير العام المساعد، ما يعني أنّ كل حلقات المنظومة البيروقراطية متكاملة. وقد ورد فيها بحسب الشرح أن مدير مالية ينبع محمد الناجم، الذي خلف حمد الميمان، وله منزلة كبيرة عند وكيل وزارة المالية حينذاك حمد بن سليمان، وجّه بصدور الأمر بإعداد سيارتين كبيرتين تحملان اثنين من إخوته وهما يقطعان الحطب ويجلبانه إلى ينبع البحر.

وقع نظر محمد على هذا الأمر. وهو العارف بأرضه، أدرك أن المدير ومساعده والبيروقراطية كلها لا تعرف ما يمكن حدوثه في تنفيذ قرار كهذا، إضافة إلى التكاليف التي لم يسأل عنها محمد. فحِمل الحطب، وهو حمل منه الكثير في طفولته، كانت قيمته في المدينة لا تزيد على نصف ريال، أو ريال، ولكن لماذا تجلبه المالية على هذه الصورة الباهظة التكاليف.

صرف محمد النظر عن التكاليف، ولم يجعلها حجّة يطلب منها التعديل. وقد عرف في قرارة نفسه أن هناك مستنفعين لا جدوى من مواجهة فسادهم مباشرة أيضًا.، إلّا أنّ حجّة الفتنة بين أبناء البلد أمر لا يمكن السكوت عنه. والفتنة واقعة بأمر من الجغرافيا وأصحابها، ولا علاقة لها بأوراق البيروقراطية، فلو ذهب رجال المالية يقطعون شجرًا من شعاب رضوى لقاومهم بعض الجهنيين، أو من شمال ينبع، فسيقاومهم بعض البلويين، أو أبعد من ذلك، لو ذهب رجال المالية ينفّذون أمرهم ويقطعون الشجر في الغرب، لقاومهم بعض الحربيين.

وإذا أُطلقت رصاصة واحدة من خويّ على جهنيّ أو جهنيّ على خويّ فسيُغضب هذا الحادث الملك عبد العزيز، ولربما أرسل جيشًا يؤدّب من أطلق الرصاص. ولربما ستمرّ أيام وسنوات تدار فيها حلقات من الوساطات لحل الموضوع، وعدم الثأر بالدم. ولكانت طاقة البيروقراطية قد استُنفدتْ في متابعة مشاكل قبلية إضافة إلى قضاياها اليومية.

كانت الفتنة تمرّ أمام ناظرَي محمد، ولم يقتنع بها السيد محمد حسن فقي، ولا اقتنع بأن يطلب التعديل في شرح ما طُرح. فأخذ محمد الأمر على عاتقه. وذهب يكتب الموافقة بإعادة النظر، طالبًا أن يصدر أمر عن الأمير فيصل بن عبد العزيز، أو عن الملك نفسه، مكبّرًا الموضوع قصدًا، وأرسل بعد ذلك كتابه

إلى الكاتب على الطابعة سراج الدين بن ياسين، ثم تريّث قليلًا وعاد ليعدّل بشطب كلمة «الموافقة عاجلة».

في صباح اليوم التالي ذهب محمد إلى عمله كالعادة، ولكنْ مبكّرًا قليلًا، وأخذ الخطاب والمذكّرة ودخل على عباس صيرفي وهو يقول: «إذا لم تسأل كيف، فكيف توافق، إذا لم تسأل عن التكاليف، فلن يخطر ببالك ما ينجم عن الفتنة».

«أيّ فتنة يا رجل» يجيبه الصيرفي.

«أرجو منك سعادة المدير سماع ما أقول وهو، اشتروا الحطب من السوق واطرحوا توريده إلى الكنداسة على ملتزم تثقون فيه».

بعدئذٍ تنبّه عباس صيرفي لعواقب القرار الأول، وعاد للشرح على الخطاب بأن يشتروا الحطب من السوق.

خرج محمد من مكتب الصيرفي، وقابل السيد محمد حسن فقي، الذي لم يرتح لصنيعة محمد، ونظر الاثنان بعضهما إلى بعض في صمت ثم نطق الفقي يقول: «والله يا محمد إيش الي دفعت لهذا القرار».

ليجيبه قائلًا: «شوف يا سيد، إعذرني لكن أنا بدويّ أعرف أشبار أرضي، وصحراءها وأشجارها، فقد نشأت في بيت شعر وأنشأني ينبع النخل كما أنشأني الخرج وشماريخ السراة وعمق تهامة، ودم يُسال من أهلي أو بعض أهلي لا أقبله. واجهنا مشاكل وعايشنا فتنة الدم، ولا نريد أن نعيشها مرة ثانية».

معاملة أهل المدينة لوزارة المالية

ونُقل محمد إلى المجلس المالي، الذي يرأسه الشيخ محمود شلهوب. والمجلس يتكوّن من رؤساء الدواوين، عبد الرزاق هندواي للمحاسبة، عبد الوهاب أشي للواردات، علي عامر للموظفين، عبد العزيز جميل للتفتيش، ومحمد حسن فقي للأوراق.

وصلت يومذاك إلى المالية معاملة تقدّم بها أهل المدينة، وحوّلها محمد بكل حماسة إلى المجلس، لأنها للمدينة أولًا، وثانيًا لأن مضمونها يلمس في محمد بعدًا تقدميًا. في هذه المعاملة طلب بتأسيس قسم ثانوي بعد الإعدادية في المدينة المنوّرة، ديرة محمد. فأقرّه مجلس الإدارة في إمارة المدينة، ولكن

حين عرض محمد المعاملة على مدير المعارف السيد طاهر الدباغ أقر المبدأ ومعه التأجيل في التنفيذ، وذلك أن الظرف المالي لا يسمح بالتنفيذ، ولأن آثار الحرب العالمية الثانية الاقتصادية ثقيلة، والواردات المالية، تحديدًا من الحجاج، في شبه انقطاع.

وأُحيلت المعاملة إلى مجلس الشورى، الذي أقرّ وجهة نظر المعارف. بعدئذٍ طفق محمد يفكر في حيلة يستطيع من خلالها تمرير نصف معاملة بدلًا من ركنها كلها، على قاعدة «ما لم يُدرك كله لا يُترك جلّه». فلمعت في ذهنه فكرة، وراح يرسم خطّتها.

توجّه محمد حاملًا فكرته ليعرضها على ثلاثة أشخاص عامل الثقة بينهم جميعًا متين. توجّه إلى عبد الرزاق هنداوي، وعبد الوهاب أشي، وعلي عامر، وتحيّن الفرصة المناسبة عند اجتماعهم على انفراد، وحالما كمن لهم في غرفة الاجتماع دخل عليهم حاملًا معه كل الأسلحة الزيدانية من إقناع وترغيب ومحاورة.

«صباح الخير يا جماعة، أنتم تعرفون حجم المسؤولية الملقاة علينا جميعًا، وأن الأهل، كلّ الأهل من شمال المملكة حتّى جنوبها ينظرون إلينا بعين المسؤولية»، يقتحم محمد بهذه الجملة الاجتماع.

«شوي شوي علينا يا أستاذ، داخل بكل ما أوتيت من قوة»، يجيب علي عامر ويداه الاثنتان تتحركان دائريًا في إشارة إلى فهمهم جدّيته.

«شوفوا يا إخوان، أنا جيتكم لأني مكلف. مكلف مرتين، من ولي الأمر، ومن أهل المدينة، هذه المعاملة عندي حل لها».

لمع في أعين الكل حرص محمد الفاضح. وعدّل الثلاثة من جلستهم، استعدادًا لسماع الاقتراح الزيداني.

«بس خلينا نتفق»، يقول الزيدان ليقاطعه عبد الوهاب أشي قائلًا: «بدري يا زيدان على الشروط، نسمع الأول».

«حاضر حاضر، أنا أعرفكم، وأعرف أنكم لن تتوانوا عن خدمة البلد وناسه».

«الفكرة يا سيدي، تفضّل»، يقول عبد الوهاب أشي.

«طيب، المجلس يوافق على رأي المعارف بس بشرط»، يبدأ محمد كلامه بحماسة فاضحة.

«قلنا بلاش شروط يا هو»، يعيد تحذيره عبد الوهاب أشي.

«يا أخي اِسمعني للآخر. أنا قلت لا تقربوا الصلاة وما كمّلت. إذا اللّٰه سبحانه وتعالى وضع شرطًا للصالح العامّ فاسمع مني»، يقابل محمد التحذير بتصعيد.

ثم يكمل حديثه «يوافق المجلس على المعاملة بشرط ألا تغلق ميزانية إعداد البعثات سنويًا، بل يستمر الصرف على عدد الطلاب شهريًا».

«كيف يعني يا محمد»، يسأل عبد الرزاق هنداوي بكل هدوء.

«ممتاز، الطالب يكلّف تسعة عشر ريالًا، الفكرة أن يظلّ هذا المصروف لكل طالب سواء أكان من المنتسبين إلى المعارف عند التقرير، أو من الذين التحقوا بها من المدينة، وجدّة والمدن الأخرى».

تلقّف المجلس الفكرة، ودار نقاش طويل بشأن الموضوع. في تلك الأيام التعليم كان مطلبًا وطنيًا. ومن أكبر البرامج الحكومية المكلفة لخزينة الدولة. وبعد عرض الحل اتفق المجلس وقرر. وبدأ محمد يصوغ ويكتب الوضع كله: طلب أهل المدينة وقرار مجلس الإدارة وقرار مجلس الشورى، ثم وضع نتيجة المجلس بحسب اتفاقهم على أساس أن يبقى الصرف شهريًا. ولكل مدرسة وكل من يستحقّ الانتظام فيها من أبناء الوطن. ووافق المجلس بالأكثرية على موقعين على المعاملة. ووافق أيضًا على أن يأخذ محمد المعاملة إلى عباس صيرفي مدير المالية العامّ المساعد.

ذهب محمد بالقرار إلى الصيرفي، حاملًا في خاطره نشوة الإنجاز. حتى إذا وصل وبدأ الصيرفي بقراءة المعاملة، وقد كان كثير الانشغال استوقفته فقرة تنصّ على ما يأتي: «والمدينة دار الهجرة تستحق أن يؤسَّس فيها قسم ثانوي إلّا أن ظروف الحرب أجّلت ذلك».

وقرأ عباس الصيرفي «والمدينة دار الهجرة»، فإذا به يضع القرار جانبًا ويقول بكلام ساخر يعوّج فيه لسانه «والمدينة دار الهجرة والمدينة كذا، والمدينة كذا».

فما كان من محمد وهو المستفزّ إلا أن انتزع القرار منه قائلًا: «هي الهجرة فلا أنت الوليد بن المغيرة (من مكّة) ولا أنا سعد بن معاذ (من المدينة)، لكنني

الآن سأهاتف صديقك السيد حمزة مرزوقي كي لا يصحبك إلى المدينة كلّ عام ما دمت تقول ذلك».

أفاق عباس من فعلته، فإذا هو يرتجف ويقول:» لا، لا، لا، أبدًا لا أقصد، أستغفر الله». وأحال بعد ذلك المعاملة إلى مجلس الشورى مرة ثانية مرفقةً بشرح من محمد سرور الصبان، ليكون هو مندوب وزارة المالية، وليوافق مجلس الشورى ويقرّ المعاملة، وتعمّ بعدئذ المنفعة أهل المدينة وجميع مدن الوطن، وما أكثر من انتظم في إعداد البعثات.

ملوخية بالبرسيم

انتقل محمد من المجلس المالي إلى رئاسة القسم الحسابي السيّار مقيمًا في الخرج. ليحتلّ موقعًا جديدًا يؤدّي من خلاله دور الوسيط بين أوامر عبد اللّٰه السليمان الوزير، ودواوين وزارة المالية.

سافر الوزير السليمان ومكتبه الخاص من مكة إلى الرياض ومعه عباس الصيرفي ومكتبه الخاص برئاسة محمد علي خزندار. ركبوا جميعًا سيارات البوكس الجديدة والنظيفة في آخر الليل، ولحق بهم محمد في صباح اليوم التالي، مستقلًّا سيارة فورد صغيرة بموديل أكل عليه الدهر وشرب كما يصفها. كانوا ثلاثة مترادفين، أبو بكر زمخشري، ومحمد علي مغربي والزيدان. وتعطّلت سيارتهم مرات متعدّدة، وبدت عاجزة عن العبور إلى مقصدهم.

أسعفهم وكيل الوزراة آنذاك سليمان بن حمد بن سليمان، وأُصلحت السيارة وهم في منتصف النهار، حتّى وصلوا إلى عشيرة ليجدوا الوزير ومن معه وقد تعطّلت سيارتهم على الطريق. عطل لن يجري إصلاحه، لأن الأكس لدي البوكس قد تكّسر. ووصل محمد وأصدقاؤه إلى المدينة بسيارتهم القديمة قبل الوزير وجماعته. وقفز عباس الصيرفي من مرافقة الوزير ليركب مع محمد في سيارتهم القديمة، وقد كان يسوقها شخص اسمه حبيب من التكارنة، وهو جيد في القيادة لدرجة أن الوزير بعد هذه الرحلة اعتمد حبيبًا سائقًا له. وصل الموكبان إلى الخرج. محمد بفورد قديمة، والوزير أمامهم بسيارته الجديدة فورد وبكرافات بألوان بارزة.

يعرف محمد هذه الطرق، وتعوّد وعثاء السفر. ينظر من نافذة السيارة مسترجعًا ذكرياته في المدينة. كيف كان يفرح بالمطر، ويركض وهو طفل وراء البرَد يجمعه ويشربه. يتذكّر خاله عندما كان يطبخ الأرزّ والعدس. يتذكّر كل ذلك وأكثر، وحالما أقبل على أول نفود السر استرجع عبق الماضي، واستنشق هواء الطعوس من الرمل والكثبان الملتوية التي كانوا يخشون المرور عليها بالسيارة يوم كانوا يقتحمونها على ناقة.

ومن الشبر الأول من نفود السر تفوح رائحة الزهر، وتطل عليهم جنة مزهرة من كل لون، أحمر أصفر وأبيض. والنفود التي كانوا يخشونها أصبحوا يخشون عليها من وطأة السيارات. وأمطرت السماء ماء هتانًا. فصاح محمد على السائق «وقّف وقّف».

قال السائق: «الوزير سبقنا ويمكن يفوتنا».

يجيبه محمد العاشق: «سنلقاه في المكان الذي يصل إليه، هو الأقصر، ونحن في المربع في الرياض، فدعنا نقف لحظة ونستمتع بهذه الزهور».

عندئذ ذهب محمد يصف الأرض والرمل والهواء والزهور لأصدقائه بلغة شاعرية يملؤها الحبّ والغزل في الأرض.

وقد سأله السائق عن حبّه الفاضح فأجاب: «تربّيت في طفولتي على هذه الأرض. وعيناي تدمعان من نار الحب لها، رملها شاعريّ. صدّقوني حتى وإن كذبتموني».

وصل الموكبان إلى الرياض وإلى الخرج. واستقرّ محمد في مكتبه الجديد، والمدينة في باله وزوجته وأبناؤه في مكّة. عرف محمد أهل الخرج. فهم يعرفون أبناء قومهم العرب، والخرج فيها المزارع الكثيرة، هي كالأفلاج المدينية لا تحبس الماء. لا تختزن الماء فتفجّر في عيونها. تفجّر في عين الضلع ومخيسة وسمحة وخفس دغرة حين تمتلئ الأرض من عطاء طويق، من حجر اليمامة.

وماء الخليج ارتوازي أو في نوافير من عطاء الأعلى من وادي الرمة ووادي حنيفة ووادي الدواسر. ومن هضبة الدوادمي ومن شرائع السراة يسيل الماء إلى المزارع من العين. وفي تلك الأيام رُكّبت الماكينات التي تضخّ الماء بلا انقطاع. يسيل في قنطرة ثم في جداول وإلى كل فلج وبستان. ومعظم المزارعين من أهل القصيم ما عدا واحدًا منهم من أهل المدينة. علي أبو الجود ومعه أخوه الكبير حمزة أبو الجود، من كبار عوائل المدينة، وكان لهما فيها الرخاء.

وكان معهما من الموظفين شباب من المدينة. أعدّهم الوزير السليمان عونًا للعمل براتب قليل. فأصدر محمد أمرًا على أمر الوزير يطالب بموجبه بزيادة الراتب. وتقدّم عبد الإله درندري من المدينة إلى مدير الخرج يطلب بعض الخضرة. ففي الخرج الخضرة كانت نادرة، وأهل المدينة كلها يعرفون الخضرة كطبق أساس في حميتهم. فجاوب المدير الشاب عبد الإله قائلًا: «ما في خضرة، يعني أنتم في بيتكم تأكلون الخضرة».

فجاء الفتى يشكو همّه إلى محمد. فانتفض محمد من مقعده وهو يقول: «الآن سيعرف المدير من أنت».

وذهب إلى المدير ليقول له: «هذا عبد الإله درندري والده آمين درندري من أعيان المدينة، وكان له امتياز، وجدّه لأمّه كان الرجل الأول عند السلطان عبد الحميد، الصدر الأعظم، وصهره الشريف عون، وله يد على عمر نصيف، وله يد أيضًا على إسماعيل خديوي مصر. وشابٌّ هذا جدّه، ومن أبناء المدينة المليئة بالخضروات لا يأكلها في بيته؟».

اغتمّ المدير واكفهرّ وجهه، إلّا أنه لم يكن يعرف الشابّ وخلفيته. ولم يكن يعرف أرض المدينة ومحصولها، ولا عن غياب الخضروات في الخرج لأن حصيلة زرعها لغير ذلك، والموجود منها قليل. ولا يكفي ساكني الخرج أساسًا.

ولترطيب الأجواء جمع محمد المدير والشاب والأصدقاء على وليمة غداء. وقد قرر أن يطبخ الملوخية الشهيرة. وبغياب الخضروات تذكّر كيف طبخ حسن عشي، الطباخ الماهر والذائع الصيت يومذاك، طبخ للشريف عون البرسيم على أنه ملوخية. ودخل محمد المطبخ يسلق اللحم الدسم من الفص والأضلاع، وقطعًا من الليلة الماضية. ثُمّ قطّع الثوم نيئًا ووضع الكثير منه في المسلوق لمزجه مع ورق البرسيم الذي فرمه كأنه ملوخية. وطبخ الملوخية وأعد الكشنة وأقبل الجميع على الأكل، وأكلوا حتى شبعوا، من دون أن يخبرهم محمد.

وفي اليوم التالي استيقظ محمد والكل يمدح في أكلة الملوخية، تحديدًا المدير، الذي أثنى ثناءً كبيرًا على مجهود محمد. ومعه صديق المدير الجديد عبد الإله درندري، الذين فرّقتهم الخضروات وجمعهم البرسيم. ومحمد في سرّه يقول كما يقول أبناء الكتاب: «تمت السورة وضاعت العصا المكسورة».

يا غافل لك الله

«الزيدان حاجز ماكينة في المخزن»، شكوى رفعها المزارعون إلى الملك عبد العزيز. فقد وصل ابن سعود إلى الخرج قبل أيام متعدّدة، وغادر الوزير السليمان الى جدة، وأبقى محمد ليهتم بشؤون المالية حتى رجوعه، وكان مسؤولًا عن سير العمل، وعن ضيافة الملك. وآخر ما كان يتوقعه أن تُرفع شكوى عليه.

إلّا أن الرعاية الإلهية، كما يصفها محمد، هي التي تنقذ الغافل. فالقدر قاد الشكوى لتقع أمام عيني أحمد سعيد العربي المصري، الذي كان ينقل أخبار الراديو إلى جلالة الملك. والقدر قاد أحمد سعيد إلى الديوان فرأى الشكوى. فأبلغ محمد ما قرأ. فما كان من محمد إلا أن ردّد فعل العامّ: «يا غافل لك اللّه».

المشكلة التي اشتكى منها المزارعون في الخرج كانت بسبب عطل في إحدى الماكينات المركّبة على عين سمحة. ثلاث ماكينات تعطّلت، واحدة منها لأن تزييتها بزيت الخروع، وصعب أن يصل الزيت في أيام بسبب الحرب. وكانت الماكينتان كافيتين إلّا أن تشغيلهما يطول. ولو كانت الثالثة تعمل لما طال شغلهما. تعطل عمل المزارعين فأسرعوا إلى مدير الخرج يطلبون الحل، يخبرونه عن شح الماء، وأن ماكينة واحدة لا تكفي، وعن غيرها من المشاكل. يعني محمد لا ناقة له فيها ولا جمل.

وأخبر أحد المزارعين المدير أن هناك ماكينة في مخزن بني عليها الوزير السليمان بابًا من اللبن، مطالبين باستخدام الماكينة المخزّنة، إلّا أن المدير لم يتصرّف متنصّلًا من المسؤولية. وأغرى المزارعين بكتابة برقية إلى الملك الموجود في الخرج بأن وزارة المالية تقصّر في تلبية حاجيات المزارعين، في أول أسطرها ورد إلقاء اللّوم على الزيدان.

أخذ أحمد سعيد المبادرة من دون التشاور مع محمد، وذهب للقاء نائب رئيس الديوان، فقد كان عبد اللّه بن عثمان غائبًا. وتحدّث أحمد كيف أن الزيدان لا علاقة له بالشكوى، وأن المسؤولية تقع على مدير مشروع الخرج، طالبًا منه التريث في تقديم الشكوى إلى ما بعد صلاة العصر. وسيأتي بالحل. وأخبر أحمد سعيد محمد وهو مسرع يحاول إيجاد الحل.

تحرّك محمد واشتغلت ماكينات عقله. كان يفكر كيف يحلّ الموضوع. نادى علي مهندس المشروع واسمه حبيب، وقد كان له من اسمه نصيب، إضافة

إلى أنه مهندس بارع، وأسرع محمد والمهندس حبيب إلى المخزن يكسران الباب، لا بل يهدمانه لأنه من اللبن. وأخرجا الماكينة ووضعاها في شاحنة وتوجّها بها الى سمحة. ومَن أسرع في تركيبها من المهندس حبيب. عندئذٍ بدأ تدفق الماء وبكثرة، وبينما كادت صلاة الظهر تقام كان الماء من عين سمحة قد تدفّق وكأن الماكينة ليست عاطلة من العمل. لم يقف محمد عند هذا الحدّ، بل وبثقة وبسرعة أبرق إلى الوزير السليمان يخبره بما حصل، وأنه خلع الباب وأخذ الماكينة وركّبها، متحمّلًا المسؤولية أمامه في إيجاد الحل للمزارعين. وبعث بصورة أيضًا من خطابة إلى الديوان.

وجاء جواب من الوزير لمحمد يقول فيه: « أحسنت وبارك الله فيكم»، عبد الله السليمان.

في صبيحة اليوم التالي ومحمد في مكتبه يراجع بعض من المعاملات دخل عليه نوري السعداوي وعبد الله السعد وعبد الله بن عدوان، وكلهم من الديوان، يسألونه عن حجز الماكينة، وفي كلامهم اتهام مبطّن له بأنه هو الذي حجزها. لأن الشكوى قالت ذلك.

رحّب محمد بهم. وامتص الكلام والاتهام. فقد كان عنده ما يستند عليه، وقال: «يا جماعة أنا أدري إن الشكوى حطّت اللوم علي، لكنّ هذه البرقية مني للوزير وهذا جوابه عليها».

«أشوف البرقية»، يقول بن عدوان، وهو يعرف محمدًا.

«ابن السليمان هو حاجزها مو مانعها. يعني تارك ماكينة إضافية احتياطًا منه». وبكل ثقة يناول محمد البرقية.

ليشكر الله على إخراجه من الورطة التي كاد له فيها مدير الخرج. ولا ينسى أن يذكر الفضل للصديقين صانعي الوفاء أحمد سعيد وفهد العثمان. وانتهت رحلة محمد إلى الخرج بعد ذلك بفترة، لا ليرجع الى المدينة، بل إلى مكة، حيث زوجته وأبناؤه، وحيث العمل الجديد أيضًا ينتظره.

العمل في الصحافة والإعلام

اِنتهى العمل الوظيفي لمحمد مع إحالته على التقاعد المبّكر. لم يحزن أو يجزع، لأنه في الوظيفة كان مقيّدًا ببيروقراطية قاتلة لنفسيته، وهو البدوي لا يحبّ التقيّد إلا بمواسم المطر. يقول كيف خسر في الوظيفة راحة النفس، ويكمل كيف كانت أسعد أيامه يوم كان معلم صبيان في المدينة.

وغادر محمد جريدة المدينة بعدما شارك في تآسيسها. وابتعد بحكم عمله الجديد في مكة عن الكتابة فترة. وعندما أراد مزاولة الكتابة في الصحافة، لم يستطع، ذلك أنّه لم يكن من أصدقاء رؤساء التحرير، ولا من خلطائهم.

وفي ليلة من ليالي إقامة محمد في بيت الأفندي نصيف، وصل الكاتب والمفكّر الكبير حمزة شحاتة يزور صديقه الأستاذ حسين محمد حسين نصيف، وسأل عن محمد لعلّه سمع عنه لاحترافه الخطابة، أو من خلال صلته بجريدة المدينة. فعرّف محمد باسمه. ودار حديث كان محمد يأخذ الريادة فيه. يتحدّث عن حفظ أهل شنقيط اللغة العربية، وأنهم ما زالوا عربًا أقحاحًا في الصحراء الأفريقية، وأنهم حبسوا أنفسهم في الشعر الجاهلي وأكبروا شعر هذيل.

فجاوب أحد الحضور من علماء شنقيط: «إذا قال المحدثون مثل هذا البيت حفظًا لهم» وأنشد:

لكنْ أخو خيل حمى صهواتها وأدار من أعرافها الهيجاء

ليقول محمد مجاوبًا: «هذا البيت لمحدث هو شوقي، من قصيدته في رِثاء عمر المختار.

«أوه، ترانا لا نحفظ شعر شوقي؟؟» يجيب العالم من شنقيط. ضحك الجميع إعجابًا بمحمد ومعهم الأستاذ حمزة شحاتة.

وأدار الأستاذ حمزة الصامت والمراقب عن بعد معظم الحوار وبأسلوبه الساخر كان يحلّي الجلسة، ويستفزّ محمد فقال: «إيش رأيك يا محمد، صادق عرنوس أشعر من شوقي؟».

فجاوبه محمد ضاحكًا «هذا يعني أن شاعر المسفلة البنغالي الذي يقيس ميزان الشعر بالمسواك أشعر من حمزة شحاتة».

أعجب حمزة شحاتة بالإجابة وضحك لدرجة ميل رأسه إلى الخلف. ثم سأله: «ليش؟»

«لأن عرنوس يتعرنس في مجلة الفتح، أما شوقي، فقد افترس المثقف العربي من الخليج إلى المحيط».

وبدأت بعدها علاقة صداقة بين الزيدان وشحاتة، في الحياة والعمل الصحافي.

وبدأ محمد الكتابة في جريدة البلاد السعودية. كاتب ليس متفرغًا، بل يكتب من حين لآخر. وتوطّدت الصلة بين محمد وعبد الله عريف وحمزة شحاتة. وكان حمزة شحاتة في قمة التألق كما يتذكّر محمد. فشحاتة أعطى عبد الله عريف سمعتين شهيرتين. فكان شحاتة يكتب المقال مضمِّنًا إياه بحثًا مستفيضًا عن الجمال وأنواعه ورونقه. وينشره عبد الله عريف بإمضاء شحاتة. ثم يكتب شحاتة ردًا على هذا البحث، يبحث على البحث مستفيضًا يعتمد فيه المفارقة في الأسلوب، ويُنشر في صحيفة البلاد بإمضاء عبد الله عريف.

والسمعة الثانية التي يرويها محمد عن ذكرياته في الصحافة وشحاتة. لم يكن حمزة شحاتة هو الرأس المدّبر الوحيد، بل شاركه في ذلك أحمد قنديل ومحمد عمر توفيق والزيدان. يكتب شحاتة كتابه عن محمد سرور الصبّان، وفيه تحليل عن شخصيته وأسلوبه وحياته. تحت عنوان (رجل وعمل). أكثر أفكار الكتاب من حمزة وقنديل. أمّا الأسلوب، فأسلوب عريف والزيدان. والزيدان صاحب تسمية الكتاب.

توطّدت العلاقة أكثر فأكثر بين محمد وعريف. وكانت أكثر توطيدًا مع محمد عمر توفيق وأحمد قنديل. وهما كما يسرد الزيدان كانا العون لعريف في التخطيط وإخراج الماكيت. وكاد الرباعي ألا يفترق. يسهرون معًا، ويعملون معًا، حتى إن تسع مقالات كانت حملة على زعيم عربي نقدًا لموقفه من السعودية، أملاها محمد علي عبد الله عريف، ولم تكن بإمضاء محمد، وهذا ليس تحاشيًا، لكنّ عبد الله عريف نصح بأن تكون للجريدة، حتى تكون أكثر وقعًا. صديقان صحافيان لم يفرّق بينهما المجد في العمل، بل جمعهما الجدّ فيه. ومن الغرابة أنّ رجلًا من الكبار في البلد قال لمسؤول كبير إنه هو صاحب المقالات!

وافترق محمد عن البلاد.

وفي يوم من الأيام جاء عبد الله عريف يزور محمد في بيته. بعدما رجع الأخير من رحلته إلى مصر، حاملًا معه ديونًا فاقت قدرته على السداد. فكان راتب التقاعد ألفًا وسبعمئة ريال. واتكأ محمد على رأي العامة «يا إيدي فكي حلقي». فزاره الصديق الوفيّ كما يصفه، يرافقه صديق وفيّ آخر، هو عبد الله جفري، يريدان إجراء حديث معه ولجريدة البلاد. يومذاك كان محمد عمر

توفيق مديرًا لـ«البلاد» في مكة، ورئيس تحريرها حسن عبد الحي قزاز. ولم ينتظر طويلًا وإذا به يرشّح محمد عمر توفيق الزيدان مديرًا لتحرير البلاد، ليصبح الراتب ألفًا وثمانمئة ﷼. فأصبح دخل محمد ثلاثة آلاف وخمسمئة ﷼ تكفي للعيش وسداد الديون.

لكنّ راتب التقاعد كان مجمّدًا لتسعة أشهر. خمسة عشر ألفًا وثلاثمئة ﷼ لم يصرف، وكان يعدّ ثروة في تلك الأيام، لم يتغير نمط معيشة محمد. وهو كان يحبّ الحياة. يحبها مع الناس وإلى الناس. فهو كان يصف نفسه في آخر سنوات عمره بأنه يعمل واسطة للناس، وحفاظه على المستوى المعيشي العالي جعل الناس يعتقدون أنه أغنى الأغنياء، حتى إن الأستاذ فؤاد شاكر الشريك في رئاسة التحرير للبلاد رديفًا لحسن قزاز قال لمحمد سرور الصبّان: «كيف يرضى الزيدان أن يكون تحت حسن قزاز وعنده خمسة ملايين ﷼؟»

فأجابه الصبان بعصبية: «اِلتهي على عينك، الزيدان ما يعرف يجمع الفلوس».

ولاحقته الشائعة. ووصلت إلى الملك فيصل بن عبد العزيز، فقد شكاه أحد المشاغبين إليه. فقال الملك: «الزيدان ما ياكل حقك، عنده خمسة ملايين ﷼، ارجع إليه يعطيك». وضحك محمد من الشائعة التي تلاحقه على قاعدة (لئن أكون الرجل المحسود خيرٌ من أن أكون الرجل المشفَق عليه).

وليت الأمر توقّف عند هذا الحد. كلّم محمد رئيس مجلس إدارة بنك الرياض طالبًا منه قرضًا بخمسين ألف ﷼ مقابل رهن بيته في مكة، فقال له: «عندك خمسة ملايين وتطلب قرضًا!». واستمرت الشائعة. فقد فاجأه صديقه الأستاذ أحمد جمال بسؤال: «إيش عملت بعمارتك في مصر، وكيف حال الأولاد في القاهرة؟».

والسؤال جاء من باب التعاطف من صديق لصديق. فمحمد كان يقود معركة الجريدة في الخلاف بين مصر والسعودية. فأجابه محمد: «هذه أخبار الجودرية. أنا لا أملك شبرًا واحدًا في مصر، وأولادي هنا، وأكبرهم في لندن للدراسة».

تدرّج محمد بعدها في عمله. وجاءت الترقية من مدير للتحرير إلى رئيس لتحرير البلاد. وجاءت الترقية رضوخًا لأوامر مجلس الإدارة، لا تجاوزًا منه لصديقه حسن قزاز، بل إنّ محمدًا رفض عرضًا يمنحه ملكية أسهم التوفير والاقتصاد في جريدة البلاد، ليُعزل منها.

عيّن بعد ذلك رئيسًا لتحرير جريدة الندوة، لم يستمرّ محمد في موقعه مدة طويلة، فقد استقال بعد عمليات شدّ وجذب، ولم يجعل نفسه كما قال «لعبة لأحد». وأكثر الناس استشارة لمحمد وعلمًا بتفاصيل تلك المرحلة هما عبد الله عريف ومحمد عمر توفيق.

ثمّ انتقل محمد إلى عمله الإذاعي. يذيع برنامجًا اسمه (كلمة ونصف). ومع وصول التلفاز تحوّل إليه مطلًا عبر برامج متعدّدة. أشهرها برنامجه الرمضاني، حيث كان يطل مع صديقه الشيخ علي الطنطاوي، ليختاره وزير التعليم العالي وقتذاك الشيخ حسن آل الشيخ عضوًا في مجلس إدارة الدارة، ورئيسًا لتحرير مجلتها، وعضوًا في مؤسسة الملك عبد العزيز.

خارج العهود الثلاثة

استمر محمد في عطائه، يكتب ويتلفز التاريخ والتراث، كما كان يحبّ. يقدّم برامج متعدّدة في الإذاعة والتلفاز، إضافةً إلى المحاضرات. كان يكتب ويتحدث «بكلمة ونص»، وهي عنوان الكلام، عنوان مقالته.

استمر أيضًا في حب وطنه الصغير: عائلته. ينثر العطف والمساعدة والرأي على كل مريض ومحتاج وغائب عن أسرته. ولم يغِب عنه حبّ الوطن الكبير: الكلمة، الوطن الذي صنع له أجنحة. فلقّب العهد الثالث الذي عايشه بالكيان الكبير.

كل هذا الحب، إلا الحب الأوّلي، الذي كان للمدينة وذكرياته فيها.

غلبه المرض وأقعده في أواخر أيامه. وحسّه الفكاهي وحضور ذهنه، لم يتقاعدا أو يغيبا. يتذكّر أبناءه حين نُقل بالإسعاف من منزله في مدينة جدة إلى المستشفى. يتذكّر مرافقه الشخصي فيصل بن حزام والدمع يغص في عينيه كيف كان محمد حاضرًا واضحًا وفصيحًا في الإسعاف حين سأله: «لماذا سلك السائق هذا الطريق؟». ليكمل محمد: «الأقصر لو لفّ يمينًا من عند الإشارة».

يتحدث ابنه حسين متكئًا على ذاكرته واصفًا كيف تلقى اتصال ابن حزام لإخباره بأن الوالد قد نقل إلى المستشفى. لحظتها قفز حسين من مكانه متجهًا لوالده. في المستشفى جلس إلى جانب رأس والده الذي يرقد. متوجّسًا وخائفًا على أبيه يمسح بيديه على رأسه، لكنّ محمدًا وبكل عفويته المجنّحة أخرج التوجّس من الغرفة يسأل عن ترتيبات لقاء العائلة بعد يومين. ليغرق حسين في ضحكته ودموعه.

في المستشفى اتفق أبناؤه جميعًا على جداول دورية للمبيت ومرافقة والدهم. والزوجة أم حسين تقف على مدار الساعة حول زوجها تحترف الوفاء كأيّ امرأة مدينية كما تقول. هي الزوجة والأم وربّة البيت والكيان الحاضن لعالم الزيدان. كانت فخورة به كثيرًا، ولا تسأله عن أسباب تأخّره، بل كانت تقول: «هو في البيت زوجي، وخارج البيت للناس».

وفي أحد الأيام وبينما كان محمد مستلقيًا على فراش المستشفى، نظر إلى ولديه فريد وسامي، وسألهما عمّا أعدّاه لوجبة الغداء، في لحظة يرويها الابن

فريد بشغف يلمع من خلف نظارته، واصفًا كيف كان أبوه حاضرًا بنكتته حتّى على فراش المرض.

ترك محمد في وجدان كل فرد من عائلته ذكرى وقصة.

تتذكّر ابنته عائشة كيف كان والدها يتقبّل كل سؤال. فقد سألته مرة: «لماذا تسمح لي بتقبيل يدك أحيانًا وتسحبها أحيانًا أخرى؟». فأجابها قائلًا: «أسمح لك بتقبيلها حبًا، وأسحبها منك إجلالًا».

تكمل عائشة واصفةً والدها بأنه كانت له نفسٌ لوّامة ولسان حاضر شديد غليظ في الأمانة العلمية. فهو لا ينسب لنفسه شيئًا ليس له، ولا يذكر صاحبه، فتقول: «إنه جاء سؤال للوالد على الهاتف وكنت قريبة منه، فسمعت السؤال، وكان عن الشطر الأول لبيت شعر، فأجاب الوالد السائل أن ينتظر ليبحث عن الجواب، لكنني ذكرت له الشطر الثاني، وفيه الجواب، فقال الوالد للسائل (هنا من يعرف) وذكر ما قلت ولم ينسبه إلى نفسه».

وكما أنه لم يبخل بمعلومة، لم يكن يبخل بعطاء مادي، حتى على حساب نفسه، إذ تصفه ابنته سميرة بأن مفتاح شخصيته العطاء. يعطي الحب والحنان والرعاية والاهتمام. وتقول: «يحب أن يكون ذا اليد العليا، فتزداد فرحته بالطلب ويزداد حبه لمن طلب».

تتذكّر سميرة حادثة ما زالت حاضرة لديها. فقد كان من عادته أن يطلب من أبنائه فتح الراديو وقت الأخبار. وكان لديه ترانزستور. حملته يومذاك سميرة إلى والدها وهي تضبط الموجة على أخبار التاسعة، ومعها أخوها سعود يعاونها. بدأت الأخبار ببيان نعي للشيخ محمد سرور الصبان. أسرع سعود وسميرة في خطواتهما وهما يحملان الراديو وخبر وفاة صديق محمد. فوجئت سميرة بأخيها سعود يقول له: «عظّم اللّه أجركم في محمد سرور الصبّان». مرت الأيام والسنون لتسمع سميرة والدها يقول: «سعود الوحيد من أبنائي اللي عزّاني في سرور الصبان!».

وأتذكّر كيف كنا نحن الأحفاد نتسابق لزيارة «سيدي» في المستشفى. ولا أنسى يوم رافقت عمي أحمد لزيارته. صعدت معه في سيارته، وذهبت أرشق عمي بأسئلة تلو الأخرى عن جدّي. أتذكر أنني سألته: «كيف أصبح سيدي على ما هو عليه؟». فقد كنت أنظر وأنا الفتى ابن الخمس عشرة سنة إلى محمد حسين زيدان كمارد كبير. هو الأقوى والمفوّه وصاحب الهمّة حين تخبو كل الهمم. وتحديدًا هو مشهور ومعروف. فكنت أجده في التلفاز وفي الصحف والراديو. والأهم أنني كنت متأكدًا في أيّ لحظة أعرّف فيها بنفسي

أن يكون السؤال التالي: «يقرب لك محمد حسين زيدان؟»، وبكل ثقة وسعادة كنت أحضن السؤال وأطلق الجواب نعم، هو جدّي، هذا المارد.

لكن في ذلك اليوم عند زيارته وجدت جدي الإنسان. وجدت جدي الذي ناهز الثمانين من العمر. دخلت إليه في الغرفة لأجد «ستي زيدان» تعاونه في تغيير قميص نومه. وهو يجلس عند طرف فراشه. وجدت جسد المارد نحيلًا مصفرًّا مترهّلًا. هالني المنظر. فأسرعت قبل أن أساعد ستي بتقبيل يده كالعادة. غير أنه وبعاطفته الزيدانية ضمني إليه يحضنني. لا أدري لماذا. لربما استشعر برادار عاطفته العتيق والدقيق أن الحفيد يحتاج الاطمئنان.

بعدها جلست في مقابل جدي. وستي في مقعدها بجانب الفراش تحمل قرآنها. استرجعت لحظتها ذكرى زيارة جدي المارد إلى مدرستي بأعوام. وكم كنت من شدة الحماس أن غبت ذلك اليوم عن المدرسة بعد الاستئذان من الوالد. تذكرت كيف انتظرنا أنا ووالدي جلوسًا عند رصيف المدرسة لحين قدومه من محاضرة كان يلقيها في جامعة الملك فيصل. وعند وصوله استقبلته المدرسة بترحيب باذخ. شعرت يومها بأيما سعادة واعتزاز.

قطعت ذكرياتي حين أشار سيدي إلى عمي أحمد بأن يجلب له محفظته من مكانها بين الرفوف. ليخرج مبلغ ستة آلاف ريال مناديًا لي ومقدمًا المبلغ. فنظر إليّ عمي مازحًا وغامزًا يقول: «أبسط يا عم بركة صلة الرحم».

هي صلة الرحم وكل ما تحملها من معانٍ جسّدها محمد حسين زيدان.

يحب الأهل وجمعة الأهل. ويفتح بيته لكل فرد منا. مقدمًا الحب بكلمة أو بفعل، وأحيانًا كثيرةً على أكلة السليق التي شهدت أهم لقاءات العائلة. فهو يحب البساطة في المنزل والملبس وفي الطعام. وبالرغم من عفويته المطلقة كان يعشق الروتين والانتظام في يومه.

لم يكن يطيل النوم صباحًا. ويحب السهر في الليل. لذا كانت القيلولة بعد الغداء أمرًا لازمًا. يتذكر جميع الأبناء والأحفاد أن فترة بعد الظهيرة يسودها الصمت في منزل الزيدان.

في غرفته يجلس وينام ويستقبل الناس. يتكئ على عدة مخدات وعلى جانبه الأيسر غالبًا. حتى إذا أراد النوم استدار على الجانب الأيمن ولفَّ رأسه بغترة أو شماغ قديمة فقدت خشونة النشأ فيها. يضع بجانبه مخدة طويلة يريح عليها يده وركبته. لا يرى بأن عليه شراء غرفة نوم كاملة. فقط طاولة جانبية عليها التلفون وعلبة المناديل وتحتها سلة المهملات. فوقها رف

لأدويته. بجانبها جدارية علق عليها صور الأبناء والأحفاد. وفي المنتصف أكبر الصور لامرأة باللباس العسكري.

ولفترة طويلة كنت أعتقد أنها أحد أفراد العائلة ولكنها كما كان يلقبها محمد «هي ستكم، هي عروس الجنوب الشهيدة سناء المحيدلي (الفدائية التي اقتحمت ثكنة إسرائيلية في جنوب لبنان المحتل)». ليكمل قائلًا: «لو عرفنا قيمة الموت بعد أن أهدرنا قيمة الحياة!».

وقفات تأمل كثيرة. تروي ابنته عفاف عن أبيها عن عاطفته الجياشة للفقراء والمساكين. مسترجعًا على الدوام كلمة الخليفة عمر بن الخطاب: «يا أبا الفقراء والضعفاء والأرامل والأيتام». تحكي كيف كان هو البدوي الذي يعشق الماء فيدرج مصطلحًا عامًّا بليغًا حين وصف المطر «بالمفتش العام». المطر الذي يفضح المستور من الفساد.

كان يمقت الفساد ولا يخالط الفاسدين إن استطاع إلى ذلك سبيلًا، يقول ابنه فيصل. فيذكر كيف أن منزل الزيدان لم يتعرض يومًا للسرقة. باب الحوش مفتوح. وباب المنزل غير مغلق. وباب قلب محمد وسيع فسيح. ذلك أنه اتخذ الآية الكريمة شعارًا له{وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا اللّه وليقولوا قولا حسن}(17).

ومن داخل البيت وإلى خارج العهود الثلاثة محمد هو محمد. بمعنى أنه لم يتغير ولو تغيرت الحياة أمامه. فما زال ذلك الطفل البدوي في خيمته يدخل عمق التاريخ كل يوم بكلام لا تاريخي. هو محمد حسين زيدان الذي قيل عنه عند رحيله: إن الكلمة أصبحت عزباء.

أما المدينة فهي الحب الأولي. فقد نقل فؤاده حيث شاء محمد، من رياض الخزامى وقاهرة المعز ودمشق الأموية وبغداد العباسية ولندن قلب الأسد (ملك إنجلترا ريتشارد الملقب بقلب الأسد) ومعها باريس شارلمان، نعم هكذا هي الجغرافيا في ذهن محمد!

ولكن المدينة ظلت الحب العظيم.

المدينة المنورة

هي،

ليست مسقط الرأس فقط.

ولا مرتع حياة الطفولة أو مغامرات الشباب، ولا حتى منهل علم، أو ذكريات كهل، بل هي كل ذلك وأكثر أيضاً. هي الحب الكبير. حبّ الطفل لأمه.

هي مطبوعة في وجدان محمّد. مدينة بأرضها وفضائها، أحبّها كمن يحبّ أمه. وكأنه أراد أن يقول إنها هي أمّه التي فقدها.

حفظ تفاصيل شكلها، ليصفها بعشق. وعرف جمال وجهها ليصلّي على أفضل ساكنيها. وعانق تضاريسها بنبل رجل، وفي غياب الأمان ينوخ بذكرياته فيها. فلا أمن مثل حضن الأم. واستوعب كل عثراتها بقلب ابن.

غزلًا كان الموضوع بالنسبة إليه، حين يتحدّث عنها. غرام يفيض، ولهفة تكسر حاجز الزمن.

هي،

روضة. وغدير. وبقعة، بقيع الغرقد وبقيع النخيل. ووجه الجمال لإنسان الجزيرة العربية، وكل ما جاورها.

حُضنت من ثلاث جهات بالحرة، الحرة المستعرضة، وحرة بني قريظة، وحرة واقم. لتنساح أرضها شمالًا حتى أُحُد وحتى الغابة.

تُزيّن وجهها الجميل ثلاثة أودية. هي علامات حسن. بطحان (رانوناء) يمر من الوسط، يسيل من أعلى الحرة بين قباء وقربان. ووادي العقيق من الغرب يحضن الحرة الجنوبية، ومارًا بين جبل عير لينساب بين الجماء وحرة واقم. ثم وادي قناة. من الشرق يسيل ليملأ العاقول، الغدير البحيرة بين أحد.

لتجتمع الأودية الثلاثة في زغابة، متحدة ومتماسكة تجري. يصبح اسمها وادي الحوش. يهدر إلى الغابة، ويأخذ روافده من شعاب أحد وثور ونقمى، حتى يجانب رضوى. ويمر بين الخيفين عند ينبع النخل حتى يصب في البحر، في مدينة الوجه.

هي،

«اسمها مدينة واحدة» كان يقول.

«لكنّ موقعها جعل منها مدنًا متعدّدة» يستطرد.

الساحة، حارة الأغوات، مقعد بني حسين، سويقة، والمسجد، كلها داخل السور. مدينة واحدة. لسكانها لهجة واحدة، ملبس واحد، ومأكل واحد. وكأنّ السور حجزهم داخله. طراز معيشيّ خاصّ.

تَتّسع المدينة خارج السور لأهلها أيضًا. في كل اتجاه، مدينة خاصة بناسها.

في الجنوب. حوش منصور، المراكشية، التاجوري، المحمودية، والطيبية، لا تصل إلى المناخة. من أمام الباب المصري تمتد بمحاذاة مسجد الغمامة. يجاورها حوش النخاولة. كلّ له طابعه.

غربًا اتسع البناء على يد أهل السور. بنى أعيان من المدينة بيوتًا لهم، كبيت البري، وبيت الياس، وبيت الكردي، والداغستاني، وإبراهيم المفتي. وتحديدًا بنوا إلى الغرب من المناخة، ذلك أن هناك التزامًا بألا يقام بناء في المناخة.

لكنَّ العمران اتسع أكثر غربًا. أحواش تناثرت، سكنها أهل المدينة. حوش العنبرية، وحوش سنان (شنان)، وقصر مدار باشا، وحوش مناع، وأبو ذراع، والسلطانية. وبعضهم بنوا بيوتًا على حافة السيل، في ما يسمى النورية، امتدادًا لبيوت السيح. ليتبعها زقاق الطيار، وحوش قره باش (الرأس الأسود)، وحوش وردة، وحوش خير الله، وحوش قمر، وحوش شلبية، وحوش هتيم، وحوش السمان، وأم الورد، والمجزرة.

أما من الشمال الغربي، فهناك مدينة محمد. على الحزم من باب الكومة ودون جبل سلع. حوش خميس والقشاشي والصديقي (علي خضر) وحوش السيد. وكانت هذه الأحواش امتدادًا لزقاق جعفر، والبيوت التي حولها.

هي،

المسجد النبوي. بيت رسول الله.

أحبّها. أحبّ المدينة المنوّرة. ومن بعدها كلّ المدن سواسية.

المصدر: طيبة نت

(1) الدفتيريا عدوى تسببها بكتيريا الخُنَّاق الوتدية. وعادةً ما تبدأ علامات الدفتيريا وأعراضها بعد يومين إلى خمسة أيام من التعرّض للبكتيريا المسببة لها وتتراوح حدتهما بين خفيفة ووخيمة. وغالبًا ما تظهر الأعراض تدريجيًا وتبدأ بالتهاب في الحلق وحمى. وفي الحالات الوخيمة، تُنتج هذه البكتيريا سُمًّا (ذِيفانًا) يُحدث لَطْخة سميكة رمادية أو بيضاء اللون في مؤخرة الحلق. ويمكن لهذه اللطخة أن تسدّ مجرى الهواء فيصعب التنفس أو البلع، كما يمكن أن تسبب سُعالًا نُباحيًا. وقد يتورّم العُنق لأسباب منها تضخّم العقد اللمفية. وقد يصل السم أيضًا إلى مجرى الدم فيسبب مضاعفات قد تشمل التهاب عضلة القلب وتلفها، والتهاب الأعصاب، وحدوث مشاكل كُلويّة، ومشاكل نزفية نظرًا لانخفاض عدد الصفائح الدموية. وقد يسبب تلف عضلات القلب اضطراب ضرباته، بينما قد يؤدي التهاب الأعصاب إلى الإصابة بالشلل.

(2) المدر: الطين اللزج المتماسك. لسان العرب (م د ر)

(3) الإردَب مكيال مستخدم في مصر منذ زمن طويل. وهو مكيال إسلامي استعمل في الوزن والكيل أثناء العصور الإسلامية.

(4) الدبا هو الجراد الذي لم يطر بعد.

(5) بمقياس اليوم هذه الكمية تعادل ألفًا وخمسمئة طن!.

(6) المضير أو الأَقِطُ (ويسمى أيضًا *البقل*) هو لَبَنٌ مُحَمَّضٌ يُجَمَّدُ حتى يَستحجِر ويُطْبَخ ، أو يطبخ به.

(7) الشاية: ثوب قصير بلا كمين يلبسه الأطفال فوق ملابسهم.

(8) نسبة إلى أمراء المدينة السيد جماز الحسيني.

(9) سورة الملك، الآية 3.

(10) سورة البقرة، الآية 255.

(11) المخرمبق: المطرق الساكت الكافُّ.

(12) السواني اليومُ تعدّ من التراث السعوديّ، وتسمّى باللهجة الشعبية المحاحيل. وهي عملية استخراج المياه من الآبار باستخدام الحيوانات. ولهذا الغرض تُدرّب الإبل والحمير والثيران بحيث تمشى داخل أرض محفورة

تَسمّى المنحاة، حتى يصل الغرب إلى قاع البئر ممتلئًا بالماء ليصب في اللزاء لجمعه ومن ثم تصريفه. ويتولّى الساني وعلى صوت الدواليب أو المحاحيل إنشاد أشعار، والغناء على إيقاع حركتها. طريقة اخترعها الأجداد قبل التكنولوجيا، وعصر الطاقة والنفط.

(13) سورة آل عمران، الآية 140.

(14) سورة الأنبياء، الآية 56.

(15) سورة الزمر، الآية 18.

(16) النيابة: المقصود بها الجهة الحكومية في الحجاز والتي رأسها الملك فيصل بن عبد العزيز نائبًا من أبيه الملك عبد العزيز.

(17) سورة النساء، الآية 9.